

رابطة الجامعات الإسلامية

سلسلة مركز الدراسات الحضارية
(٢)

الإسلام والتفاعل الحضاري

تأليف

دكتور / أحمد مصطفى العتيق

أستاذ علم النفس البيئي
وعميد معهد الدراسات والبحوث البيئية
جامعة عين شمس



تصدير

أ.د. جعفر عبد السلام

الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية

أثـــارت أطـــروحة صـــدام الحضارات للكاتب صموئيل هنتنجتون كثيرًا من الجلـــبة والجـــدل، وانقسم الناس حولها فإذا هم فريقان يختصمون، فريق يرى العلاقـــة بـــين الإسلام والغرب علاقة صراع وتدافع، حيث تسعى كل حضارة للهيمـــنة على الأخرى، وتذويب هويتها، وفرض ثقافتها عليها. بينما يرى فريق آخر أن العلاقة ليست إلا حوارًا تحتفظ فيه كل حضارة بمقوماتها وخصائصها.

وقـــد أولـــت الحـــضارة الإسلامية "قضية الحوار" اهتمامًا واسعًا، ووضعت للحـــوار أسسًا يقوم عليها. فقد جاء القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، ليقرر حقـــيقة واقعة، وسنة ثابتة من السنن الكونية، وهى سنة الاختلاف، قال تعالى: **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّـــكَ﴾** [هود: ١١٨-١١٩]، ومن ثم فقد كان الحوار ضرورة يقتضيها التعايش بين الحضارات وإن اختلفت اتجاهاتها وتباينت سماتها.

والحـــق أن العلاقـــة التي تربط بين الحضارة الإسلامية والغرب قد شهدت فتـــرات مـــن المد والجزر، فبالرغم من التبادل العلمي بين الحضارتين الذي لا ينكره أحد من الطرفين، خاصة الغرب الذي استفاد كثيرًا من إسهامات الحضارة الإسلامية، في الفترة التي كانت أوروبا تعج فيها بالخرافات التي كانت سببًا في تخلفها آنذاك.. أقول: بالرغم من هذه العلاقات المبكرة، فقد شابتها أمور عكرت صـــفوها، حـــيث قامـــت حـــروب ضـــارية انتهت إلى السيطرة على المشرق الإسلامي، ومن ثم ساعدت كثيرًا في تشويه صورة الغرب لدى المسلمين الذين لـــم يروا الإنسان الغربي إلا جشعًا يسعى إلى سلب موارد بلادهم مستخدمًا في ذلك أبشع الوسائل.

وترسيخا لمبدأ ضرورة الحوار بين الحضارات تضع رابطة الجامعات الإسلامية بـــين يـــدي القارئ الكريم هذا العدد الجديد من سلسلة **"الدراسات الحضارية"** حول "

الإسلام والتفاعل الحضاري" للأستاذ الدكتور/ أحمد العتيق، وهى دراسة قيمة استحقت جائزة الرابطة لعام ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٢م.

وقد بذل المؤلف جهدًا كبيرًا في معالجة قضية الحوار بين الحضارات، فجاء البحث في مجمله رصينًا من حيث تقويم العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى، في ضوء الماضي والحاضر، وكذلك دور الحضارة الإسلامية في بعث حضارة الغرب على وجه الخصوص.

كما تناول بالتحليل تلك العوامل التي واكبت فكرة الحوار الحضاري، أو الصدام الحضاري من خلال الأطروحات المختلفة، وأسباب العداء بين الإسلام والغرب، ثم جاء اقتراح المؤلف بنموذج لتحقيق التفاعل الحضاري بين الإسلام والحضارات الأخرى.

وإيمانا من رابطة الجامعات الإسلامية بضرورة الحوار الحضاري، بل بفرضيته، ورغبة منها في أن تسود ثقافة الحوار جميع الأوساط العلمية والثقافية في أرجاء العالم الإسلامي، فقد رأت الرابطة نشر هذا الكتاب الذي يشتمل على فكر عميق ومتوازن في نظرته إلى قضية الحوار- حتى يتم تعميم فائدته على الجامعات، ومن ثم يستفيد منه الباحثون والمثقفون على حد سواء.

والله نسأل أن يهدينا جميعاً سواء السبيل،،،

مقدمة

أن المـــشكلة الرئيسية فى فهم الآخر تكمن فى التجربة الشخصية ، التى لم تعد مصدراً أساسياً لمعرفة الآخر كما كانت فى المجتمعات التقليدية . لقد تعددت وســـائط هـــذه المعرفة ، كما اتسعت سوق بيع الصور والأحكام المسبقة . ومن اكثر الصور مقاومة ورواجاً صورة التهديد .

والبعد الثقافى عنيد . لذلك فتجاوز المسبقات لا تكفى فيه النيات الحسنة كذلك الجدلية – سواء قامت على الربط أو على المفارقة – لا تحيل على سذاجة افتـــراض التأثير المتبادل بين الأنا والآخر ، ذلك أن الطرفين – وبينهما وسائط معقـــدة وكثيـــرة – ليست لهما بالضرورة ، الدرجة نفسها من الاستعداد للتفاعل ومـــن ثم ينبغى التأكيد على الفرق بين صورة الذات وصورة الآخر فى قابليتها للتغيير .

ولمـــا كانـــت الدعـــوة إلى تجاوز الانتماء الضيق فى اتجاه التفاعل مع الآخـــر ، كانـــت الدعـــوة الـــى تخطى عراقيل التنميط الذي تخضع له الأفكار والأحكام . إن هذا التنميط وما يقوم علية من مسبقات هو مصدر رئيسي للنزاع ولانعـــدام التسامح مع الآخرين . وهو أمر يستفحل اكثر عندما تعمد الأيدلوجيا الـــى استغلال البعد الثقافى . على أن تخطى العراقيل لا يكون الا عندما يحصل الوعـــى بأننا نحمل عن الآخر أفكاراً وأحكاماً نمطية ، وبأن علينا التدرب على النظرة والتهيؤ لها ، إذا ليس كل عين بقادرة على أن ترى .

والأمر المثير للجدل انه على خلاف جميع التكهنات التى ذهبت الى أن انـــتهاء الحـــرب الـــباردة سوف يوفر مناخا أفضل لإحلال السلام والأمن على المـــستوى الدولـــي ، فـــإن التطورات الفعلية جاءت على النقيض تماما ، حيث تفاقمـــت الحـــروب الـــتجارية والحروب القومية والحروب الأهلية على امتداد الساحة الدولية . وربما مما يثير الانتباه ارتباط هذه الصراعات – فى جانب مهم مـــنها– بالـــبعد الحـــضاري او البعد الإثنى . فنحن فى حاجة الى نظام عالمي انـــسانى يـــؤكد علـــى جـــوانب الاتفاق الإنساني اكثر من تأكيده على جوانب

الاخــتلاف ، ويرســى الحقــوق الأساســية للإنــسان ، ويحترم الاختلافات والخــصوصيات الدينــية والقومية والثقافية عامة ، وينتشر فيه السلام والعدل وإدارة الــتقدم والــتعاون والتكامل لشعوب الأرض جميعا بهدف تحقيق إنسانية الإنــسان عــن حــق . إن ذلك لن يتحقق ما لم يرسخ مفهوم الحوار فى اطار الحرص على حرية الاختلاف والاجتهاد والإبداع واحترام الرأي الآخر بصرف النظر عن اتجاهه الفكري او العقائدي .

لابــد للحــوار الحــضاري أن يولــى الاحتــرام الواجب لما بين هذه الحضارات من اختلافات فى نفس الوقت الذي تبنى فيه على الجوهر الأخلاقي المشترك الذي يمثل الجانب الأهم والأوفر فى بنية الحضارة الإنسانية .

وعلــى الــرغم من الصراعات التى اجتاحت العالم فلم يخل الأمر من تــاريخ طــويل وضــاء مــن العلاقات السلمية والتعاون الاقتصادي والتجاري والتكنولوجي وتلاقح الأفكار والخبرات الثقافية ، وحتى على المستوى العقائدى ، فــإن أوربــا مدينة لمنطقة الشرق العربى الإسلامي التى شهدت استقبال رسالة السماء بدءا من إبراهيم علية السلام وحتى الرسول الكريم محمد (علية الصلاة والسلام) ، مرورا بموسى وعيسى عليهما السلام .

إن الحاجة ملحة إلى تقييم اكثر توازنا وموضوعية لحقيقة التفاعل الحضاري ولــيس هــذا بغرض تجاهل حقائق معينة قد تكون مريرة او بغيضة ، بلى هي دعوى للسير فى طلب الحقيقة كاملة من اجل الحوار البناء وتجنبا للصراع الذي لن ينتصر فيه أحدا فى النهاية .

بهــذه الفلــسفة حاولــنا من خلال هذه الدراسة الالتزام بالمنهج العلمى والموضــوعية العلمــية بهدف الوصول الى الحقيقة : ولسوف ترى ..ولسوف ترضى .

أ.د./ احمد مصطفى العتيق

الفصل الأول

مـــدخـــل

مشكلة البحث :

مـــع مـــا أحدثـــته الخطابـــات الكونية التي قدمها توفلر Toffler وليوتار Lyotard وكيـــندي Kennedy وفوكـــوياما Fukuyama وهنتنجـــتون Huntington من جدل تباينت معه ردود الأفعال إزاء حقيقة التفاعل الحضاري العالمـــي المقـــبل، وانطلقت كثير من الآراء تعلي فكرة الحوار كبديل عن فكرة الـــصدام أو الصراع، وفي ظل الأحداث الجسام التي تعصف بالعالم بين الحين والآخـــر، يتساءل بعض الباحثين عن الحوار الحضاري : حقيقة هو أم خرافة؟ فرص واعدة أم صيغ استعمارية جديدة ؟ محو حدود أم أدوار جديدة ؟ " صراع أم صدام أم حوار ؟ " وصاحب هذا الجدل ابتكار مفاهيم جديدة مثل : " المجتمع ما بعد الصناعي " و" مجتمع الوفرة " و" المجتمع المتكامل " و" القرية الكونية "، جاءت جميعها لتوصيف ذلك الذي يحدث في عالمنا المعاصر. وفي هذا الإطار ارتفعـــت أصـــوات في المجتمعات الغربية، تعيد إلى الأذهان صيغاً استعمارية قديمـــة (مـــثل أمانة الرجل الأبيض)، وتدور هذه الآراء الغربية حول فكرة أن تـــرث المجتمعات المتخلفة الخبرة من المجتمعات المتقدمة، بما يمكن أن يخلق علاقة متميزة بينهما، الأمر الذي يستلزم إعادة صياغة سلوك الدول المتخلفة بما يطابق سلوك الدول المتقدمة .

أي حـــوار إذن إذا كانـــت هذه الأفكار تدور حول مضمون جعل هذه الدول المـــتخلفة مـــن وجهـــة نظر الغرب وطبقاً لمعاييره بمثابة متقبلات سلبية للدول المتقدمة. إنه تصور أساء قراءة التاريخ، ولم يتفهم حركية العلاقات بين الدول، التي تأسست وتطورت على حوار الاختلاف والتكيف. وعلى حين يزعم بعض المفكـــرين أن جدلـــية المستقبل ستكون ثقافية حضارية في المقام الأول، يعتقد البعض أن الاقتصادي مدخل لا مكان فيه للثقافي الحضاري إلا هامشياً وضيقاً. ويـــسعى فـــريق ثالـــث إلى الخلط بين الرؤيتين حينما رسم رونالد روبرتسون Robertson, 1996 [1] صـــورة للعالم، تتسم بدرجات من الاعتماد الحضاري

والمجتمعي المتبادل كمكان واحد وإن كان مسار فكره يمايز بينهما حينما يعني أن هذا الاعتماد الحضاري هو محصلة التوظيف الرأسمالي للنتائج التي أرستها مسارات الصراع الساعي للهيمنة على العالم اقتصادية كانت أو ثقافية. وفي محاولة لفرض نموذجه، بدت أمام روبرتسون عقبتان : الأولى قوة النزعة القومية، والثانية تزايد النزعة الأصولية، وكلاهما لديه يندرجان في إطار " البحث عن أسس "، تلك التي يغذيها الحنين إلى الجماعة في صيغتها القومية، وفي صيغتها الأصولية، حنين إلى التراث، وكلاهما يسكن في الهوية. لكن روبتسون ينوء بالهوية، فيراها وقد أعياها ثقل الراهن وواقعية حضوره، ليضحى الخلاص بالإقبال على تدبر الحاضر قبل أي شيء، والعمل على بناء استراتيجية تستهدف تفعيل الوعي الكوني في محاولة منه لإسقاط ما يحول دون حدوث الاعتماد الحضاري بمنطق الهيمنة الغربية. وهكذا يبدو الخط الثالث في الخطابات الكونية معتمداً في الأساس على أن الجوانب الاقتصادية ذات أهمية كبيرة في العلاقات بين المجتمعات، لكن هذه الجوانب تخضع خضوعاً كبيراً للاحتمالات والتأويلات الثقافية، ويذهب بعض المغالين في هذا الخط (ومنهم روبرتسون بالطبع) إلى أنه مازالت هناك قضايا مهمة، ذات طابع ثقافي بالأساس، تبني معظم العلاقات، العدائية منها والودية وتشكلها فيما بين المجتمعات القومية، ومن ثم تصبح التعددية الإثنية والثقافية – من وجهة نظرهم – قيوداً داخلية وخارجية ذات أهمية متزايدة على تشكيل السياسة الخارجية .

ويعتقد روبرتسون أن العوامل الثقافية تدخل في مجال السياسة الواقعية، وقد يقال، وبدرجات متفاوتة، أن كل السياسة الدولية ثقافية بمقتضى أننا نعيش عصر السياسة الثقافية الكونية. وفي الدراسة الراهنة نحن نميل إلى فهم " الاعتماد الحضاري " من منطلق تقبل ثقافات الغير "وتفهمها كجزء من تقدير القضايا الاجتماعية الاقتصادية والإيكولوجية العالمية. ونؤكد هنا على احترام الخصوصية الثقافية للشعوب والاستفادة منها في إطار التكامل والتلاقي وباعتبار أن هذه الثقافات تمثل الميدان الأبرز للتفاعل الإنساني، ولست أدعي هنا أن انطلاقتنا الفكرية جديدة، فقد اقتربت آراء كثيرة في الماضي من هذه الرؤية، فالرواقيون نادوا ببعض من هذه الأفكار قديماً، ثم الشرائع السماوية كالمسيحية، وازدادت عمقاً وتأصيلاً في الإسلام بدعوته الصريحة إلى أن التنوع بين

الـــشعوب والقبائل أساس للتلاقي والتعارف والتكامل . ويحاول فكر " ما بعد الحداثـــة " محاكـــاة هـــذه الـــرؤية مـــن خلال تحطيم الأنساق الفكرية الكبرى (والماركسية تحديداً) ، وإلى الإعراض باسم الخصوصية الثقافية والنسبية والحق فـــي الاخـــتلاف عن الأسس والنتائج القيمية لأفكار الحداثة والتنوير ، واعتبار التاريخ مفتوحاً على احتمالات متعددة ، ولست مبالغاً إذا قلت أن مفهوم " ما بعد الحداثة " نشأ كرد فعل لحالة القولبة المفاهيمية والنظرية التي سادت المجتمعات، وهـــي إعـــلان بعـــدم استقرار كافة أشكال الخطاب وتوارى المسلمات الثقافية التقلـــيدية الكبـــرى ، لـــيحل محلها قيم الخصوصية الثقافية ، والتجاور الثقافي المـــناهض للتنميط المستعلي (يفرضه مفكرو الغرب على العالم) . ولست أشك فـــي أن قضيتين مهمتين تفرضان نفسهما في إطار التفاعل الحضاري ، هاتين اللتـــين وصفهما روبرتسون أنهما يندرجان في إطار " البحث عن أسس " وهما القومـــية والأصولية . إنهما يمثلان في تقديرنا المساهمة الأكبر في الخصوصية الثقافية ، وليست قاصرة على منطقة بعينها في العالم ، وإنما في أكثر من مكان حـــيث يتنامـــي لدى الأفراد والجماعات شعور يتعلق بالتراث والهوية والوطن والميراث الحضاري بصفة عامة ، كذلك فليست الأصولية الدينية ترتبط تحديداً بالمناطق الإسلامية ، وإن كانت حددت على هذا النحو ، إلا أنها تنتشر في كل المجـــتمعات الغـــربية والـــشرقية . ومع هذا فقد كانت الأصولية الإسلامية هي موضـــوع الجـــدل دائماً ، وفي هذا الصدد يذهب أباظة وستاوث Abazaa & Stauth, 1990 [٢] إلـــى أن التقيـــيمات الثقافـــية المستخدمة من قبل الحركات الأصـــولية الجديـــدة ، لا يمكن تفسيرها من خلال تحليل تراث الدين الإسلامي وتاريخه . ص٢٢٣ بل يجب بدلاً من ذلك ، أن ينظر إليها على أنها نتاج للتبادل عبـــر الثقافي ، القائم أصلاً على الفهم الغربي غير الموضوعي للإسلام بوصفه ثقافـــة الآخـــر . ولكن البحث عن الأصالة والنمو القومي ليس ظاهرة إسلامية فحسب ، بل هو توجه عالمي . وكلا المفهومين القومية والأصولية يمثلان شكلاً قيمياً موجه لما هو اختلافي ومضاد لما هو حداثي ، ذلك من وجهة نظر مفكري

الغـــرب . وعلى الرغم من هذا القول " مضاد لما هو حداثي "، إلا أن هاتين الحركتين (القومية والأصولية) – من وجهة نظرنا – يمثلان اتجاهاً حديثاً مميزاً ينتمي " لما بعد الحداثة " . وفي إطار من التحديد المقصود عند هنتنجتون (أحد مخططـــي الـــسياسة الاســـتراتيجية الأمريكية) تصبح الحضارات (متمثلة في الأديـــان) هي العنصر المحدد للهوية الجمعية ، متجاوزة الإثنية واللغة والانتماء المذهبـــي والطـــبقة ، وهكـــذا يقلل هنتنجتون كثيراً من شأن التمايزات الإثنية واللغـــوية في فضاء حضارة ما . فهو مبدئياً يعتقد أن الدين هو العنصر المشكل والمحـــدد لجوهـــر الحـــضارة ، ولكنه (وبشكل مقصود) يتحدث عن الحضارة الأمـــريكية اللاتينـــية ، والحـــضارة الكاثوليكـــية (الأغلبية الساحقة للأمريكيين اللاتينيـــين كاثوليك) ، وفي المقابل عن الحضارة السلافية – الأرثوذكسية . ثم يعاد الحديث بوصف الحضارة الغربية بأنها ذات طبيعة علمانية . وعلى الرغم مـــن هذا التباين والغموض فإن الدين يحتمل حيزاً مركزياً في مفهوم هنتجنتون للحـــضارة . هكـــذا تـــبدو رؤية هنتنجتون عن " صدام الحضارات " تتحدد – اختـــصاراً – في الصراع بين الإسلام والكونفوشوسية من جانب ، والغرب من جانـــب آخـــر (معتمداً على وجود علاقات عسكرية بين الصين وكوريا وبعض دول العالم الإسلامي) . ويذهب هنتجنتون إلى أن الأفكار الغربية في الفيدرالية والليبرالية والالتزام بالدستور وحقوق الإنسان والمساواة والحرية وحكم القانون والفـــصل بـــين الدولـــة والكنيـــسة نادراً ما تلقى صدى في الثقافات الإسلامية والكونفوشوسية واليابانية والهندية والبوذية أو الأرثوذكسية . ومن غير المستبعد أن تسهم رؤية هنتنجتون في تشكيل السياسة الأمريكية في المستقبل على غرار المقال الذي نشره الدبلوماسي الأمريكي جورج كينان George Kennan سنة ١٩٤٦ فـــي نفـــس المجلة التي نشر فيها هنتنجتون مقاله سنة ١٩٩٣ (قبل أن يصدر في كتاب) وهي مجلة Foreign Affairs . وكان مقال كينان هو أساس الاســـتراتيجية الـــسياسية الأمـــريكية والغربية لنصف قرن حين دعا لمحاصرة الاتحاد السوفيتي والحركة الشيوعية بعد الحرب .

وكـــان فوكـــوياما قـــد بشر إثر تفكيك وانهيار الاتحاد السوفيتي بنهاية صراع عصر الإيديولوجيات ، وتوجه العالم نحو نهاية التاريخ بانتصار النموذج

الليبرالي الأمريكي ، معتمداً على رؤية " هيجل " ومستعيراً مقولة " ماركس " عـن اكتمال التاريخ عند أعتاب " الماركسية " و" الحتمية الاقتصادية " . وعلى الـرغم أن فوكـوياما اعتبر أن نهاية التاريخ تعكس مصلحة الليبرالية وقوانين الـسوق المنـسجمة مع السعي الإنساني لتحقيق الذات والمساواة ، إلا أنه ترك هامـشاً في التاريخ لصراعات وتوترات في أطراف العالم الليبرالي . وعلينا أن نـتوقف للبحث عن الجذور التاريخية والنفسية لهذه الدعاوي الغربية ، ويتحدد ذلـك في فلسفتين أساسيتين : الأولى تتعلق بمخاوف وشكوك الغرب من اقتراب الـنهاية والبحث عن أسطورة خطر تتهدده من الخارج كي يتماسك . أما الثانية فتتمـثل فـي التركيز المستمر على أن الخطر سوف يأتي من الشرق ، وأصبح يـزداد تحديـداً بالإسلام . والواقع أنه لا يمكن فصل الفلسفتين عن بعضهما ، فكلاهمـا مكمـل للآخر ، فقد تسلل اليأس إلى عقول بعض مفكري الغرب في مراحل التاريخ المختلفة ، حيث نجد " توينبي " في كتاباته عن " دراسة التاريخ " يتساءل عما إذا كانت حضارة الغرب محكوماً عليها – شأنها شأن ما سبقها من حـضارات – بالـزوال والأفول ، وهو يقول : إذا كان تشابه التاريخ المعاصر للحـضارة الغـربية والـتاريخ القـديم للحضارات الأخرى ، يشمل التفاصيل التسلـسلية ، فإنـنا اليوم على حافة هاوية تظهر حيالها الهاوية التي برزت في المجتمعات الغربية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر كالحفرة البسيطة ، ذلـك أن النهايات التي وضعت حداً للفترات المضطربة في التاريخ القديم ، إنما كانـت قـضاءً مبرماً على حضارات اندثرت نهائياً ولم تنهض ، وفي رأيه أن النزعة العسكرية للدول وأهواء القلة المتحكمة في قرارات الحرب هي التي تدفع بالحـضارات إلـى الانـتحار . ويعـتقد " توينبي " أن النزعة العسكرية تهدم الحـضارة بإثارتها الصدام بين الدول ، وفي هذا تدمير للذات يستخدم كل البناء الاجتماعـي وقوداً لإشعال اللهيب ، إن فن الحرب وحده هو الذي أحرز التقدم علـى حساب كل فنون السلام ، بل إن كبر الإمكانات العلمية والتصنيعية التي تـسخر لتسيير آلة الحرب تدفع بالتاريخ إلى دورة من الحروب تصل إلى الحد الذي يمكن معه تدمير الإنسانية جمعاء .[٣]

إن " توينبـــي " يقر بأن الحضارة الغربية بتعظيمها لتكنولوجيا السلاح يمكن أن تبث الصدام الذي سيؤدي إلى تدمير الحضارة الإنسانية ، ولكن رؤيته تعول كثيراً على سياسات الدول وقرارات الحكام . وربما تتأكد فكرة " توينبي " عن تردي التاريخ بهاتين الحربين العالميتين المدمرتين اللتين وُصم بهما القرن العشرين . ويظهر التوجس الغربي من خطر التقهقر في كتاب " شبنجلر " عن " أفول أو انحطاط الغرب " بسبب تلك الحروب وما نتج عنها من ويلات ، حيث وجد فيها تعبيراً عن انحدار وانحطاط قيم الحضارة الحديثة التي فقدت مضمونها الروحـــي ، وارتكزت إلى الإنتاج المادي الذي أودى بها إلى الشيخوخة والسير نحـــو الزوال . ولم يكن كتاب " جيبون " عن " سقوط الإمبراطورية الرومانية " يخـــتلف فـــي مضمونه عن هذه الكتب . وعلى حين يعتقد البعض أن الإحساس بالخطـــر عند الغرب يرجع إلى النمو الهائل لآلة الحرب وقدراتها التصنيعية ، يـــذهب فريق ثاني إلى تعظيم دور الحكام في بث روح الصدام من أجل أهداف شخـــصية في المقام الأول . ولكن الفريق الثالث يُرجع شعور التوجس والخوف إلى التاريخ الأوروبي ، حيث كانت أوروبا مستهدفه لغزوات كثيرة منذ أكثر من ألف عام . فمن الجنوب جاءهم العرب والمسلمون في غزوات كاسحة لإيبيريا ، وجنوب فرنسا ، وإيطاليا ، بدءاً من القرن الثامن الميلادي ، واستمر تهديدهم مع العثمانيـــين حتـــى منتصف القرن التاسع عشر ، ومن الشمال جاءتهم في القرن العاشـــر هجمـــات الفايكـــنج ومـــا أحدثته من دمار ، وأخيراً من الشرق ومن الأحراش في وسط آسيا جاءتهم الغزوات الآسيوية من القبائل الهنغارية والمغول فاجتاحت شرق أوروبا ووسطها. وهكذا غلب على الغربيين الإحساس بتعرضهم المستمر للخطر من الغير ، ومن ثم الحاجة إلى تميزهم واختلافهم عن الآخرين ، وأخيـــراً نجحوا في فرض سيطرتهم على حضارات كانت تهدد وجودهم في الماضي . ومن هنا كانت ظاهرة القلق والتوجس من زوال هذه الذاتية والتميز ، وبطبـــيعة الحـــال الخوف من فقد هذه السيطرة أيضاً . كذلك فقد لا يخفى على الذهن أن اختيار تعبير " الغرب " كتعريف لهذه الكتلة الحضارية ، إنما يمكن أن يـــشير – في العقل الباطن – إلى الاعتقاد بأن الخطر سوف يأتي من " الشرق " ولعلنا نذكر قصيدة كيبلنج التي يقول فيها :

oh, East is East, and West is West, and Never the twin shall meet ……

فالشرق شرق، والغرب غرب، ومن المستحيل أن يلتقيا .(٤)

وهكـــذا تـــبدو صـــورة الآخـــر من وجهة نظر الغرب، " الشرق " وتحديداً " العـــالم الإســـلامي " الذي يُنظر إليه – من خلال كثير من الكتابات الغربية – علـــى أنه قوة عالمية متحركة بسبب موجة الإحياء الإسلامي في العقود الثلاثة المنـــصرمة انطلاقـــاً مـــن الخـــصائص الذاتية للإسلام التي تعتمد على ربطه المفترض بين الدين والسياسة ووحدة الأمة الإسلامية وتماسكها كمضمون فوق إثنـــي وقومي. وعلى حين نجد أن بعض مفكري الغرب يعتقدون في أن وجود أمـــة إســـلامية موحدة كان أقرب إلى الأسطورة منه إلى الواقع على الرغم من سعي المسلمين الدائم إلى تحقيق المجتمع الإسلامي الموحد يوماً ما. والحقيقة أن هذين العنصرين : الرغبة في التوحد الإسلامي وعدم الفصل بين الدين والسياسة ساهما في انبعاث الإسلام كطاقة اجتماعية وقوة سياسية، غير أنه لا يمكن تفسير الظاهرة الإسلامية من خلال هذين الخاصيتين الذاتيتين للإسلام دون النظر إلى الـــسياسات الغربية تجاه العالم الإسلامي. إن تفسير الظاهرة الإسلامية لا يتم – فـــي شـــكله الـــصحيح – إلا مـــن خلال قراءة جيدة للعناصر الإسلامية وغير الإسلامية .

وتذهب شيرين هنتر Hunter, 2002 (٥) إلى وجود مدرستين لتفسير صعود الحركة الإسلامية :

الاستشراقية الجديدة، والعالم الثالث الجديدة. فأنصار الاستشراقية الجديدة يعـــزون نشوء الظاهرة الإسلامية إلى خصوصية الإسلام في شكل رئيسي، ولـــيس للديناميـــات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية للمجتمعات الإســـلامية والتحولات الناجمة عن التطور الاقتصادي والتفاعل المتنامي مع العـــالم الخارجي. ويعتقد أتباع هذه المدرسة أن الظاهرة الإسلامية هي نتاج الخصائص الذاتية للإسلام ولا توافقيتها مع الحداثة، وامتداداً، التغريب. وهم لا يظنون أن الإسلام قادر على التغيير والإصلاح، ولذا يعتقدون أن تقارب الإســـلام والأفكـــار الغـــربية أو تعايشهما السلمي أمر شبه مستحيل. إذن،

فالمستشرقون الجدد حتميون ثقافيون (ثقافة الإسلام) ، يعتقدون أن المسلمين يفكرون ويتصرفون وفق طرائق معينة لأنهم مسلمون ، وعليه فالمعاني الضمنية لذلك وتأثيراتها في تطور المجتمعات الإسلامية والعلاقات بين العالمين الإسلامي والغربي متشائمة إلى حد كبير . ويعتقد أتباع هذه المدرسة أن الطريقة الوحيدة التي يسع الغرب التعامل بها مع الظاهرة الإسلامية هي المقاومة والقمع والاحتواء ، وينصحون بمساعدة الغرب لتلك الحكومات المسلمة التي تقاوم إسلامييها حتى يُزالوا أو يخضعوا كلياً . وفي المقابل فإن أنصار مدرسة العالم الثالث الجديدة يدركون تماماً أن ثمة خصائص ذاتية محددة للإسلام قدمت الكثير لوثاقة الإسلام وحيويته بوصفه فكرة اجتماعية وسياسية طوال تاريخه ، بالرغم من فترات السبات . ولكنهم لا يعزون انبعاثه الحالي ، في تجلياته المتنوعة ، لهذه الخصائص فحسب ، ولا يعتبرونه غير قابل للتغير والتكيف ، أو غير متوافق مع مفاهيم معينة للإيديولوجية الليبرالية الغربية ، ونتيجة لذلك لا يرون صداماً حتمياً بين الإسلام والعالم الغربي . إنهم يشيرون بدلاً من ذلك إلى المصادر الأولية المتعددة للإسلام وإلى تاريخ التجربة الإسلامية للتدليل على قدرة الإسلام على التغير والتكيف . ويحددون المساحات التوافقية بينه وبين أوجه الإيديولوجية الليبرالية الغربية . وعلى خلاف الاستشراقيين الجدد ، لا يرى هؤلاء الباحثون لا توافقية مطلقة أو حتمية بين الإسلام والديمقراطية ، بل على العكس ، فهم يؤكدون أن مفاهيم إسلامية معينة توفر أساساً ملائماً لرؤية ديمقراطية . وتشمل هذه المفاهيم مفهومي الشورى والبيعة .

وكذلك يرى أنصار مدرسة العالم الثالث الجديدة أن الموجة الأخيرة للانبعاث الإسلامي لا تمثل نتيجة للخصوصيات الإسلامية بقدر ما تعكس مركب من الحرمان الاقتصادي والاستلاب الاجتماعي والحرمان من الحقوق السياسية ، ويراها فرانسوا بورجات Burgat, 1995 كجزء من تقسيم أوسع هو شمال – جنوب ، ويعتبر أن طابعها الراديكالي هو نتيجة حقبة طويلة من استخفاف الشمال الثري بمشكلات الجنوب وطموحاته ، ويرى أيضاً بُعداً ثقافياً لهذه الحركة ، ليس بمعنى الطموح لإسلام خالص ، بل كجهد لتحرير ثقافي ومطلب للاستقلال الثقافي ، وفي الظاهرة الإسلامية ، وفقاً لبورجات ، نشهد الوجه

الثالث لعملية إزالة الاستعمار . فالوجه الأول كان سياسياً حركات الاستقلال . والثانـــي اقتصادياً – مثل تأميم قناة السويس في مصر والنفط في الجزائر ، أما الوجه الأخير فهو ثقافي .(٦)

وعلى عكس الاستشراقيين الجدد ، فإن استراتيجية مدرسة العالم الثالث الجديـــدة لا تـــؤمن بسياسة العزل والقمع لمنع حدوث صدام بين الغرب والعالم الإسلامي .

وفـــي إطار تقويم هاتين المدرستين ، فإن بعض الباحثين الموضوعيين (من بينهم هنتر Hutner) يعتقدون أن رأي مدرسة العالم الثالث الجديدة يعكس بدقـــة أكبر الحقائق التاريخية والراهنة للعالم الإسلامي . فالإسلام – من وجهة نظـــر هـــؤلاء الباحثـــين (أمثال شيرين هنتر ، جون أسبزيتو ، بورجات ، .. وغيرهم) – نظام اعتقاد وقيم مؤسس إلهياً ، هو بالفعل غير متوافق مع العلمانية المطلقـــة للإيديولوجـــية الليبرالية الغربية التي تدعي أنها خزان الحقيقة الوحيد ومالكـــة المـــصداقية العالمـــية . إلى الحد الذي يرى فيه المستشرقون الجدد لا توافقية بين الإسلام كنظم قيم موحي إلهياً وبين العلمانية الغربية كنظام قيم قائم علـــى أناس أفراد وتصور لحقوقهم في هذا الدور . إن النظامين غير متوافقين واقعـــاً ، وهـــذه هـــي حال جميع نظم القيم والاعتقاد الإلهية الملتزمة ، لذا فإن اســـتثناء المستـــشرقين الجـــدد للإسلام غير مبرر ، ويبين كذلك أن هذا الوجه للإســـلام لا يفسر الظاهرة الإسلامية ولا الأبعاد المعادية للغرب . وناهيك عن كثيـــر من الآراء حول أسباب العداء الإسلامي للغرب مثل تلك التي أشار إليها بـــرنارد لويس Bernard Lewis, 1989 (٧) بقوله أن معاداة المسلمين للغرب تـــرجع في جزء منها إلى شعور الخزى ، والوعي المتنامي بين ورثة حضارة عـــريقة وباعـــثة على الفخر وسادت طويلاً لتخطيهم وقهرهم وسحقهم من قبل أولئك الذين نظروا إليهم باعتبارهم أقل شأناً منهم . ص ١٥٦ أو ما أطلقه لويس ودانـــيال بايـــبس Lewis & Pipes, 1986 من أن الإسلاميين يخافون الثقافة الغربية بسبب جاذبيتها أو " إغرائها المعنوي " (٨).

فـــإن شيرين هنتر Hunter, 2002 (الباحثة الأمريكية) (٩) حاولت أن تـــبحث بموضـــوعية عـــن أسباب العداء بين الإسلام والغرب ، حيث تعتقد أن

الإســلام هــو المرشح الأرجح لصدام حضاري مع الغرب ، فهناك عدد من الخصائص في الإسلام ، ولا سيما في سياق مجرد ، تجعله خصماً مثالياً :

(١) الإســلام دين مجتمعي ، ويقدم في بنيته ، إن لم يكن دائماً في ممارسته ، مجمــوعة من القواعد القانونية والأخلاقية، التي تتسم بالشمول والتماسك الداخلي، لتنظيم الحياة الجماعية والفردية ، وهو يتوق لأن يصبح المكون الأساســي للهــوية الذاتــية للمسلمين ، وهو الديانة العالمية الوحيدة ، إلى جانب المسيحية ، التي اخترقت القارات والقوميات والمجموعات الإثنية ، ولا يــبدو أن أحــداً من المرشحين الآخرين للقيام بدور الخصم للغرب – كالكونفوشوســية – يضارع الإسلام كنظام معتقدات وقيم وكمرشد لتنظيم اجتماعي سياسي ، وذلك لشدة غموضهم وتخلخل بنياتهم .

(٢) الإســلام دين دعوة وهداية يؤمن بنصره النهائي وغلبته الكونية بصرف النظر عن صعوبة المسير . وهذه النزعة في طبيعة وجود الإسلام ، إذا ما سحبت إلى نهايتها المنطقية ، قد تجعل منه تحدياً جدياً لوعي الغرب بتفوقه الحــضاري وإيمانه بنصره النهائي ، حتى لو كان الإسلام في حال سبات ومجرد من الفاعلية السياسية .

(٣) كــان الإســلام ، ولأكثر من ألف سنة خلت ، العدو الرئيسي و" الآخر " المعــادي للغرب . وبهذه الذاكرة الثقافية الشديدة الرسوخ لن يكون مفاجئاً استحــضار ، فــي حال صدور أي تحد من قبل العالم الإسلامي ، صور الأعــداء علــى الأبــواب ، والتي لم تنس بعد ، وإيقاظ مخاوف تكرارها مجدداً .

(٤) الإســلام ذو الثقل التاريخي هو المرشح المثالي لصورة العدو الجديد الذي سيملأ الفراغ الناجم عن سقوط الشيوعية ، هذا الميل لرؤية الإسلام كعدو يتعزز بالادعاء أن خصوصيته وفرادته – ولاسيما الارتباط بين الروحي الزمنــي – وحتمية تحققهما على أرض الواقع يجعل الإسلام عصياً على التغيير ويعرف دائماً بالإطروحة النقيض للعلمانية الغربية .

ولــيس مــن شــك أن هنتر اقتربت كثيراً من واقع العلاقة بين الإسلام والغرب ، وربما يخفف من حدة التشاؤم حول حقيقة الصدام بينهما، أن الإسلام

ديــن وثقافــة، ولــيس حقيقة جغرافية وسياسية فحسب، فالإسلام ينتشر عبر جغرافيا العالم كله، ويتوافق ويتعايش مع نظم سياسية وثقافات عديدة على امتداد المعمورة. لكن ثمة بعدين أساسيين - لا يندرجان ضمن الإيديولوجية - ولكنهما من المنتظر أن يؤثران في طبيعة هذه العلاقة :

أولهما : أن الإسلام - ولأسباب جغرافية وتاريخية وجيولوجية - جــزء لــه أهميته الاستراتيجية على خريطة العالم، حيث يوجد النفط والغــاز الــذي تعــتمد علــيه الــدول الصناعية الكبرى في نهضتها التكنولوجــية والعسكرية، ولا يغيب عن أذهاننا ما قاله زعماء الغرب إبان حرب الخليج (٩٠-١٩٩١) أنها تهدف إلى معاقبة العدوان وإعادة الديمقــراطية إلى الكويت، فضلاً عن ضمان أمن حقول النفط العربية، وفــسروا التــنافس علــى النفوذ في الدول الإسلامية بحفظ ونشر قيم الليبــرالية الغــربية علاوة على تأمين التزود بالنفط بالسعر المناسب، وهكــذا يبدو التزاوج بين الإيديولوجيا المعاصرة والفلسفة الاقتصادية للاستعمار (بمنظوره التقليدي) .

ثانــيهما : وعلــى جانــب الزعم الغربي بالتهديد الإسلامي، فإن المسلمين، يشعرون بأنهم مهددون من الغرب أيضاً وذكريات المسلمين عن الهيمنة الغربية أحدث - من خلال الحملات الاستعمارية وذيولها في فلسطين مثلاً - ولذا فهي أعظم حضوراً من حصار فيينا، كما أن المسلمين لديهم قلق وتوجس من خفوت حضارتهم ذات التاريخ الممتد أمــام ما وصفه برنارد لويس " بالإغراء المعنوي " للحضارة الغربية. وإن كــان بعض الباحثين يعتقد أن مقولة " الإغراء المعنوي " للغرب مبالغ فيها بدرجة كبيرة. وعلى العكس فإن التحرر الإسلامي من سحر الثقافة الغربية هو الذي أفضى إلى الظاهرة الإسلامية. وتعتقد هنتر أنه مــنذ أواخــر الستينيات وحتى السبعينيات من القرن العشرين، كانت جاذبــية الغرب كنموذج أخلاقي ومعنوي بالنسبة للمسلمين في انحسار مــستمر. فانتــشار الإيدز وتزايد عد الأطفال غير الشرعيين، وتفكك الأســرة والمجــتمع، كانــت جميعها مسئولة إلى حدٍ ما عن فقــدان

الإغواء هذا . والخوف من التلوث الثقافي لم يقتصر على الإسلاميين فقط ، فالعديد من المسلمين العلمانيين الذين يكنون تقديراً شديداً للمظاهر الأفضل للحضارة الغربية - ولاسيما مؤسساتها السياسية وديناميتها الاقتصادية وإنجازاتها العلمية - لا يفضلون تذويب ثقافتهم المحلية واستبدالها بتقليد رديء للمظاهر الأسوأ للثقافة الشعبية الغربية.(١٠)

وخلاصة القول إن مشاعر معاداة الإسلاميين للغرب نتجت من مصادر متعددة وأكثر تعقيداً : التراث الإستعماري والسيطرة الغربية على النظم السياسية والاقتصادية الدولية التي تمارس تمييزاً ضد الدول الأضعف ، والدعم الغربي لحكومات البلدان الإسلامية المُذعنة للغرب ، والتطبيق الانتقائي والتمييزي للقوانين والمبادئ الدولية ، بما فيها حالات استخدام حقوق الإنسان . فبالنسبة لكثير من المسلمين (والعرب خاصة) كان الدعم الغربي لإسرائيل ، ولاسيما الولايات المتحدة ، السبب الرئيسي في عدائهم للغرب . إن سياسات غربية محددة مقرونة باختلال التوازن الشامل في علاقات القوة بين الغرب والعالم الإسلامي مسئولان بدرجة أكبر عن الحجم الذي بلغته معاداة الغرب في تفكير الإسلاميين وتصرفاتهم من مسئولية اللاتوفقية الحضارية التي أبدعها الاستشراقيون الجدد ومن الأهمية أن نتتبع بدايات الحديث عن فكر " الصراع " أو " الصدام " بين حضارات ، والذي يمكن إرجاعه إلى " النازية " الألمانية ، حيث دخل لفظ الصراع إلى القاموس السياسي بمعنى الصراع الثقافي والحضاري . وبعد كتاب داوسان Dawsan, 1957 تحت عنوان : "The Dynamics of World History" أول الكتب التي أدخلت هذا المصطلح واستخدمته بمعناه الجديد . وخلال حقبة الأربعينيات والخمسينيات سادت نظريات عديدة تتحدث عن فكرة الصراع بين الطبقات حيناً (مثل الماركسية) والدول حيناً آخر (مثل توينبي) .

وفـــي شهري فبراير ومارس سنة ١٩٤٧ ألقى أرنولد توينبي في كلية بـــرين مور محاضرته الشهيرة تحت عنوان " الصراع بين الحضارات " نشرت فـــي مجلـــة هاربـــر (عـــدد أبريل ١٩٤٧) ثم ضمنها كتابه الشهير فيما بعد " الحـــضارة فـــي الميـــزان Civilization on Trial " (١١) ويمثل هذا الكتاب المـــصدر الأساســـي لأفكـــار هنتنجتون عن " صدام الحضارات " . ووفقاً لما سنعرضـــه مـــن آراء أرنـــولد توينبي سندرك جلياً إلى أي مدى كانت مصدراً لنظـــرية صـــدام الحضارات التي أعلنها هنتنجتون . فتوينبي يعتبر أن الحادثة الكبـــرى والأهم في القرن العشرين ، والتي سيقف عندها المؤرخون كثيراً في القرون القادمة هي حادثة اصطدام الحضارة الغربية بسائر المجتمعات الأخرى القائمـــة في العالم . وتنبع أهمية هذا الحدث في رأيه من أنه كان الخطة الأولى نحو توحيد العالم في مجتمع واحد ، وذلك عن طريق تحطيم التراث الاجتماعي الإقليمي للحضارات الأخرى عند اصطدامها بالتراث الاجتماعي الغربي .(١٢)

وهكـــذا نلمـــح هـــذه الأفكـــار عن تقسيم العالم إلى حضارات مختلفة ومتصارعة في صياغة جديدة عند " هنتنجتون " ، ثم انتصار الليبرالية الغربية وســـيادتها على جميع المجتمعات في نهاية التاريخ عند " فوكوياما " . ثم يعود توينبـــي ليضع الدين ركيزة أساسية في صراع الحضارات حينما يقول : إننا لا نـــزال فـــي الفـــصل الأول من قصة صراعنا مع حضارات المكسيك والبيرو والمسيحية الأرثوذكسية والإسلام والعالم الهندوسي والشرق الأقصى .(١٣)

فما أشبه اليوم بالبارحة ، وما أشبه هنتجنتون وفوكوياما بتوينبي ، إنها عقيدة غربية لا مناص منها . وبعد عودة أفكار الصدام الحضاري من جديد على يد مفكرين أمثال هنتنجتون وفوكوياما ، ظهرت مجموعة من الكتب تحاول تفنيد هذه الدعاوي الداعية إلى العداء والكراهية نذكر منها جون سبوسيتو Esposito, 1993 فـــي كتابه " التهديد الإسلامي : أسطورة أم حقيقة " وكتاب فريد هاليداي Halliday, 1996 " الإســـلام وخـــرافة المواجهة " وجراهام فوللر Fuller, 1995 وشـــيرين هنتـــر Hunter, 2002 وغيـــرهم ممن شككوا في فرضيات احتمال الصدام بين الإسلام والغرب . كذلك صدر هذا النقد من بعض المفكرين المسلمين أمثال إدوارد سعيد وراشد الغنوشي والسيد يس~ ومحمد السماك وأحمد بـــن يوســـف ومهـــدي بازركـــان وسيد حسين نصر وعبد الكريم سروسن .. وغيرهم.

ومـــن الآراء الغـــربية الجديرة بالاهتمام ، رؤية روجيه جارودي في كـــتابه " في سبيل الحوار بين الحضارات " فقد جاءت رؤيته رداً على دعاوي الهيمـــنة الغـــربية على الثقافات الأخرى ، مانعة بذلك الحضارات الأخرى من التعبيـــر عن تقاليدها والحفاظ على ثقافتها الخاصة . إن جارودي يحاول كشف الوهم المتردي للغرب بأنه كان المبدع الوحيد للقيم الإنسانية في حين أنه مجرد شـــبه جزيـــرة ممـــتدة مـــن قـــارة آسيا ووسيط متواضع في آلاف السنين من الحـــضارات الإنـــسانية المتصلة . إن جاردوي يعتبر أن حوار الحضارات هو مـــشروع على مستوى كوكب الأرض كله ، من أجل ابتداع المستقبل ومن أجل ابتكار مستقبل الجميع بمشاركة الجميع ، إنه يرى أن اللقاء بين الحضارات قد تم لكـــن علـــى قاعدة الفتح والغزو والاستعمار . إن حوار اليوم المنشود ضرورة أكثـــر مـــن أي وقت مضى، وذلك لتشييد علاقات جديدة مع العالم ومع الناس الآخرين ومع مستقبلنا المشترك.(١٤)

غيـــر إنـــه من المهم الإشارة إلى أن الدعوة إلى " حوار الحضارات " ليست البديل المطروح أو الرد على دعوة " صدام الحضارات " التي انطلقت من الغـــرب ، وليس ماصكه المستشرق " برنارد لويس " حول حتمية الصراع بين الإســـلام والغرب (في مجلة The Atlantic Monthly سبتمبر ١٩٩٠) يمثل مقـــرراً وآلـــية للعمـــل ، ذلـــك أن فكرة " الحوار بين الحضارات ونبذ الصدام والـــصراع " ينبغي أن ينظر إليها كضرورة إنسانية ، وليست كردة فعل انفعالية متوارية وراء حاجز الضعف والتشرذم في العالم الإسلامي . ومما يؤكد رؤيتنا " لحوار الحضارات كضرورة إنسانية " انطلاق العديد من المبادرات الداعية إلى الحوار سواء من قبل المنظمات الدولية والإقليمية أو الشخصيات العالمية غربية كانت أم شرقية .

أولا : على مستوى المنظمات الدولية والإقليمية :

١ - الأمم المتحدة :

أ - شـــهدت الدورة ٥٣ للجمعية العامة للأمم المتحدة مناقشات حول موضوع حوار الحضارات ، ففي كلمته أمام الجمعية العامة يوم ١٩٩٨/٩/٢١ ذكر الـــرئيس الأمريكـــي بيل كلينتون أنه يؤمن بخطأ الادعاء بأن هناك صدام

حتمي بين الحضارة الغربية وقيمها والحضارة الإسلامية وقيمها ، وأشاد إلـى أن ربع تعداد سكان العالم من المسلمين وأن هناك ٦ مليون مسلم في الولايات المتحدة يشهدون بعدم وجود صدام بين الإسلام والولايات المتحدة التي يحترم شعبها الإسلام ويقدره ، وأكد الرئيس كلينتون على الاستمرار فـي طـريق الصداقة والاحترام مع العالم الإسلامي وأن الولايات المتحدة ستـستمر فـي الـبحث عن القيم والمصالح والجهود المشتركة مع العالم الإسلامي .

ب - وفـي كلمـته في نفس اليوم أمام الجمعية العامة اقترح الرئيس الإيراني / محمَّد خاتمي إعلان الأمم المتحدة لعام ٢٠٠١ عام الحوار بين الحضارات على أمل أن يفضي هذا الحوار إلى تحقيق الحرية والعدل في العالم ، وأكد الـرئيس الإيراني على أنه إذا ما كرست الإنسانية جهودها لتأسيس الحوار وإحـلال النقاش والتفهم محل العدوانية والمواجهة فإن ذلك سيترك ميراثاً لمصلحة الأجيال القادمة .

ج - بعث المندوب الإيراني الدائم لدى الأمم المتحدة برسالة إلى رئيس الجمعية العامـة فـي ١٩٩٨/١٠/٥ يطلـب فيها إدراج بند إضافي جديد بعنوان " الحوار بين الحضارات " على جدول أعمال الدورة الحالية للجمعية العامة، وقـد وافقت الجمعية العامة في ١٩٩٨/١٠/٢٨ على توصية اللجنة العامة بإدراج البند الذي اقترحته إيران .

د - سيتم في الفترة القادمة تحديد ميعاد لمناقشة بند الحوار بين الحضارات في جلـسة عامـة للجمعية العامة ، وفي تقدير السيد الوزير مفوض / سليمان عـواد نائـب مساعد الوزير للشئون السياسية الدولية أنه يجب الاستعداد لـصياغة البـيان المـصري حـول الموضوع ليكون بياناً شاملاً وجامعاً للتوجهات المصرية تجاه الحوار بين الحضارات وبين الأديان .

هـ - اقتـرحت إيـران أيـضاً مشروع قرار لاعتماده حول موضوع حوار الحضارات يدعو إلى الآتي :

- إعلان عام ٢٠٠١ عاماً للأمم المتحدة للحوار بين الحضارات .

- دعــوة الحكــومات والمنظمات الدولية وغير الحكومية لتنظيم مؤتمرات وندوات ونشر معلومات في هذا الخصوص .
- مطالــبة السكرتير العام للأمم المتحدة بتقديم تقريراً مؤقتاً للجمعية العامة في دورتها رقم ٥٤ عن الأنشطة في هذا المجال، على أن يقدم تقريراً نهائياً للجمعية العامة في دورتها رقم ٥٥ .

و- يــرى الــسيد الوزيــر مفوض / سليمان عواد مساعد الوزير للشئون الــسياسية الدولــية أن مــشروع القرار الإيراني لن يواجه في الغالب معارضة لأنه جاء متوازناً ويتفق مع موقف حركة عدم الانحياز، كما أنه يتفق مع التوجه المصري العام .

ز- ســيترتب علــى تبني مشروع القرار الإيراني - إذا ما حدث - زيادة كمــية فــي المناســبات والمؤتمرات والندوات التي ستناقش مواضيع الحــوار بين الحضارات والأديان في المحافل المختلفة وتتفق الشئون الثقافية العامة والدينية مع ما يراه السيد نائب المساعد للشئون السياسية الدولية من أهمية النظر لتعدد المبادرات والمحافل الخاصة بالحوار بين الحضارات والأديان على أنها منظومة وعمل جماعي يصب في إطار توافــق رأي المجتمع الدولي على تشجيع الحوار بين الحضارات بما يــدعم السلام والتسامح والتعاون بين الشعوب، ويقتضي ما تقدَّم سعي مصر للمشاركة في كافة المحافل والمناسبات المعنية .

٢ - اليونسكو :

أ-نــشط اليونــسكو منذ عام ١٩٤٩ في تدعيم الحوار بين الحضارات فقد أعــدت لجــنة للخبــراء في نوفمبر ١٩٤٩ تقريراً عن الدراسات المقارنة للحــضارات، وحدد التقرير أهداف الحوار بين الحضارات ودور اليونسكو فــيه، وقــد عقدت في الخمسينيات ثلاثة اجتماعات دولية هامة بتمويل من اليونسكو هي:

- الاجتماع الفكري في ساوباولو - أغسطس ١٩٥٤ .
- مؤتمر العالم الجديد وأوروبا في جنيف - سبتمبر ١٩٥٤ .

- مؤتمر أوروبا والعالم اليوم في جنيف – ١٩٥٧ .

ب – تبنـــي اليونـــسكو بعـــد ذلك مشروع الفهم المتبادل للقيم الحضارية للشرق والغرب في الفترة من عام ١٩٥٧ إلى عام ١٩٦٦ ، والذي انتهى بالتوصل لإعلان المبادئ للتعاون الثقافي الدولي عام ١٩٦٦ .

ج – أقـــر المؤتمـــر العـــام لليونسكو (الدورة ٢٦) في نوفمبر ١٩٩١ مشروعاً دراسياً بعنوان طرق الإيمان Roads of Faith ، وتم عقد عدد من لقاءات الخبـــراء في هذا الإطار شارك فيها علماء وخبراء من مصر ، ومن تلك الاجتماعات :

(١) اجتماع برشلونة (١٢ – ١٨ ديسمبر ١٩٩٤) ، وشارك فيه الدكتور / محمود حمدي زقزوق (وزير الأوقاف الحالي) باعتباره أستاذاً في كلية أصـــول الـــدين آنـــذاك ، وقد صدر عن الاجتماع إعلان حول " دور الأديان في دعم ثقافة السلام " .

(٢) اجـــتماع الـــرباط (٢٣ – ٢٥ يونـــية ١٩٩٥) ، وقد ضم ممثلين عن الديانات السماوية الثلاثة ، ولم يشارك فيه ممثلين عن مصر ، وصدر عنه وثيقة تعرف باسم مقترحات الرباط The Rabat Proposals .

(٣) اجـــتماع فاليـــتا (٢٠–٢٢ يونيه ١٩٩٧) ، وضم الاجتماع ممثلين عن البوذية والهندوكية والسيخ إلى جانب ممثلي الديانات السماوية الثلاثة ، وقد صدر عنه ما يسمى بإعلان مالطا .

(٤) نـــدوة الرباط (١٦ فبراير ١٩٩٨) ، ونظمتها اليونسكو تحت عنوان " الحوار بين الأديان التوحيدية الثلاثة : نحو ثقافة السلام " وشارك فيها الشيخ فوزي فاضل الزفزاف وكيل جامعة الأزهر ورئيس لجنة حوار الأديـــان الـــسماوية بالأزهر (مرفق رقم ٥ الإعلان الصادر عن ندوة الرباط) .

د – شـــكل اليونـــسكو عام ١٩٩٣ لجنة برئاسة خافيير دي كويلار باسم اللجنة العالمية للثقافة والتنمية والتي أصدرت تقريراً عام ١٩٩٥ بعنوان " التنوع البشري الخلاق " والذي أشار إلى وجود أخلاق عالمية وتعددية ثقافية ودعا للـــربط بـــين الـــثقافة والتنمـــية ، وقد عقد اليونسكو مؤتمراً حكومياً في

استوكهولم (٣٠ مارس – ٢ أبريل ١٩٩٨) حول السياسات الثقافية من أجل التنمية .

هـ – أصدر المؤتمر العام لليونسكو في أكتوبر ١٩٩٥ قراراً بضرورة النهوض بثقافة السلام باعتبارها ثقافة تعايش تنبذ العنف وتتمسك بتجنب الصراعات في منابعها وبحل المشاكل عبر الحوار ، وقد عقد في هذا الإطار وتحت رعاية اليونسكو مؤتمر للحوار بين الأديان التوحيدية الثلاثة نحو ثقافة السلام وذلك في الرباط في ١٩٩٨/٢/١٦ (البند ٤ عاليه) وقد دعا المؤتمر منظمة اليونسكو إلى وضع الآليات الملائمة لمواكبة وتدعيم مبادرات الحوار بين الأديان الإبراهيمية حول ثقافة السلام .

٣ – منظمة المؤتمر الإسلامي :

شكلت منظمة المؤتمر الإسلامي فريق خبراء حكوميين ، بدأ عمله منذ فبراير ٢٠٠٠ ، حيث صدر في مايو ١٩٩٩ إعلان طهران للحوار بين الحضارات الخاص بمنظمة المؤتمر الإسلامي وأنهى عمله في سبتمبر ٢٠٠٠ بتقرير تضمن برنامج عمل تنفيذي .

وقد أكد هذا البرنامج الذي أقره الخبراء الحكوميون وحدة البشر ومسئوليتهم المشتركة عن إعمار الأرض وإشاعة العدل والسلام بها ، ودور كافة الشعوب والحكومات والمنظمات الدولية والمنظمات غير الحكومية في نشر روح التفاعل والتواصل والترويج لثقافة الحوار والتسامح باعتبار ذلك البديل الوحيد للمواجهة والصراع وثقافة الانفراد واستعباد الآخرين . كما أن من شأن الحوار تسهيل تبادل المعارف والخبرات فيما بين الحضارات في التعامل مع مختلف المشكلات وتجنب تكرار الأخطاء . وعكس البرنامج وعياً بالتحولات الناتجة عن ثورة المعلومات والاتصالات وظاهرة العولمة وتأثيرها على العلاقات الدولية وما أدت إليه من سقوط للحواجز في ميادين التجارة والاقتصاد وتبادل السلع والخدمات وحركتها على النطاق العالمي ، بالإضافة إلى تأثيرها على الثقافات والقيم الإنسانية ، وإدراك أن هذه الآثار تنقسم إلى ما هو إيجابي يخدم قضايا العدل والسلام والمساواة ، وما هو سلبي يحتاج إلى علاج جماعي.

ودعــا بــرنامج العمــل التنفيذي للخبراء الحكوميين لعقد لقاءات بين المتخصــصين في الحكومات ومنظمات المجتمعات المدني من مختلف الثقافات وتــشكيل لجــان مشتركة فيما بينهم لإشاعة الإيمان الحقيقي بالتعددية بديلاً عن الهيمنة في المجال الدولي بما يترجم التنوع الإنساني والمساواة في الحقوق بين جمــيع الشعوب والأمم ، وضرورة أن ينعكس ذلك في شكل المشاركة في صنع القرارات داخل الدول وعلى المستوى الدولي لتحقيق المصالح الجماعية والأمن المــشترك ، وتثبــيت مبدأ العدل محلياً ودولياً كضمان للاستقرار ، بما في ذلك إعادة النظر في الإطار القانوني والسياسي الدولي القائم في إطار الأمم المتحدة ليكون أصدق تمثيلاً وفاعلية وأسرع استجابة لمواجهة الأزمات الإنسانية وإقرار معايير متفق عليها لهذه الاستجابة ، وتبادل المعلومات والخبرات حول سبل دعم وحمايــة حقــوق الإنــسان على المستوى العالمي وحول إرساء مبادئ الشفافية والعلانية والمسئولية والخضوع للقانون في الحكم وأجهزته المختلفة . ولم يغفل برنامج العمل التنفيذي أهمية وضع تصور لنظام أمني عالمي جديد يضمن إزالة أسلحة الدمار الشامل وبناء مؤسسات تزرع الثقة في مجالات الأمن والتسلح .

وعلى الصعيد الثقافي ، دعا برنامج العمل التنفيذي إلى تشجيع السياحة الثقافــية للتعــرف المباشــر على ثقافة الآخرين وتعريفهم بالثقافة الإسلامية ، واكتشاف ما هو مشترك بين الثقافات المختلفة دون المساس بالخصوصية الثقافية لكــل شعب ، وإدماج ثقافة الحوار في المناهج الدراسية وتخليصها من مظاهر التعــريض أو التحريض على الثقافات الأخرى وتشويهها . وترويج المؤسسات الثقافية الحكومية والخاصة لثقافة الحوار والتسامح والاعتراف بالتعددية الثقافية، مــع تــبادل الزيارات بين الفرق الفنية وتنظيم مهرجانات ثقافية دورية ، وعقد دورات رياضــية ومنافــسات علمــية واستثمار ظاهرة الهجرة الجماعية لأبناء الــثقافة الواحدة إلى دول أخرى لإيجاد جسور تواصل ثقافي مع ما يستتبعه ذلك مــن التعــريف بحقوق الأقليات الثقافية وحمايتها بما يضمن لأفرادها الاحتفاظ بهويــتهم الثقافــية ويحقق التوازن بين اندماجهم بالمجتمعات التي استقروا فيها ومواجهة ذوبانهم في ثقافة تلك المجتمعات . وشجع البرنامج تبادل الخبرات في مجــال محــو الأمــية لتحقيق امتداد الثقافة من النخبة إلى الجماهير بما يضمن

مشاركتها في الحياة العامة ، مع تيسير تعلم اللغات المختلفة ، خاصة تلك التي جـــرى تهميـــشها وما يتصل بذلك من تنشيط حركة الترجمة لأهم المؤلفات عن الـــثقافات المختلفة والحث على التوأمة بين الجامعات في مختلف البلدان لتوثيق الصلات الإنسانية والعلمية بين العلماء والباحثين .

وتـــبدي الموقف الإيجابي لمنظمة المؤتمر الإسلامي من جهة الانخراط فـــي موضـــوع حوار الحضارات بشكل فعَّال مرة أخرى عبر تناول الاجتماع الـــوزاري لـــوزراء خارجـــية الدول أعضاء المنظمة في دورته الـــ ٢٨ التي انعقدت في باماكو من ٢٥ إلى ٢٧ يونيو ٢٠٠١ ، حيث أصدر الاجتماع قراراً يـــؤكد علـــى أن الحضارة الإسلامية تقوم على مبادئ التعايش السلمي والتعاون والـــتفاهم المتبادل والتحاور البناء مع الحضارات والأديان الأخرى على أسس التـــسامح والعدل والسلام . واعتبر القرار أن الحضارة ليست حكراً على الدول القوية أو إحداها وأن المعجزات الحضارية تمثل إرثاً جماعياً للبشر وأن العولمة تشكل تحدياً يستدعي التكافل البشري والتنوع الثقافي ، ورأى في الحوار وسيلة لتعمـــيق الوعـــي بالقيم المشتركة بين الشعوب . وعبر القرار عن التقدير لدور إيـــران فـــي مجـــال طرح مبادرة حوار الحضارات . وأبدى وزراء الخارجية لمـــنظمة المؤتمـــرات الإسلامي حرصهم على مشاركة لجنة خاصة من الدول أعضاء المنظمة (لجنة العشرة) في التفاوض مع المجموعات الجغرافية الأخرى بـــالأمم المـــتحدة وطالـــب الوزراء المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الاسيسكو) بإصدار كتاب أبيض وثائقي باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية يـــضم كافة وثائق حوار الحضارات بالتعاون مع مركز الحوار بين الحضارات بطهران .

وجاء الاجتماع الوزاري الاستثنائي لمنظمة المؤتمر الإسلامي بالدوحة فـــي ٨ و٩ أكتوبر ٢٠٠١ تأكيداً لذلك . وبالرغم من أن جدول أعمال الاجتماع شـــمل أحداث ١١ سبتمبر في الولايات المتحدة وتداعياتها وتأثيراتها على العالم الإســـلامي ، وأيضاً الأوضاع في الأراضي الفلسطينية المحتلة ، فإن حيزاً هاماً مـــن البـــيان الختامي للاجتماع تصدى لقضايا ذات صلة بحوار الحضارات . وتضمن ذلك التذكير بدور الحضارة الإسلامية في إثراء مسيرة البشرية وبالقيم

الأساسية لتلك الحضارة من قبول بالآخر وانفتاح عليه واستعداد للتعاون معه والإدانة الصريحة للهجمات التي تعرضت الولايات المتحدة لها في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ باعتبارها منافية لقيم الإسلام السامية والمتسامحة ، والتحذير في ذات الوقت بقوة مما ظهر من حالات اعتداء وتمييز وتقييد لحريات وحقوق الجاليات الإسلامية المقيمة في العالم غير الإسلامي ، وربط موضوع حوار الحضارات أيضاً بضرورة تحقيق السلام الشامل والعادل والدائم بين إسرائيل والأطراف العربية على أساس قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ ومبدأ الأرض مقابل السلام والانسحاب من الأراضي المحتلة في يونيو ١٩٦٧ وفي لبنان (في إشارة إلى مزارع شبعا) وتمكين الشعب الفلسطيني من ممارسة حقه في تقرير مصيره وإقامة دولته المستقلة وعاصمتها القدس ، وإنهاء ازدواجية المعايير في العلاقات الدولية ، والتي تمارس بشكل خاص ضد الدول الإسلامية ، ورفض التعرض للمدنيين في الحرب التي كانت الولايات المتحدة قد بدأتها قبل المؤتمر بيومين ضد تنظيم القاعدة وحركة الطالبان في أفغانستان ، وأيضاً رفض امتداد الحرب لبلدان إسلامية أخرى . وتزامن ذلك مع حث على الحوار مع الغرب على المستويات السياسية والأكاديمية والإعلامية ، خاصة مع القوى المتعاطفة مع الحضارة الإسلامية والمتفهمة لها على أساس احترام الآخر وضرورة ألا تتحول العولمة إلى حضارة واحدة تفرض هيمنتها على بقية الحضارات ، مع ضرورة أن يتم الحوار في إطار الأمم المتحدة كأساس وضرورة التزام وسائل الإعلام في الغرب الموضوعية عند تناول الإسلام والمسلمين وحضارتهم .

أما المرحلة الأخيرة والأكثر تقدماً في مواقف منظمة المؤتمر الإسلامي فكانت تقديم المجموعة الإسلامية لدى الأمم المتحدة في نيويورك لمشروع قرار خاص بالحوار بين الحضارات للعرض على الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الخاصة المكرسة لهذا الشأن والتي كان مقرراً لها ٣ و٤ديسمبر ٢٠٠١، وتم تبكيرها في ضوء أحداث ١١ سبتمبر لتصبح يومي ٨ و٩ نوفمبر ٢٠٠١. وسنتوقف بقدر من التفصيل أمام مشروع القرار هذا نظراً لشمولية تناوله ودخوله في تفصيلات الأمور . وتضمن مشروع القرار هذا ثلاثة أجزاء : الديباجة ، الأهداف والمبادئ المشتركة ، وبرنامج العمل .

وشملت فقرات الديباجة إعادة تأكيد مقاصد ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة لتطويـــر علاقـــات صـــداقة فيما بين الأمم تقوم على احترام الحقوق المتساوية للشعوب وحقها في تقرير المصير ، وأهداف تعزيز السلم والتعاون الدوليين لحل المـــشكلات الاقتـــصادية والاجتماعية والثقافية الدولية ، ولتشجيع احترام حقوق الإنـــسان بـــدون تمييـــز بسبب العرق أو الجنس أو اللون أو الدين ، وأشارت الديـــباجة إلـــى ضـــرورة التزام كافة دول العالم بالامتناع عن استخدام لقوة أو التهديد بها في العلاقات الدولية ضد السلامة الإقليمية أو الاستقلال السياسي لأي دولـــة بما لا يتفق مع أهداف الأمم المتحدة ، والتزام الدول أيضاً بتنفيذ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان باعتباره معياراً مشتركاً لكافة الشعوب والأمم وكمصدر للمـــزيد مـــن تعزيز وحماية حقوق الإنسان السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمدنـــية والثقافـــية ، بما فيها الحق في التنمية . وأوضحت فقرات الديباجة أن كافـــة الحـــضارات تـــؤكد وحدة وتنوع البشرية في آن واحد ، وأن إثراء هذه الحضارات جاء عبر الحوار مع الحضارات الأخرى ، وأنه بالرغم من عوائق التعصب والعدوان فإن التفاعل الإيجابي عبر التاريخ كان السمة المميزة للعلاقة فيما بين الحضارات مع تأكيد أن الإنسانية الواحدة تجمع كل الحضارات وبالتالي فإن إنجازات هذه الحضارات هي إرث مشترك للبشرية .[١٥]

٤ – المنظمة الفرانكفونية الدولية :

فـــي إطار إعدادها للقمة الفرانكفونية التي كان من المفترض عقدها في بيـــروت في نهاية أكتوبر ٢٠٠١ ، ثم تأجلت نتيجة أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ إلـــى أكتوبر ٢٠٠٢ بشكل مبدئي ، صاغت الدول أعضاء المنظمة الفرانكفونية الدولـــية مشروع إعلان وبرنامج عمل ركز بشكل كامل على حوار الحضارات والـــثقافات، وجاء الطرح الأصلي للمشروعين من وفد لبنان الدولة المستضيفة للقمة بعد التشاور مع الدول المعنية الأخرى .

وقـــد أكد مشروع الإعلان وبرنامج العمل على قيم التسامح والمساواة ، بـــرغم الخلافات فيما بين الثقافات ، والاتفاق على قيم مشتركة ، والتعاون عبر عملية إثراء متبادل فيما بين الثقافات ، وإبراز أن الحوار بين الثقافات يجب أن يكـــون يومـــياً ومنـــتظماً ويشمل النخبة والشعوب على حد سواء ، وكشف عن

الأهميـة التـي تولـيها الفـرانكفونية للـتعددية الثقافـية عالمياً وفي إطار الفـرانكفونية، وارتـباط ذلـك بعملية العولمة، مع عدم قبول مفهوم " الاستثناء الثقافـي " كمعـيار للانعـزال عن العالمية وإنما للقبول بالتنوع الثقافي، وحذر مشروع البيان من استغلال العولمة لفرض الهيمنة على قواعد الشرعية الدولية أو الـسعي لتوحيد النظام القيمي العالمي، ودعا لبديل حوار الثقافات لبناء توافق دولـي حـول المعاييـر الحاكمة للعلاقات الدولية ولتجنب المنهج الانتقائي في الحـديث عـن الحقوق والواجبات، مع إشارة خاصة إلى ما يحدث في الشرق الأوسـط، ولابـد أن يهـدف حـوار الثقافات إلى دمقرطة العولمة (أي جعلها ديمقراطية) بدلاً من السماح للعولمة بالانحراف بالديمقراطية .

وأشار مشروع البيان وبرنامج العمل إلى ظاهرة الهجرة الدولية وأثرها على التوتـر فـيما بين الهويات المختلفة، ودعا لبناء مجتمعات ذات هوية متعددة لا تـستبعد إحـداها الأخرى، كما أشار إلى تضاعف الصراعات فيما بين وداخل الـدول بعـد انـتهاء الحرب الباردة، وارتباط ذلك بحروب الهويات والثقافات، وأوضـح مـشروع البيان التحديات العالمية التي تواجهها البشرية مثل التوازن البيئـي والأوبـئة والجريمة المنظمة مما يحتاج لتعاون كافة الدول مما يحد من مفهـوم " السيادة "، وهي فكرة غير واضحة بمشروع الإعلان وتتميز بمخاطر في ضوء ما يتم الترويج له من " حق التدخل " وتحجيم مفهوم السيادة وغير ذلك على الصعيد العالمي وبما يتعارض مع ما هو ثابت ومستقر من مبادئ وأهداف ميثاق الأمم المتحدة والقانون الدولي في هذا الشأن .

وقـد تـضمن مشروع البيان وبرنامج العمل مقترحات متعددة لتفعيل حوار الثقافات في إطار الفرانكفونية مثل إدماج قطاعات المجتمع المدني والأكاديميين والمرأة والشباب، وإنشاء شبكة للأساتذة الجامعيين والقانونيين لدول الفرانكفونية، وإدمـاج حـوار الـثقافات في برامج التعليم، وترجمة الأعمال الأدبية فيما بين مخـتلف لغـات الـدول المنتمية للفرانكفونية، كذلك تبادل الأفلام والمسرحيات واللـوحات الفنـية والموسيقى والأدبيات التي تحارب العنصرية وتدعو للحرية والديمقـراطية، وتـشكيل مرصد للحوار الثقافي يتضمن مركز أبحاث وتمويل أنشطة ثقافية في الدول الفقيرة في الفرانكفونية لإنتاج سينمائي وتليفزيوني وعلى

الإنتـــرنت ، وتوحـــيد مواقف الدول الأعضاء في مسائل حماية حقوق الملكية الفكـــرية ، وأخيراً التشاور المستمر بين الدبلوماسيين والملحقين الثقافيين للدول الأعضاء في الفرانكفونية في المنظمات الدولية المختلفة .(١٦)

٥ – المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم (الإيسيسكو) :

اهـــتمت المـــنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، منذ وقت مبكر بقـــضايا الحوار بين الحضارات . وكان لها دورها المتميز – بحكم اختصاصها ورسالتها – في بلورة مفهوم متكامل ومتوازن للحوار في مستوياته الثلاثة :

- الحوار بين الحضارات .
- الحوار بين الثقافات .
- الحوار بين الأديان .

إن مفهـــوم الحـــوار في الفكر السياسي والثقافي المعاصر من المفاهيم الجديـــدة حديـــثة العهد بالتداول ، فليس الحوار من ألفاظ القانون الدولي ، إذ لا يـــوجد له ذكر أصلاً في ميثاق الأمم المتحدة ، ولا في الإعلان العالمي لحقوق الإنـــسان ، ولا في العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية ، ولا فـــي العهـــد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية ، ولا في إعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي .

وتأسيـــساً علـــى ذلـــك ، فـــإن الحوار مفهوم سياسي إيديولوجي ثقافي حضاري ، وليس مفهوماً قانونياً .

والحوار في تراثنا الثقافي والحضاري قيمة من قيم الحضارة الإسلامية، وموقـــف فكري وحالة وجدانية ، وتعبير عن أبرز سمات الشخصية الإسلامية السوية .

وفي رؤية الإيسيسكو، يستند الحوار إلى أسس ثابتة ، وضوابط محكمة، ويقوم على منطلقات ثلاثة :

- الاحترام المتبادل .
- الإنصاف والعدل .
- نبذ التعصب والكراهية .

وانطلاقـــاً مـــن رؤيـــة الإيسيسكو إلى الحوار ، واستناداً إلى مفهومه الحضاري الذي أسهمت في تأصيله ، فإن الحوار الذي يحقق الأهداف الإنسانية العامـــة ، والذي يمكن أن يكون موضع الاهتمام من العالم الإسلامي ، لابد أن يسير في هذه الاتجاهات الثلاثة :

(١) ربـــط أهـــداف الحوار بالمصالح العليا للأمة الإسلامية ، بحيث لا يقع أي تعـــارض بـــين الأهداف المرسومة لأي حوار بين الحضارات والثقافات يـــشارك فيه الجانب الإسلامي ، وبين القضايا الرئيسية التي تجتمع حولها إرادة الأمة الإسلامية، والتي تعبر عنها قرارات منظمة المؤتمر الإسلامي، سواء تلك التي تتخذ على مستوى القمة ، أو على المستوى الوزاري .

(٢) الاتجـــاه بالحـــوار نحـــو الجانب الإنساني ، فلا يبقى دائراً حول القضايا الفكـــرية والعقائدية التي لا تنفع طرفاً من الأطراف . ويدخل ضمن ذلك تحديـــد الموقـــف الإيمانـــي الخالص من حقوق الإنسان ، ومحاربة الظلم والعدوان والاضطهاد والإفساد بكل أشكاله ، بحيث يقع الحرص دائماً على إصـــدار بـــيانات مشتركة في أعقاب كل جولة للحوار تحدد مواقف أهل الإيمان مما يجري في العالم من انتهاكات لحقوق الإنسان في كل مكان ، وممـــا يقـــوم بـــه الظالمون والمعتدون والمفسدون في الأرض من بغي وعـــدوان ، من وجهة نظر الحق والعدل والقيم الدينية المشتركة ، وليس فقط من وجهة النظر السياسية والقانونية الوضعية ومصالح الأقوياء وذوي النفوذ في العالم .

(٣) التنـــسيق بـــين أطـــراف الجانب الإسلامي في كل ما يتعلق بالحوار بين الحـــضارات والثقافات ، بحيث تقوم الجهة الإسلامية الرسمية أو الشعبية التـــي تدخل في حوار على هذا المستوى ، بإبلاغ كل الجهات ، أو أهمها وأكبـــرها وأوســـعها نـــشاطاً وحضوراً في ساحة العمل الإسلامي العلمي والفكري والثقافي بموضوعات الحوار ، وبموعده ، وبالأهداف المرسومة لـــه ، وبالجهة التي تنظمه ، حتى يمكن الانضمام إليه والمشاركة فيه لمن أراد وتوفرت له الأسباب .

فإذا سار الحوار بين الحضارات في هذه الاتجاهات ، أمكن الوصول إلى نتائج إيجابية تخدم في المقام الأول المصالح العليا للأمة الإسلامية وقضاياها، وتعزز الجهود المبذولة على مستويات كثيرة للدفاع عن هذه المصالح ولنصرة هذه القضايا ، وتدعم العلاقات الدولية وتثريها ، وتسهم في إقرار الأمن والسلم والاستقرار في العالم ، وترفع من شأن قيم الإيمان بالخالق سبحانه وتعالى ، وبمبادئ التعايش بين بني البشر كافة .

ومن أنشطة الحوار التي نفذتها الإيسيسكو وشاركت فيها :

- المؤتمر العام الثامن للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية : القاهرة (مصر) : ٢٤-٢٧ يوليو ١٩٩٦ ، شارك فيه المدير العام ببحث حول (الإسلام ومستقبل الحوار الحضاري) وقد نشر البحث في كتاب باللغات الثلاث : العربية والإنجليزية والفرنسية .
- اجتماع دولي حول الحوار بين الأديان والحضارات : القاهرة (مصر) : ٨-١٠ نوفمبر ١٩٩٨ ، دعا إليه المجلس الإسلامي الأعلى للدعوة والإغاثة .
- اجتماع لجنة التنسيق الخاصة بالحوار الإسلامي – المسيحي : عمان (الأردن) : ٢٢-٢٣ أبريل ١٩٩٨ .
- المؤتمر العام العاشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية : القاهرة (مصر) : ٢-٥ يوليو ١٩٩٨ ، شارك فيه المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ببحث حول (الإسلام والتعايش بين الأديان في أفق القرن الحادي والعشرين) . وقد نشر البحث في كتاب باللغات الثلاث : العربية والإنجليزية والفرنسية .
- اجتماع فريق الصياغة للوثيقتين العالميتين حول الحوار بين الحضارات : جدة (المملكة العربية السعودية) : ٥-٧ فبراير ٢٠٠٠ ، عقد في مقر الأمانة العامة لمنظمة المؤتمر الإسلامي .
- ندوة دولية حول الحوار والتعايش بين الحضارات والثقافات ، برلين (ألمانيا) : ٥ يوليو ٢٠٠٠ ، بالتعاون بين المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، ورابطة العالم الإسلامي ، ومؤسسة الإمام الخوئي الخيرية .

- نــدوة دولــية حول إسهامات الحضارات الإنسانية في الارتقاء بقيم حقوق الإنسان ومبادئها ، الرباط : ٢٥-٢٧ نوفمبر ٢٠٠٠ ، عقدتها منظمة العفو الدولية .
- نــدوة دولية حول الحوار الحضاري ، والتعايش بين الشعوب : فرانكفورت (ألمانــيا) : ١٨-٢٠ أكتوبــر ٢٠٠١ ، عقــدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة .

٦ - جامعة الدول العربية :

كــان للمجمــوعة العربية مداخلة جماعية في أول دورة للجمعية العامة للأمــم المــتحدة تناقش موضوع حوار الحضارات ، وهي الدورة ٥٤ للجمعية العامــة ، وتحديــداً فــي ١٠ ديــسمبر ١٩٩٩ حيث ألقى وفد قطر بياناً باسم المجموعة العربية عرض فيه الموقف العربي من الحوار بين الحضارات الذي يــستند علــى إيمــان الــدول العــربية بحوار الحضارات ونبذها للصراع بين الحــضارات ، والــدور الرائد للحضارة العربية الإسلامية في إثراء الحضارة الإنسانية ، حيث شكلت إنجازاتها في مجالات العلوم والفنون جسراً من الإبداع ربــط الحضارة القديمة بالعصر الحديث ، والذي أوصل إلى الإنجازات الحالية التي هي تراث مشترك للإنسانية ، والتحديات التي تطرحها ظاهرة العولمة في ضــوء طغــيان القوة وعدم الاعتراف بالآخر ومحاولة الهيمنة عليه ، وبالتالي تهديد الهوية القومية والخصوصية الثقافية للشعوب والأمم الأخرى ، وأكد البيان ضرورة تفادي تلك التحديات وما تحمله من مخاطر عبر حوار للحضارات يقوم على المساواة والعدل والتنوع والسلام وعلى أساس ثقافة السلام القائم على العدل والتــسامح وأوضــح البــيان أن تحقيق الحوار يجب أن يستند إلى إزالة أشكال الاحــتلال الأجنبي والهيمنة واحترام سيادة الدول ووحدتها الإقليمية واستقلالها الــسياسي وعــدم الــتدخل في شئونها الداخلية ، فلا تسامح مع بقاء الاحتلال والعدوان . كما يجب أن يستند إلى إزالة العقبات التي تعيق إعمال حق الشعوب فــي تقريــر المــصير ، وعدم جواز استخدام القوة أو التهديد بها وعدم جواز اكتــساب أراضــي الغيــر بواســطة الحــرب . وهكذا ربط البيان بين حوار الحــضارات وثقافة السلام من جهة ونضال الدول العربية من أجل التوصل إلى

تسوية سلمية شاملة وعادلة ودائمة للأوضاع في الشرق الأوسط وفقاً لقرارات الشرعية الدولية ، وكذلك التأكيد على محورية دور الأمم المتحدة في حوار الحضارات .

إلا أن جامعة الدول العربية دخلت متأخرة نسبياً في مجال حوار الحضارات ، ولم يحدث ذلك إلا بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وتخوف بعض الدول العربية من تعرضها لضربات من قبل الولايات المتحدة وحلفائها عقب الانتهاء من ضرب أفغانستان . كما أن مجمل الدول العربية بدأت تدرك مخاطر الربط بين العروبة والإسلام من جهة والإرهاب من جهة أخرى وما صاحب ذلك من محاولات سياسية وإعلامية وثقافية في الغرب للتعريض بالحضارة العربية الإسلامية . وأخيراً وعت الدول العربية ضرورة القيام بجهد داخل الدول العربية ذاتها لمواجهة مروجي التفسيرات المتطرفة أو المتشددة أو الجامدة للإسلام والترويج بالمقابل للفكر الإسلامي المستنير والمنفتح تجاه الآخر وثقافاته وأفكاره .

وقد جاء التحرك العربي ممثلاً في اجتماع عقده وزراء الخارجية العرب على هامش الاجتماع الاستثنائي لوزراء خارجية منظمة المؤتمر الإسلامي بالدوحة يومي ٨ و٩ أكتوبر ٢٠٠١ ، ناقشوا خلاله هذه المسائل ، وأقروا مبادرة طرحها أمين عام الجامعة للدعوة لتجمع فكري عربي في إطار الجامعة يشارك فيه المثقفون والأكاديميون والمفكرون العرب من مختلف الدول والمراكز البحثية العربية داخل وخارج الوطن العربي لبلورة صيغة عملية ومحددة تشمل سبل مواجهة الحملة ضد العرب والمسلمين وتصحيح مصادر الخلل الفكري والثقافي داخل العالم العربي وصورة العرب والمسلمين في الخارج .

وبالفعل أعدت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ورقة عمل تحضيراً للتجمع الفكري الذي أقره اجتماع الدوحة والذي عقد في نهاية نوفمبر ٢٠٠١ في مقر الجامعة بالقاهرة وتناولت مقدمة هذه الورقة النظرة السلبية ومحاولات التشويه في الغرب للهوية العربية والثقافية الإسلامية ، واعتبرت هذه النظرة مستمرة منذ قرون عديدة ، وإن فترت هذه النظرة – أو ربما التعبير عنها – خلال المواجهة بين الكتلتين الشرقية والغربية إبان الحرب الباردة ، ثم عادت

للبـــروز فـــي العقـــد الأخير حيث تم الترويج للصراع والصدام بين الإسلام والغرب، وساعد على ذلك آراء متشددة صدرت من أفراد وجماعات داخل العالم الإســـلامي وممارســـات اتسمت بالعنف والإرهاب قامت بها جماعات محسوبة علـــى الإسلام وكذلك ممارسات متخلفة تتم داخل مجتمعات المسلمين أو أحياناً بواسطة بعض حكوماتهم ، وأدى كل هذا إلى إلقاء تبعة وقوع أعمال إرهابية في أي مكـــان فـــي العالم على عاتق العرب والمسلمين في مجملهم . وتأكدت هذه النظرة للعروبة والإسلام بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في نيويورك وواشنطن، وانعكـــس ذلـــك على العرب والمسلمين المقيمين في أوروبا وأمريكا وصار له تأثيره على المفكرين والكتاب ووسائل الإعلام ودوائر صنع القرار في الغرب .

وقد اقترحت ورقة الأمانة العامة لجامعة الدول العربية صياغة برنامج (عملي) براجماتي النزعة يقبل التنفيذ العاجل مع إجراءات أخرى قابلة للتحقيق علـــى المدى البعيد بهدف شرح تاريخ وإسهام الحضارة الإسلامية ودورها في إثراء الحضارة الإنسانية وتقدم مسيرة البشرية وتصحيح المفاهيم المغلوطة عن العـــروبة والإسلام ديناً وثقافة وحضارة في خارج العالم الإسلامي ، خاصة في الغـــرب وكذلك بلورة إجراءات تصحيحية داخل الساحة العربية وعلى الصعيد الثقافـــي بمـــا يماثـــل ثورة ثقافية في تقديم بديل لما يتم الترويج له أحياناً باسم الإسلام وهو من قبيل التشدد والتزيد .

وتضمن برنامج العمل المقترح خطوطاً إرشادية تؤخذ في الاعتبار عند صـــياغة الخطـــاب العربي والإسلامي على أساس نظرة الإسلام للبشر جميعاً باعتبارهم متساويين دون تمييز أو عنصرية ونظرة للآخر على أساس الاحترام المتـــبادل ، والإطار الأخلاقي الذي يحكم المعاملات الدولية من منظور الإسلام أي معـــاملات الدول الإسلامية مع غيرها من الدول سواء في زمن الحرب أو الـــسلام ، كـــذلك إبراز دعوة الإسلام للتعاون بما يتجاوز مجرد التعايش أو ما يجـــري التـــرويج له في الغرب حالياً من قيمة " التسامح " باعتبارها أقصى ما يمكـــن الوصول إليه ، وأخيراً يقترح برنامج العمل توعية الغرب عبر مخاطبته باللغـــة الفكـــرية والـــسياسية والثقافية والإعلامية التي يفهمها وتعريف الغرب بحقائق ودوافع ومشكلات العالمين العربي والإسلامي .(١٧)

١ – مبادرات من الفاتيكان :

في ٩ نوفمبر ٢٠٠١ وجه البابا يوحنا بولس الثاني بابا الفاتيكان رسالة للمجمع البابوي للحوار بين الأديان أكد فيها أن القول بأن أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في الولايات المتحدة الأمريكية وما تلاها تعكس صدام الأديان يناقض جوهر الأديان التي تدعو جميعها للعمل لصالح وإنهاء معاناة البشر وبناء عالم تسوده العدالة . وذكر البابا في رسالته أن الحوار بين الأديان يزداد أهمية في ظل تعاظم ظاهرة التعددية الثقافية والدينية في الألفية الثالثة ، وذلك لبناء السلام العالمي باسم الإله الواحد ، وهذا السلام يستوجب بدوره تغليب روح المصالحة لحل الصراعات والنزاعات القائمة . وقد اختار المجمع البابوي للحوار بين الأديان موضوع " البعد الروحي لحوار الأديان " عنواناً لمؤتمره لعام ٢٠٠١ وفي ضوء ذلك أوضح البابا أنه يعتبر " الثالوث المقدس " في المسيحية نموذجاً يحتذي به للحوار بين البشر من مختلف الانتماءات الثقافية والدينية ، حيث كان الرب يتحدث إلى البشر عبر المسيح ، بينما كان المسيح يتعامل مع البشر بكل تواضع واقر البابا يوحنا بولس الثاني بأن مهمة الحوار التي يدعو إليها ليست بالسهلة ، نظراً لوجود تحيزات سابقة وسوء فهم يحتاج للكثير من الصبر والمثابرة ، وأوضح من جهة أخرى أن الحوار بين الأديان يساعد على التعرف على الإله كما ينعكس في قلوب وعادات وطقوس أتباع الديانات الأخرى وصولاً إلى غايات الطهر والكمال .

وقد سبق ذلك دورة جديدة من دورات الحوار المسيحي / الإسلامي والذي تنظمه سنوياً جماعة " سانت إيجيديو " ، وهي جمعية أهلية إيطالية ذات صبغة كاثوليكية قريبة من الفاتيكان ، وتنظم دورات هذا الحوار سنوياً منذ عام ١٩٨٥ . وقد شاركت في الدورة الأخيرة شخصيات بارزة عن الجانبين المسيحي والإسلامي .

وأجمع المشاركون في هذه الدورة " على إدانة الإرهاب بشكل عام ، وأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بالولايات المتحدة على وجه الخصوص ، كما استنكر المشاركون من العالم الإسلامي ازدواجية المعايير في العلاقات الدولية مما يوجد شعوراً بالظلم يشجع بدوره على نمو التطرف والإرهاب وأكدوا أن عدم التوصل إلى حل عادل للصراع العربي / الإسرائيلي سيصعب من فرص

إزالـــة أسباب العنف ، وقد اتفق معظم المتحدثين في المؤتمر على أن استخدام القـــوة لـــن يقـــضي على الإرهاب لأن الأمر يتطلب استئصال دوافع ارتكابه ، وركـــزوا علـــى نقـــاط التلاقـــي بين الإسلام والمسيحية داعين إلى تلاقي نقاط الـــتعارض مبـــرزين عـــدم وجود صدام بين الحضارتين الغربية والإسلامية ، وداعين أيضاً إلى حوار بين رجال الدين والمثقفين من الجانبين .

إلا أن المؤتمـــر لـــم يتمكن من التوصل إلى بيان ختامي لأعماله بسبب عـــدم ترحيب المشاركين عن الجانب المسيحي باقتراح المشاركين عن الجانب الإســـلامي تـــضمين البـــيان أهمـــية التوصـــل إلى حل عادل وشامل للقضية الفلسطينية، ومراعاة عدم مساواة الإرهاب مع مقاومة الاحتلال ، وبالمقابل ، تم الاتفـــاق علـــى تشكيل مجموعة اتصال لمحاولة صياغة بيان يناسب الطرفين . وكـــبديل عـــن البيان الختامي ، وجه رئيس جماعة " سانت إيجيديو " نداءً في الحفـــل الختامـــي للمؤتمـــر أعـــرب فيه عن إدانة المشاركين للاعتداءات على الـــولايات المتحدة وفي أي مكان آخر ، ودعا الشعوب لتجاوز مشاعر الخوف والكراهية ، ولإجراء مزيد من الاتصالات لدعم العلاقات بين الإسلام والمسيحية ونفـــى دعـــاوي الـــصدام بين الثقافات والأديان بشكل عام ، ودعا إلى السلام والـــتعايش بـــين أتـــباع الديانات السماوية التوحيدية الثلاث ، وزيادة مساحات التلاقي فيما بينها ، وكرر نفس الأفكار أحد المشاركين عن الجانب الإسلامي في كلمة نيابة عن هذا الجانب .

ولاشـــك أن المؤتمر والنداء الذي تلاه والموجه عن بابا الفاتيكان بشأن حـــوار الأديـــان قد ركزا على مفهوم حوار الأديان بأكثر مما ركزا على حوار الـــثقافات والحضارات ، وذلك طبيعي من منطلق الطبيعة الدينية لدولة الفاتيكان والمؤسسات التابعة له والقريبة منه . وقد رأى الفاتيكان في أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وتداعـــياتها مخاطـــر على سياسة حوار الأديان والثقافات التي ينتهجها الفاتـــيكان مـــنذ فترة ، كما أن الرئيس الإيطالي حرص على إقامة حفل استقبال علـــى شـــرف المشاركين في مؤتمر جماعة " سانت إيجيديو " حيث ألقى كلمة أبـــرزت أن الإســـلام دين وثقافة كبرى يستحق الاحترام ، كما أنه يشترك مع المسيحية في قيم عالمية ، ودعا كل طرف إلى الاعتراف بالهوية الدينية والثقافية

للآخـر واحتـرامها كقاعـدة للـتعاون الأوروبي المتوسطي في سياق عملية برشلونة، وألمح ضمنياً إلى فضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية ، خاصـة في إيطاليا ، وأقر بأن القضاء على الإرهاب يستلزم تحقيق السلام في الشرق الأوسط .(١٨)

ومن أنشطة الحوار التي أنجزت :

١ - الحوار بين الأزهر والفاتيكان :

(١) بدأت الاتصالات بين الفاتيكان والأزهر في أوائل التسعينيات حيث تم عقد لقاءات غير رسمية بين ممثلين عن الفاتيكان وفضيلة الشيخ جاد الحق علي جاد الحق شيخ الأزهر (آنذاك) وذلك في مدينة برن عام ١٩٩٤ ، وكذلك عقـد لقـاء فـي نفس العام بين الدكتور / علي السمان والكاردينال كينج والكاردينال أرينزي.

(٢) قـام الكارديـنال / فرنـسيس أرينزي رئيس المجلس البابوي للحوار بين الأديان بزيارة للقاهرة في ٢ مايو ١٩٩٥ حيث التقى بفضيلة الشيخ / جاد الحق علي جاد الحق شيخ الجامع الأزهر (آنذاك) واقترح عليه إقامة لجنة اتصال دائمة للحوار بين الأزهر والفاتيكان .

(٣) قـام وفد من الفاتيكان بزيارة للقاهرة في ٣١ مايو ١٩٩٦ حيث قدم الوفد فـضيلة شيخ الأزهر مشروع إعلان مبادئ خاص باللجنة المشتركة بين الأزهر وبين المجلس البابوي للحوار بين الأديان ممثلاً للفاتيكان .

(٤) قرر الشيخ محمَّد سيِّد طنطاوي في ٨ سبتمبر ١٩٩٧ (شيخ الأزهر آنذاك) تـشكيل لجنة لحوار الأديان السماوية بالأزهر لتوفير الإطار المتخصص والمقابـل للمؤسسات الدينية العالمية التي تعمل في مجال حوار الأديان ، وتشكلت اللجنة على النحو التالي :

أ - الشيخ / فوزي فاضل الزفزاف — وكـيل الأزهـر ممثلاً لشيخ الأزهر – رئيساً

ب - الشيخ / سامي محمَّد متولي الشعراوي — الأمـين العام لمجمع البحوث الإسلامية – عضواً

ج - الدكتور / علي السمان رئـيس لجـنة الحـوار والعلاقـات الإسـلامية بالمجلس - عضواً ونائباً للرئيس .

د - عضواً من مجمع البحوث الإسلامية عضواً .

ه - السيد / جمال أبو الحسن رئيس الإدارة المركزية للشئون القانونية والمشرف على مكتب شـيخ الأزهـر - أميـناً للجنة الحوار .

كمـا قرر الشيخ فوزي فاضل الزفزاف وكيل الأزهر في ١٩٩٧/٩/٨ تـشكيل لجـنة فـرعية تنبثق عن اللجنة الدائمة لحوار الأديان السماوية وذلك بغرض إجراء الاتصالات بين الأزهر والمجلس البابوي لحوار الأديان بالفاتيكان وذلك على النحو التالي :

أ - الشيخ / فوزي فاضل الزفزاف رئيساً .

ب - الدكتور / علي السمان عضواً ونائباً للرئيس .

ج - عضو من مجمع البحوث الإسلامية .

د - خبيرين بصفتهم الشخصية هما :

- السفير / فتحي مرعي .
- السفير / نبيل بدر .

(٥) توصـلت اللجنة الدائمة لحوار الأديان السماوية بالأزهر والمجلس البابوي للحوار بين الأديان بالفاتيكان لاتفاق على إنشاء لجنة حوار مشتركة ، وتم التوقـيع بالفاتيكان يوم ٢٨ مايو ١٩٩٨ ، حيث وقع عن الأزهر الشريف كل من فضيلة الشيخ / فوزي فاضل الزفزاف رئيس اللجنة الدائمة لحوار الأديـان السماوية بالأزهر والدكتور / علي السمان نائب رئيس اللجنة ، ووقعه عن الفاتيكان كل من الكاردينال / فرنسيس أرينزي رئيس المجلس الـبابوي للحـوار بين الأديان والمونيسيور / مايكل فيترجيرالد أمين سر المجلس .

ويـنص الاتفـاق بين الأزهر والفاتيكان على أن تعمل اللجنة المشتركة بيـنهما على البحث عن القيم المشتركة وعلى تدعيم العدالة والسلام وعلى ترسـيخ احتـرام الأديـان ، كمـا تقوم اللجنة بتشجيع تبادل الرأي حول موضـوعات ذات اهـتمام مـشترك كالدفاع عن كرامة الإنسان ، تشجيع المعـرفة المتـبادلة والاحتـرام بين الكاثوليك والمسلمين من خلال تبادل المعلومات اللازمة .

(٦) عقد يوم ١٩٩٨/٥/٢٨ بالفاتيكان الاجتماع الأول للجنة المشتركة للحوار ، حـيث مثل الأزهر الشيخ الزفزاف ود. علي السمان ، بينما مثل الفاتيكان الكاردينال / أرينزي والمونسيور / فيتجز جيرالد والأب خالد عكاشة من مكـتب الحـوار مـع المسلمين بالمجلس البابوي للحوار بين الأديان ، تم تـشكيل لجـنة فرعية للإعداد للاجتماعات من حيث تحديد الموضوعات واختـيار المكان ، وتم اختيار د. علي السمان والمونسيور / فيتز جيرالد كأعـضاء فـي اللجنة الفرعية . اتفق على قائمة بالموضوعات المقترحة لاجتماعات اللجنة المشتركة للحوار بين الأزهر والفاتيكان وهي :

أ - الأديان والعنف .

ب - الأسس المسيحية والأسس الإسلامية لحقوق الإنسان .

ج - التعاون بين الهيئات الإسلامية والمسيحية للإغاثة .

د - جـواب المـسلمين وجواب المسيحيين على المسائل المطروحة نتيجة تقدّم الطب .

هـ - تدعيم الاحترام المتبادل بين الديانتين .

(٧) سـيعقد الاجتماع القادم للجنة المشتركة بين الأزهر والفاتيكان في مارس ١٩٩٩ ، وتـم الاتفـاق على أن يناقش الاجتماع موضوع القيم المشتركة علـى أن يـتم تنظيم ندوة بين جامعة الأزهر وإحدى الجامعات الفاتيكانية لبحث قيمة التسامح لدى الجانبين المسلم والمسيحي وقد كلفت لجنة الحوار في الأزهر الدكتور علي السمان للاتفاق على تنظيم تلك الندوة .

(٨) تـرى سفارتنا في الفاتيكان أن هناك أهمية لتقدير دور الفاتيكان في مجال تشكيل توجهات الدول الغربية من مسألة الحريات الدينية وحقوق الإنسان ،

فالفاتيكان يعتبر قوة عظمى روحانية لها تأثيرها المباشر ليس فقط على جمهــور المؤمنـــين بالديانة المسيحية بل وأيضاً على الحكومات ومتخذي القرار في الدول الغربية والمسيحية من خلال الدور الذي تقوم به جماعات الضغط الكاثوليكية داخل تلك الدول وعلى رأسها الولايات المتحدة .

٢ - اللجنة الإسلامية الكاثوليكية :

(١) تــشكلت اللجــنة بناء على مبادرة من المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة ومقره القاهرة للحوار مع الفاتيكان مع التركيز على المسائل التي تحتاج للتنسيق بين الجانب الإسلامي والمسيحي مثل القضايا ذات الصبغة الاجتماعية ، وتضم اللجنة خمسة أعضاء بحد أقصى من كل جانب وذلك على النحو التالي :

الجانب الإسلامي :

(أ) كامل الشريف — سكرتير عام المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة .

(ب) عبد الله العبيد — أمين رابطة العالم الإسلامي .

(ج) عبد العزيز التويجري — رئيس منظمة الإليسكو التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي .

(د) عبد الله نصيف — رئس المؤتمر الإسلامي بكراتشي

الجانب المسيحي :

(أ) الكاردينال / فرنسيس أرينزي — رئـــيس المجلـــس البابوي للحوار بين الأديان .

(ب) الأسقف / مايكل فيتز جيرالد — عضو المجلس البابوي

(ج) الأب د. / خالد عكاشة — عضو المجلس البابوي

(د) ممثل بطريرك الكاثوليك بالإسكندرية .

وللجنة سكرتارية مشتركة من كل من :

(أ) حامد الرفاعي — عضو المؤتمر الإسلامي بكراتشي

(ب) الأب / خالد عكاشة — عضو المجلس البابوي للحوار بين الأديان

(٢) عقدت اللجنة الإسلامية الكاثوليكية اجتماعها الثالث في الرباط ١٨ ، ١٩/ ١٩٩٧/٦ . رأس الجانب الإسلامي كامل الشريف سكرتير عام المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة . ورأس وفد الكثاوليك الكاردينال فرنسيس أرينزي رئيس المجلس البابوي للحوار بين الأديان . بحث الاجتماع كيف يتحدث المسلمون والمسيحيون عن بعضهما البعض وحقوق الأقليات .

(٣) كما عقدت اللجنة دورتها الرابعة في القاهرة ١٧ ، ١٩٩٨/٧/١٨ وقدمت بحوث من الجانبين حول :

- واجبات الرجل والمرأة في الأسرة والمجتمع .
- حقوق الإنسان وواجباته .
- حقوق الطفل في الأسرة والمجتمع .

٣ – مبادرة روبين كوك وزير الخارجية البريطاني :

(١) اقترح روبين كوك وزير خارجية بريطانيا في خطاب علني له في ١٠/٨/ ١٩٩٨ إقامة حوار بين الاتحاد الأوروبي ومنظمة المؤتمر الإسلامي بحيث يشمل هذا الحوار مجموعة من الموضوعات ذات الاهتمام المشترك مثل الوضع في البلقان وعملية السلام في الشرق الأوسط وأفغانستان والإرهاب وحقوق الإنسان وحقوق الأقليات .

(٢) وقد طرحت بريطانيا الفكرة على إيران بوصفها الرئيس الحالي لمنظمة المؤتمر الإسلامي وعلى الكويت بوصفها رئيس مجلسي وزراء خارجية المنظمة بالإضافة إلى السعودية وقد رحبت الدول الثلاث بهذا الحوار .

(٣) ستناقش مجموعة العمل الخاصة بالشرق الأوسط في الاتحاد الأوروبي في بروكسل خلال نوفمبر الحالي موضوع الحوار بين الإسلام والغرب .

٤ – اللجنة الإسلامية للحوار Islamic Committee for Dialouge (ICD):

(١) عقد المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة ندوة بعنوان " تقويم وتأصيل منهجية الحوار الإسلامي – المسيحي " وذلك في القاهرة في ١٣، ١٤ فبراير ١٩٩٨ ، وكان من ضمن توصيات الندوة تشكيل لجنة لوضع

منهاج عام للحوار الإسلامي - المسيحي وأسس التنسيق بين المنظمات والجهات الإسلامية التي تشارك في الحوار ، كما أوصت الندوة بان يكون الدكتور / ناصر الدين الأسد رئيس المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) رئيساً للجنة المقترحة وأن يكون الدكتور / حامد بن أحمد الرفاعي الأمين العام المساعد لمؤتمر العالم الإسلامي أميناً عاماً لتلك اللجنة .

(٢) عقدت اللجنة الإسلامية للحوار اجتماعها الأول في عمان (الأردن) يومي ٢٢ ، ٢٣ أبريل ١٩٩٨ برئاسة الدكتور / ناصر الدين الأسد وبحضور السادة :

كامل الشريف	الأمين العام للمجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة - القاهرة .
عبد الله العبيد	الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة
د. عبد السلام العبادي	وزير الأوقاف والشئون الإسلامية والأمين العام للهيئة الخيرية الهاشمية للإغاثة عمان (الأردن)
عبد العزيز التويجري	المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسسكو) الرباط .
د. حامد بن أحمد الرفاعي	الأمين العام للجنة الحوار الإسلامي - المسيحي في المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة، والأمين العام المساعد لمؤتمر العالم الإسلامي - كراتشي .
د. محمود أحمد كفتارو	المدير العام لمجمع أبي النور الإسلامي - دمشق .
المستشار / محمَّد بدر المنياوي	النائب العام السابق في مصر ، وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - القاهرة .
محمَّد السماك	الأمين العام للجنة الوطنية الإسلامية المسيحية للحوار والأمين العام للقمة الروحية - بيروت .
د. علي عبد اللطيف أبو شويمة	المسئول الإعلامي لاتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا ورئيس المركز الإسلامي بميلانو ولومبارديا - ميلانو

د. شيخ أحمد ليمو	رئـــيس جمعية الوقف الإسلامي للتربية والإرشاد – نيجيريا .
د. علي السمان	نائـــب رئيس اللجنة الدائمة لحوار الأديان بالأزهر ورئيس لجنة الحوار والعلاقات الإسلامية بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة .

(٣) وقـــد اتفـــق المـــشاركون في الاجتماع على صيغة مشروع ميثاق للجنة الإســـلامية للحـــوار ، واتفـــق علـــى إرســـاله لكل المنظمات والهيئات والمؤسسات التي اشتركت في ندوة القاهرة (فبراير ١٩٩٨) على أساس أن جميعها أعضاء مؤسسين في اللجنة الإسلامية للحوار .

أهم المؤتمرات والندوات حول الموضوع :

١ – مؤتمـــر " المـــسلمون والمـــسيحيون في المجتمع المعاصر ، صور الآخر ومعنى المواطنة :

عقـــد فـــي عمان بالأردن يوم ١٩٩٨/١١/١٠ وذلك بتنظيم من المجمع الملكـــي لـــبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) بالتعاون مع المركز الأرثوذكسي (شامبيزي – سويسرا) ، شارك فيه ممثلين عن الأردن – سويسرا – ليبـــيا – العراق – تونس – السنغال – فلسطين – لبنان – الجزائر – مصر وعدد من الدول الأوروبية بالإضافة إلى الولايات المتحدة وروسيا .

٢ – " الملتقى الدولي الأول للعقائد الدينية الثلاثة " :

طلـــيطلة – أسبانيا ١٩٩٨/١١/١٠ نظمته وزارة العدل الأسبانية بهدف دعـــم الحوار بين الأديان وتشجيع روح التسامح ، وشارك فيه ٣٠ شخصية من ممثلـــي الهيئات الدولية والخبراء من مختلف أنحاء العالم ، وركز الملتقى على دراسة التجربة الأسبانية كنموذج للتعايش بين الأديان .

٣ – الندوة التشيكية Forum 2000 :

يدعـــو لعقدها الرئيس التشيكي فاتسلاف هافل وقد عقدت الدورة الثانية لهـــا في براج في ١١–١٤ أكتوبر ١٩٩٨ وشارك فيها رجال سياسة واقتصاد وفكـــر يمـــثلون ثقافات العالم ، ومثل مصر في ندوة هذا العام (التي كانت عن

العولمة ومشاكلها) كل من الدكتور فوزي فاضل الزفزاف وكيل الأزهر ورئيس لجنة حوار الأديان السماوية به والدكتور / علي السمان رئيس لجنة الحوار والعلاقات الإسلامية بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية وعضو لجنة الحوار بالأزهر وشارك في ندوة هذا العام هيلاري كلينتون وهنري كيسنجر وفان دان بروك المفوض الأوروبي والحاخام الإسرائيلي الأكبر مائير لاو وآخرين .

٤ – مؤتمر الإسلام والمسيحية ١٩٩٨/٩/١٦ :

نظم المؤتمر جماعة الترينيتا ريان تحت رعاية اليونسكو وذلك في جامعة أوربانيانا في روما ، وشارك في المؤتمر رئيس وزراء الفاتيكان ، مدير عام منظمة اليونسكو ، وعدد من الأكاديميين من إيطاليا وألمانيا والولايات المتحدة وأسبانيا وتونس ، وشارك من مصر الدكتور / عطية القوص من جامعة القاهرة والسيد السفير / حسين الصدر سفيرنا في الفاتيكان .

٥ – " مؤتمر حرية الدين والعقيدة " :

عقد في أوسلو بالنرويج في الفترة من ١٢-١٦ أغسطس ١٩٩٨ وحضره عن مصر السيد السفير د. مجدي حفني سفيرنا في أوسلو والسيد السفير / نبيل بدر مستشار وزير الخارجية، وفيما يلي التوجهات الرئيسية للمؤتمر :

أ – تزايد الاعتراف بالدور الرئيسي الذي تلعبه الأديان في مسار السياسات الحالية .

ب – أهمية دور الدين في إنهاء كثير من الصراعات القائمة في العالم بدلاً من استخدام الأديان كوسيلة لإثارة النزاعات .

ج – ملاحظة القصور الواضح في قاعدة المعلومات التي تتعلق بالديانات وأوضاعها في دول العالم المختلفة ، وقد صدر عن المؤتمر إعلان أوسلو لحرية الدين والعقيدة (مرفق رقم ٥٦) .

٦ – **نـــدوة الـــدين حقوق الإنسان مفارقات تناغم أو معاداة – وضع الإسلام والمسيحية ١٩٩٨/٦/١٢ :**

نظمتها رابطة العالم الإسلامي بالتعاون مع كلية الحقوق بجامعة هارفارد وذلـــك فـــي المركز الإسلامي الثقافي بروما وافتتحها رئيس الوزراء الإيطالي رومانـــو برودي وشارك في الندوة د. جمال بدوي المصري الجنسية والأستاذ بجامعة سانت ماري بكندا .

٧ – **ندوة الحوار بين علماء الإسلام والغرب ١٩٩٨/٤/٢٩ :**

وعقدت في المركز الإسلامي الثقافي بإيطاليا .

٨ – **مؤتمر " الإسلام والغرب الماضي ، الحاضر ، المستقبل :**

وهو المؤتمر التاسع للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية وعقد بالقاهرة في الفتـــرة من ١٣-١٦ يوليو ١٩٩٧ وشارك في أعماله حوالي ٤٠٠ مفكر وعالم من ٨٥ دولة .

٩ – **المؤتمر الإسلامي المسيحي في النمسا :**

تـــنظم وزارة الخارجـــية النمـــساوية مؤتمرات دولية إسلامية مسيحية لمناقـــشة وبحث قضايا سياسية وثقافية من وجهتي النظر المسيحية والإسلامية وذلك تحت إشراف معهد لاهوت الأديان النمساوي وقد عقد مؤتمران حتى الآن الأول عام ١٩٩٣ ، والثاني في ١٣ مايو ١٩٩٧ تحت عنوان عالم واحد للجميع أسس التعددية السياسية والثقافية من وجهتي النظر المسيحية والإسلامية .

١٠ – **ندوة " الإسلام وأوروبا " :**

ونظمـــتها مؤسسة كونارد اديناور الألمانية في ١٩٩٧/٤/٢١ في مدينة براج بجمهورية التشيك .

١١ – **مؤتمر " صراع الحضارات أم حوار الثقافات " :**

ونظمته منظمة تضامن الشعوب الأفريقية الأسيوية في القاهرة في الفترة مـــن ١٠-١٢ مـــارس ١٩٩٧ وحضره حوالي ٣٠٠ مشارك من أكثر من ٣٠ دولة من دول العالم .

١٢ – **نـــدوة "European & Islamic Civilization: A Permanent Space for Dialogue" :**

وعقدت في باريس يومي ٥ ، ٦ مارس ١٩٩٧ تحت رعاية اليونسكو.

١٣ - **ندوة " الإسلام والغرب " :**

وعقـــدت في باريس يومي ٨ ، ٩ يناير ١٩٩٧ برعاية منظمة المؤتمر الإسلامي .

١٤ - نـــدوة **"Ethnic Conflict in 1990's – Clash of Civilizations : or Contention for Power"**

وعقدت في ١٩٩٦/١٠/٢٣ في أوبالا بالسويد .

١٥ - **ندوة " عولمة الثقافة وآثارها على العالم الإسلامي والغرب :**

وعقـــدت فـــي ديتـــشلي بارك ببريطانيا في ٢٩ ، ٣٠ سبتمبر ١٩٩٦ ونظمها مركز الدراسات الإسلامية بجامعة أكسفورد .

١٦ - **ندوة " هل الحوار بين أوروبا والإسلام ممكن ؟ " :**

وعقدت في ١٩٩٦/٩/٢٥ في مدينة أوبالا بالسويد .

١٧ - **مؤتمر " الإسلام ومستقبل الحوار بين الحضارات " :**

وهـــو المؤتمـــر السنوي الثامن للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية وعقد بالقاهرة في الفترة من ٢٤-٢٧ يوليو ١٩٩٦ .

ثانياً : ومن الشخصيات الداعية للحوار بين الحضارات :

١ - **مـــبادرة الـــرئيس الألمانـــي رومـــان هيرتزوج للحوار بين الغرب والعالم الإسلامي :**

(١) تولدت فكرة المبادرة لدى الرئيس هيرتزوج خلال زيارته إلى ماليزيا في مارس ١٩٩٧ عندما وجهت إليه أسئلة عن فائدة الحوار بين الثقافات لحل النـــزاعات الدولية ، وطرح وزير الدولة برئاسة الجمهورية الألمانية فكرة الـــرئيس هيرتـــزوج في ١٩٩٨/٧/٩ على سفراء عدة دول إسلامية هي (مصر – الأردن – المغرب – ماليزيا) وعدة دول أوروبية هي (إيطاليا – أسبانيا – النرويج – فنلندا – بالإضافة لألمانيا) .

(٢) تقـــوم المـــبادرة على إقامة شبكة لتبادل المعلومات والبحوث بين عدد من المعاهـــد البحثية الوطنية يقوم باختيارها السادة ملوك ورؤساء الدول التي ستتبنى المبادرة وستتعاون تلك المعاهد على الآتي :

أ - تحديد وإبراز القواسم المشتركة بين الحضارتين الغربية والإسلامية .

ب - التغلب على ما يثار من خلافات أو مفاهيم خاطئة بين الحضارتين .

ج - إصــدار التوصيات المتعلقة بالإدراك المبكر لظواهر الخلافات الحضارية والعمل على تجنب أية مظاهر للمواجهة الثقافية بين الحضارتين.

د - تحديد مجالات التعاون بين الدول الغربية والإسلامية لتحقيق أهداف الحوار بينهما .

(٣) وجه الرئيس هيرتزوج رسالة للرئيس / محمَّد حسني مبارك لدعوته لتبني مبادرة الحوار ، ووافق سيادته على ذلك واقترح قصر الحوار على الأبعاد الثقافية والحضارية فقط ، وقد وافق الجانب الألماني على ذلك .

(٤) انصبت معايير اختيار الدول المدعوة لتبني المبادرة على مكانة رئيس كل دولة ودوره المهم في منطقته ، إلا أن تشكيل الدول المنضمة للمبادرة ليس نهائــياً وممكــن أن تنــضم إليها لاحقاً دول أخرى مثل فرنسا وبريطانيا وإيران وتركيا .

(٥) أعلن رسمياً عن المبادرة في ١٩٩٨/١٠/٦ وتم تعيين البروفيسور د. شتا ينــباخ رئـيس المعهد الألماني للدراسات الشرقية بهامبورج كمنسق عام للمــبادرة ، وقــد قامت بعض الدول بتحديد ممثلها في الحوار على النحو التالي :

إيطالـــــيا : معهد الدراسات السياسية الدولية في ميلانو

فنلـــــندا : جامعة جوينسو .

النـــرويج : جامعة أوسلو .

أســـبانيا : لم تحدد بعد ممثلها .

الأردن : جامعة آل البيت .

ماليـــزيا : معهد التفاهم الإسلامي .

المغـــرب : لم تحدد بعد ممثلها .

مـــــصر : معهد الدراسات الدبلوماسية بوزارة الخارجية .

(٦) يقـوم د. شـتا ينـباخ المنسق العام للمبادرة حالياً بإعداد جدول أعمال الحـوار. وسـيقوم مـستقبلاً بـزيارة للدول التي تبنت المبادرة لعرض الموضوعات التي سيتم طرحها للبحث ولتبادل الآراء مع الخبراء الممثلين لتلك الدول في الحوار ، ومن المنتظر عقد مؤتمر للمشاركين في المبادرة علـى مـستوى الخبراء والأكاديميين وليس رؤساء الدول وذلك في إبريل ١٩٩٩ بمدينة برلين .

٢ - عمرو موسى والطريق إلى دعم الحوار الدولي :(١٩)

يوضـح عمرو موسى رؤيته على النحو التالي : ينتابنا القلق من إحياء نظرية هنتجنتون المضللة الخاصة بالصراع الحتمي بين الحضارات ، وتصيبنا الصدمة حينما نقرأ المقالات التي تلقي باللوم على العالم العربي والإسلامي فيما يـتعلق بجرائم يرتكبها قلة من المنحرفين ، ويصيبنا الذهول أيضاً عندما نسمع كـبار المـسئولين في العالم الغربي يتحدثون عن سيادة الحضارة الغربية على الحضارة الإسلامية ، ونشعر بالفزع عندما نقرأ المقالات التي تنادي بالتعامل مع الإرهـاب بالعـودة إلـى استراتيجيات القرن الثامن عشر والتي تنادي بإعادة اسـتعمار الدول التي قد يتخفى فيها الإرهابيون ، هل نعيد التاريخ كرة أخرى ؟ ألم نتعلم من دروس الماضي ؟

لقد جئت اليوم لأجيب على هذه الدعاوي الخطيرة ، وللدعوة لحوار جاد عاجـل بين الثقافات ، فدعونا ننظر إلى الحقائق القابعة أمامنا ، ولنقل أن مقال هنتجنـتون فـي نهاية الحرب الباردة لم يكن صدفة ، فقد هزم العدو السياسي الأعظـم للغـرب ، ومـع فحـص المـصالح الأمنية الأمريكية وضع صراع الحضارات لينظر إليه كخطر جديد ، فهل القضية تدور فعلاً حول إيجاد عدو ، وهل ينبغي خلق عدو حتى لو لم يكن موجوداً ؟

إنهـا فرضـية في غاية الخطورة ، وتزيد خطورتها عندما يوضع هذا العـدو في إطار ديني أو ثقافي . وهنا أريد أن أقر بأن الإسلام ليس الشيوعية ، ولـيس نظـرية سياسـية ، أو اقتصادية يتم توكيدها أو وضعها ، وليس نتاجاً لأحـوال اجتماعية واقتصادية متغيرة ، إنه مؤسس على معتقدات عميقة الجذور يعتـنقها مئات الملايين من البشر ، ولا تحكمها مجموعة أو مجموعات تساندها

مكاتب سياسية أو تحميها أجهزة الاستخبارات السرية ، أو الترسانات النووية ، فهـؤلاء الـذين يعتقدون أن صراع الحضارات سينتج عنه النصر لطرف على الآخـر كمـا حدث للشيوعية بهزيمتها والقضاء عليها ، بحاجة إلى أن يفكروا مراراً وتكراراً ، ولا أعتقد أن هذا سيحدث بل سيوقد النار في العالم بأسره .

وفـيما يـتعلق بالإعلانـات الغربية القائلة لسيادة حضارة على جميع الحضارات الأخرى وخاصة الإسلامية ، فإنها فرضية في غاية الخطورة ، ولا تقـبل أي اختـبار ، فالتاريخ يثبت لنا العكس ، ويكشف عن إسهامات الإسلام الثرية والمتميزة للعالم من خلال إثرائه المتبادل بين الشرق والغرب ، والذي دام لقرون طويلة .

إن الـتاريخ دوائر وحلقات ، ومن يحاول أن يقول لنا أن التاريخ يسير فـي خـط مـستقيم وبأن الماضي قد اندثر ولا عودة له ، يتجاهل بذلك طبيعة الـتاريخ الجوهرية . فكل دائرة تتسم بحلقة من التفاعل المتميز بين الحضارات وعـندما كان الغرب نائماً في سبات عميق كانت الحضارة الإسلامية والعربية تثـري العـالم كلـه بإسهاماتها الضخمة ، وجاء دور الحضارة الغربية لتضع إسـهاماتها وتوالت الأحداث ، وهناك الكثير من الكتب التاريخية التي تحكي لنا ظهـور وأفـول الكثير من الإمبراطوريات ، ومن الحكمة أن نقول أن نظرية الآخر في نهاية التاريخ تعتبر هي الأخرى تحليلاً خاطئاً للتاريخ .

فمـن المؤكد أن قدماء المصرين والرومانيين والعثمانيين والبريطانيين والـذين أقاموا جميعاً إمبراطوريات عظمى وأسهموا في الحضارات التي انتموا إليها ، شعروا جميعاً بنهاية التاريخ مع انهيار إمبراطورياتهم ، ولكن التاريخ لم ينتبه مع سقوط أي منها بل لحق بقوة جديدة بازغة ، إن التاريخ لا ينتهي ، إن العصور تبدأ وتنتهي ، ولكن التاريخ مستمر وسيستمر ويتطور إلى ما لا نهاية .

لم ينتشر الإسلام على أطراف الأسنة كما يعتقد البعض بل بقوة العقيدة والإيمـان ، ولازلـنا وبعد أحداث ١١ سبتمبر نواجه العديد من المقالات التي تدعـي أن الكـتب المدرسية ووسائل الإعلام عند المسلمين والعرب ، هي التي تقـف خلـف مـشاعر الكـراهية تجاه الولايات المتحدة والغرب ، إنها جميعا مغالطـات وإن لـم تـصلح ستشوه الرأي العام الغربي ، وليس هناك كراهية

لأمـــريكا أو للغـــرب في العالم الإسلامي أو العربي ، بل يكن العرب للشعب الأمريكـــي وللــنجاحات الأمريكية مشاعر الإعجاب ، وهناك احترام وإعجاب مـــساوٍ لـــذلك للإنجازات الأوروبية ، وعلى ذلك فإن الوضع الحالي هو خلاف عمـــيق حول سياسات الغرب بصفة عامة والولايات المتحدة بصفة خاصة فيما يـــتعلق بالـــصراع العربي الإسرائيلي ، وما ترونه هو إحساس عميق بالإحباط والغـــضب نتـــيجة للدعم الأعمى للسياسة الإسرائيلية والتعبير عن الظلم اليومي الذي يعاني منه الفلسطينيون .

إن الـــسياسات المـــزدوجة هي شيء مرفوض ، ووضع عباءة الدين أو الـــثقافة على هذا الخلاف العميق هو زيف يحيد بنا عن لب الموضوع ، وقراءة ساذجة خطيرة لأزمة نعاني منها اليوم ، فهي من جهة تنأى بنفسها عن مواجهة مـــشكلة الأخطـــاء الإســـرائيلية الجـــسيمة والمفرطة في النواحي الاستراتيجية والتكتيكية ، ومن جهة أخرى تتجنب تصحيح الموقف تجاه الإسلام الذي وصمت صورته في مجتمعاتكم بالتطرف والسطحية .

دفعتني جميع هذه المخاطر للدعوة لحوار بين الحضارات ، وهي دعوة ليـــست جديدة لكنها أصبحت اليوم عاجلة ، ففي الماضي اعتبرها البعض نوعاً مـــن الرفاهية أو بنداً إضافياً في جدول أعمال العلاقات الدولية ، أما اليوم فإننا ندفـــع الثمن لأننا لم نحسن التعامل مع هذه القضية . واقترح هنا أن نعطي لها الأهمية القصوى ونضعها في مقدمة جدول أعمالنا العالمية ليس في إطار نظرية ثقافية ، بل كضرورة استراتيجية حتمية ، وأضيف أن هذا الحوار يجب أن يعبر عن الحدود الرسمية ليصل إلى جذور المدن .

وأعتقد أننا إذا تناولنا هذه القضية يجب أن نعمل وفقاً للمحاور التالية :

أولاً : بينما يقع الكثيرون عن جهل في شراكة فكرة صراع الحضارات ، يحيد الـــبعض عـــنها لكنهم يعمدون إلى إشعال مثل هذا الصراع ، لذا اصبح حتمياً أن نفرق بين هؤلاء الذين يفتقرون إلى العلم بالموضوع ، وهؤلاء الـــذين تسوقهم الأعمال السياسية إلى موقف معين ، ينبغي أن نصل إلى المجموعة الأولى ونعلمها ، وينبغي أن نكون حازمين في عزل المجموعة الثانية التي لا تفلح إلا في نشر الكراهية والتعصب الأعمى .

ثانـــياً : أن شرط أي حوار جاد هو احترام التعددية والتنوع ، فالتنوع الثقافي نعمة وفي حفاظنا على تقاليدنا المختلفة ، فإننا نحتفي بعظمة وقوة إنسانيتنا المشتركة .

ثالـــثاً : ارتكـــاز الحـــوار على أسس من المساندة والاحترام المتبادل ، فمسار الحـــضارات لا يـــتم بخطـــى متساوية ، فكلها تمر بدورات من النهوض والأفـــول ، لـــذا فليس من الصحيح أن نكشف النقاب عن إمارات التكبر والغـــرور أو أن نحيك لعبة توجيه اللوم للآخرين لأنه لا كمال لأحد ولا أحد ينعم بسلطة احتكار الحكمة .

رابعـــاً : الأخـــذ بمنظور " النوافذ " بدلاً من " المرايا " . إن النافذة تفتح عالماً جديـــداً أمـــا المرأة فتقصر الرؤية على زاوية معينة بل وتعزز من ضيق هـــذه الـــزاوية . وكما أن العرب والمسلمين الذين ينظرون من النافذة لن يروا الحضارة الغربية على أنها حضارة مادية بحتة " فإن الغرب سينظر من النافذة ويرى بوضوح أن العلاقة بين الإسلام والعنف لا وجود لها .

إننا نقف اليوم في مفترق طرق وفي لحظة حاسمة من تاريخنا ، وعلينا أن نـــتخذ قـــراراً هاماً ونختار إما أن نسعى لبناء جسور قوية من التفاهم أو أن نسقط في هاوية من الصراع الدائم تلحق أضرارها البشرية بأسرها . إن السؤال الـــذي يواجهنا اليوم هو هل نستطيع أن نواجه هذا التحدي الذي وضعه التاريخ أمامنا ؟ إن النموذج الذي يجب أن نصبو إليه هو الحضارة والشرعية الدولية في مقابل العنف وغياب القانون ، وليس الغرب مقابل الإسلام . وأعتقد أن الاختيار واضح ويجب ألا ندع هذه الفرصة تفلت من أيدينا .

٣ - **زين العابدين بن علي وحوار الحضارات في ظل الشراكة المتكافئة** :[٢٠]

تنطلق رؤية زين العابدين على من الأفكار التالية :

- يشكل حوار الحضارات إحدى الدعامات الجوهرية لتعزيز وعي المجموعة الدولـــية بضرورة الإسراع بكبح نزعات العنف والإرهاب ، وإرساء صيغ ملائمة من التعاون توفر الأمن والسلام والتقدم للجميع ، وحوار الحضارات هـــو السبيل الأمثل لمعالجة الانعكاسات السلبية لظاهرة العولمة ، ولتعميق

التعاون والتضامن بين الشعوب في ظل الشراكة المتكافئة والاحترام المتبادل .

- حوار الحضارات لابد أن ينطلق من مراجعة سياسات عديدة نمت الشعور بالظلم لدى الشعوب التي ترزح تحت أشكال مختلفة من المعاناة ، فثلث البشرية يعيش الفقر والتهميش ولم يتغير سلوك اللامبالاة غير المعلنة تجاه الجنوب ، فحوار الحضارات بهذا المعنى يتيح ترشيد مسار العولمة ، ولاسيما في بعديها الاقتصادي والاجتماعي .
- إن الكونية لا تتعارض مع خصوصيات الشعوب وتميز رصيدها الثقافي وخلاصة تجاربها التاريخية ، فنحن نرى أن البعد الكوني قائم في ذات كل فرد ، وهو من جوهر السلوك الإنساني السليم ، ونرفض أن يوظف البعض الدين بدعوى امتلاك الحقيقة المطلقة أو احتكار المقدس وتشويهه عبر مصادرة العقول واغتيال الحريات والجذب إلى الخلف وتعطيل مسيرة التاريخ .
- إذا كان العالم الإسلامي يفتقر اليوم إلى القوة التكنولوجية والصناعية بالمقارنة مع الغرب ، فإنه يمتلك منظومة قيم نبيلة أساسها الخير والرحمة والتسامح والتضامن . ومن هذا المنظور فإن للإسلام دوراً مهماً في صياغة النظرة المستقبلية للكون ، شأنه في ذلك شأن سائر الديانات .
- إن التجربة الإنسانية الطويلة تبين بوضوح أنه لا سبيل إلى إحلال السلام بين البشر بدون سلام بين القناعات السياسة والدينية ، ويتعين على الديانات التوحيدية الثلاث أن تعزز فيما بينها وبين علاقاتها وفي مجتمعاتها المتنوعة قيم الحرية والتسامح وحقوق الإنسان .
- إن حوار الحضارات هو رؤية تؤسس لمستقبل الأكثر اطمئناناً وأكثر تضامناً ، ويجب أن لا يفهم من حوار الحضارات أنه حوار بين الإسلام والغرب، بل لابد أن يكون الحوار بين كافة الثقافات والحضارات والشعوب.

٤ - **سمو الأمير الحسن بن طلال واحترام قدسية الحياة :[٢١]**

تتحدد فلسفة الحسن بن طلال في :

- احتـرام قدسـية الحياة هو حجر الزاوية في كل العقائد الكبرى ، وحينما ترتكب أعمال معينة باسم قضية سياسية ويستخدم القائمون بها الدين لإضفاء الـشرعية علـى أعمال سياسية فإن هذه الأعمال تُعدّ إهانة لكرامة البشر ، وأعمـال العنف المتطرف التي يشكل فيها رجال ونساء وأطفال أبرياء كلا مـن الهـدف ، والإدارة هـي أعمال لا أخلاقية بالمرة وغير قابلة للتبرير إطلاقاً ، وليس هناك عقيدة دينية تتسامح مع مثل هذا السلوك .
- الإرهـاب بطبـيعة لا يميـز فهـو يقتل المدنيين من كل الأعمار والألوان والـتوجهات ويخيف الأفراد والمجتمعات في كافة أرجاء العالم ، وربما هو اليوم أخطر وأبشع وسيلة للتعبير عن العنف داخل الأوطان وخارجها .
- انتـشار خلايـا الإرهـاب النشطة على مستوى العالم هو تحدي إنساني لنا جمـيعاً ، وعلـى الحكـومات مواجهة هذا التحدي الجديد في القرن الواحد والعشرين على المستويات المحلية والإقليمية والدولية .
- نحـن لا نـستطيع ترك هذا التدهور ليتواصل وإلا فإن الأرضية الوسطى المشتركة Terra Media لن تستمر قائمة ، ونحن لا نستطيع الاستمرار في الزعم بأننا معتدلون ووسطيون إذا لم نكن ديناميكيين في دعم هذه الوسطية والأرضـية الوسـطى المـشتركة . وإذا لـم نكن ديناميكين وإذا لم نقف متـضافرين وإذا لـم نـؤخذ بعـين الاعتبار ، فإن هذه الأرضية ستتآكل وسيملؤها المتطرفون من كل جانب بشعارات الكراهية والمواجهة .
- نحـن فـي حاجة إلى تطوير نظام قيم نستطيع جميعاً المشاركة فيه ، وإلى وضع مدونة سلوك Cade of Conduct لكل شئوننا المشتركة ، ونحن في حاجـة أيضاً لتطوير إطار حضاري لخلافاتنا ، ومن الأهمية بمكان تحمل مسئولية الكلمات والأفعال على كل المستويات .

٥ - **جاك شيراك والمسئولية السياسية لإعطاء العولمة وجهاً إنسانياً :** (٢٢)

يوضح شيراك رؤيته في النقاط التالية :

- أصبحنا نسمع على نحو متعاظم عن تصادم الحضارات باعتباره السمة التي سـتميز القرن الواحد والعشرين ، تماماً كما شهد القرن التاسع عشر تنازع القومـيات والقـرن العـشرون تصارع الأيديولوجيات . ويتعين علينا أولاً

دحض هذا الخطاب الذي تغذيه كل المخاوف كما يتعين علينا مواجهته بواقع آخر سياسي وأخلاقي وثقافي وبإرادة أخرى : إرادة الاحترام والتبادل والحوار بين الثقافات .

- علينا جميعاً أن نطرح بعض الأسئلة على أنفسنا : هل بقينا أمناء لثقافتنا وللقيم التي ترتكز عليها ؟ هل أعطى الغرب الانطباع بأنه يفرض ثقافة مهيمنة يشعر الآخرون بأنها ثقافة عدوانية ؟ ألم تظهر أحياناً بعض مجادلاتنا الثقافية الكبرى وكأنها مجادلات قوم أثرياء مفرطة في التركيز على النفس مهملة الواقع الاجتماعي والروحي لكل ما ليس من الغرب ؟ الجواب على هذه التساؤلات هو حوار الثقافات فهو ضمانه السلام في وقت يختلط فيه مصير الشعوب إلى حد لم يسبق له مثيل :
- المبادئ التي سيتركز عليها هذا الحوار هي :
  - تساوي جميع الثقافات في الكرامة ، فإذا كانت الثقافات لا تتطور كلها وفق الوتيرة نفسها، فإنها تبقى كلها حية في ذاكرتنا الجماعية ، وهي تشكل هوياتنا ومبررات عيشنا ، وهي تشكل معاً وبالتساوي ، جانب النور والتقدم والضرورة الأخلاقية في نظر البشرية .
  - ضرورة التعددية فلا يمكن أن يوجد حوار بين الذات ومثيلها في ظل تجاهل تام للآخر ، وأساس هذه التعددية هو الاقتناع بأن لدى كل شعب رسالة فريدة يعطيها للعالم ، وبأن كل شعب قادر على الإسهام في إثراء المسيرة البشرية .
- فكيف السبيل إلى جعل هذا الحوار ممكناً ؟ تقتضي الأولوية الأولى وبإلحاح توفير المزيد من العدالة والمزيد من الاهتمام بالشعوب التي تخشى أن تكون الفئة المستضعفة على هامش هذه المسيرة العالمية الكبرى . وإعلاء مصلحة البشر يعني أيضاً وبالدرجة الأولى ، معالجة فعلية لضروب التصدع التي باتت لا تطاق في عالمنا ، ولابد من أن نعبئ قواتنا لمكافحة الفقر وتعزيز التربية التي تتيح فهم الآخر .

وإذا كان من الخطأ ومن الخطر أن نربط بشكل مباشر ما بين الإرهاب والبؤس ، فمن الواضح للجميع أن هناك عملية تتابع بين الإرهاب والتعصب ،

والتعصب ينمو في تربة الجهل والبؤس ، وتوفير المزيد من العدل والإنصاف يجعل الإعداد للمستقبل المشترك للشعوب أكثر سخاء .

- حــوار الــثقافات يجــب أن يجري ببصيرة وتواضع لأن عدوه اللدود هو الغطرسة . ويمكن لكل حضارة ولكل شعب بل عليهما أن يفتخرا بما أنجزاه وأعطــياه للعــالم . ولكــن على كل حضارة وكل شعب أن يدركا أيضاً ما لــديهما من جوانب مظلمة ، فجميع الحضارات في مرحلة ما من تاريخها ، أخلــت الــسبيل لأصوات التزمت وحاولت أن تحط من شأن الآخر بل وأن تنكر إنسانيته .
- فــي مــاض لــيس بالبعــيد ارتفع صوت الإنسانية في مواجهة قوى الحقد والرفض وسوء الفهم ، ولكي ينتصر هذا الصوت من جديد ، علينا أن نتعلم التفاهم والتحادث والعمل المشترك في ظل احترام النفس والاعتزاز بالهوية، وذلــك هو مغزى حوار الثقافات ، وهو الرهان الذي يتعين أن يكون تحقيقه مهمتنا جميعاً .

٦ - **الأمير تشارلز " الإسلام والغرب " :** (٢٣)

يعرض تشارلز رؤيته على النحو التالي :

- العلاقــات بين العالمين الإسلامي والغربي تتسم الآن بالأهمية أكثر من أي وقت مضى ، لأن درجة سوء الفهم بينهما ما تزال عالية على نحو خطير ، ولأن الحاجــة لتعايشهما وعملهما معاً على نحو متزايد هي الآن أعظم من أي وقت مضى .
- الحقــيقة المحــزنة هي أنه بالرغم من التقدم في مجال التكنولوجيا ووسائل الاتصال في النصف الثاني من القرن العشرين ، فإن سوء الفهم بين الإسلام والغرب ما يزال مستمراً ، بل وربما أخذ يزداد .
- ســوء الفهــم هذا بالنسبة للغرب لا يمكن أن يكون حصيلة الجهل ، فهناك بليون مسلم في شتى أرجاء العالم يعيش الملايين منهم في بلدان الكومنولث، وهــناك عشرة ملايين مسلم أو أكثر في الغرب ، فالإسلام يحيط بنا من كل جانب ، ومع ذلك يستمر الشك والخوف .

- لا ريـــب أن فرص السلام في عالم التسعينيات بعد انتهاء الحرب الباردة أصـــبحت أعظم مما كانت عليه في أي وقت مضى خلال هذا القرن . وفي الشرق الأوسط تتزايد الآمال في إنهاء مشكلته التي أدت إلى انقسام العالم ، وكانت على نحو مثير مصدراً للعنف والكراهية . لكن الأخطار لم تندثر بل وتتـــزايد كـــل يـــوم ، المعانـــاة المـــروعة للشعوب في أرجاء العالم : في يوغوسلافيا السابقة ، الصومال ، أنجولا ، السودان وكثير من الجمهوريات الـــسوفيتية الـــسابقة ، وهو الأمر الذي يساهم في إبقاء المخاوف والأخطار المتعصبة التي يكنها عالمنا الإسلامي والغربي لبعضهما البعض .
- إن الـــصراع بالطـــبع يندلع نتيجة لسوء استخدام السلطة وتضارب الأفكار والنشاطات التي يمارسها القادة المتعصبون والمجردون من الضمير ، لكن من المحزن أيضاً أن الصراع يندلع نتيجة عدم القدرة على الفهم ، وعلينا ألا ننجـــرف إلـــى حقـــبة جديدة من الخطر والانقسام ، لمجرد أن الحكومات والشعوب والمجتمعات والأديان لا تستطيع أن تتعايش في عالم متقلص .
- ومن الغريب من وجوه عديدة ، أن يستمر سوء الفهم بين الإسلام والغرب ، والـــذي يـــربط بيـــنهما أقوى بكثير مما يقسمهما : فالمسلمون والمسيحيون والـــيهود جمـــيعاً " أصـــحاب الكتاب " ولديهم الكثير من القيم المشتركة ، وتاريخهم مرتبط على نحو وثيق .
- أصل المشكلة يكمن في أن معظم تاريخ الإسلام والغرب الممتد لأربعة عشر قرناً ، تميز بالصراع والعداء المتبادلين ، مما أدى إلى نشوء تقليد دائم من الخـــوف والـــشك قـــائم على أنهما غالباً ما ينظران إلى الماضي من خلال منظورين متعارضين : فالحروب الصليبية التي استمرت مائتي عام هي في الغـــرب سلـــسلة من الأعمال البطولية ، أما المسلمون فيعتبرونها حقبة من الوحـــشية ، وعلـــى حين يعتبر عام ١٤٩٢م في الغرب عام الآفاق الجديدة (اكتـــشاف الأمـــريكتين) فهـــو بالنسبة للمسلمين عام مأساوي حيث سقطت الأندلس . ونتيجة لنظرتنا إلى تاريخنا في الغرب ، فإن الإسلام يعتبر تهديداً فـــي العـــصور الوســـطى ومصدراً لعدم التسامح والتطرف والإرهاب في العـــصور الحديثة على الجانب الآخر نمت نفس المشاعر منذ غزو نابليون

لمصر عام ١٧٩٨م إلى سقوط الإمبراطورية العثمانية أثر الحرب العالمية الأولى .

- ليست المسألة هي تحديد أي الصورتين أكثر صحة من الأخرى أو أيهما تنكر الحقيقة ، فالأهم هو سوء التفاهم الذي ينشأ عندما نفشل في تقرير كيفية رؤية الآخرين للعالم وتاريخه وأدوارنا فيه . ولقد عانى حكمنا على الإسلام من التحريف الجسيم نتيجة لاعتبار أن التطرف هو القاعدة ، في حين أن الحقيقة مختلفة وأكثر تعقيداً على الدوام . وعلينا أن نفهم نظرة العالم الإسلامي إلينا ، فنحن لا نحقق مكسباً بل نتسبب في كثير من الأذى حينما نرفض تفهم مدى التخوف الحقيقي لكثير من الناس في العالم الإسلامي من ماديتنا الغربية وثقافتنا باعتبارهما تحدياً لثقافتهم ونسق حياتهم . إننا نسقط في فخ الغطرسة المقيدة حينما نخلط بين التحديث في البلدان الأخرى وبين تحويل هذه البلدان إلى أشباه لنا .
- بقدر سوء الفهم في الغرب لطبيعة الإسلام ، هناك جهل بفضله على الثقافة والحضارة الغربية . فالعالم الإسلامي في العصور الوسطى كان عالماً ازدهر فيه العلم حتى قيل أن " مداد العالم أقدس من دم الشهيد " . ولقد تم الاعتراف منذ عهد طويل بمساهمة أسبانيا في ظل الحكم الإسلامي في الحفاظ على العلوم والمعارف ، وفي وضع اللبنات الأولى للنهضة الأوروبية ، لكن المدهش هو مدى مساهمة الإسلام في جوانب عديدة من حضارتنا التي كثيراً ما نعتقد خطأ أنها غربية بأكملها ، إن الإسلام جزء من ماضينا وحاضرنا في جميع مجالات البحث الإنساني ، وقد ساهم في إنشاء أوروبا المعاصرة ، إنه جزء من تراثنا وليس شيئاً منفصلاً عنا .
- علاوة على ذلك فإن الإسلام يمكن أن يعلمنا طريقة للتفاهم والعيش في العالم ، وهو الأمر الذي فقدته الديانة المسيحية مما أدى إلى ضعفها . فجوهر الإسلام يتمثل في حفاظه على نظرة متكاملة للكون ، وقد فقد الغرب هذه الرؤية تدريجياً منذ ظهور كوبرنيكوس وديكارت لكنه يستطيع أن يتعلمها من جديد من الإسلام .

- علينا أن نتعلم تفهم بعضنا البعض ، وعلينا أن نعلم أبناءنا أن يتمكنوا من ذلك أيضاً . وعلينا أن نظهر الثقة والاحترام المتبادل والتسامح ، إذا كان لنا أن نعثـــر على القاسم المشترك بيننا ، وعلينا أن نعمل معاً لإيجاد الحلول ، فلـــم يعد بوسع العالمين الإسلامي والغربي أن يسمحا للانقسام بأن يمنعهما مـــن بذل جهد مشترك لحل مشاكلهما ، لقد وصلا الآن إلى ما يشبه مفترق طرق في علاقاتهما ، ولا يجوز أن ندعهما يفترقان .
- وأنـــا لا أوافـــق علـــى مقـــولة أنهما يتجهان نحو صدام في عهد جديد من الخـــصومة والعداء ، فأنا على قناعة تامة بأن لديهما الكثير لكي يقدماه إلى بعضهما البعض .
- إننـــي سعيد لأن الحوار قد بدأ في بريطانيا وأماكن أخرى لكن سيظل علينا أن نعمـــل بجـــد واجـــتهاد كي نفهم بعضنا بعضاً ، ونزيل أي سموم بيننا ونقـــضي علـــى شبح الشك والخوف ، وكلما قطعنا شوطاً أطول على هذا الدرب تحسنت نوعية العالم الذي سنقيمه لأجيالنا المقبلة .

٧ - **روبين كوك " حوار جديد مع الإسلام "** :(٢٤)

يوضح روبين كوك رؤيته على النحو التالي :

- الفـــن الإســـلامي والعلـــوم والفلسفة الإسلامية ساعدت على تشكيل تطورنا وعملت على تكييف نمونا كأفراد وتداخلت في تفكيرنا وطريقة معيشتنا . إن ثقافتـــنا مديـــنة للإسلام بدين يجدر بالغرب أن لا ينساه ونحن نقوم بتطوير علاقاتنا مع العالم الإسلامي .
- ويجـــب أن لا نـــدع سوء التفاهم بيننا يستمر ويتواصل ذلك لأنه من الخطأ أصـــلاً أن تـــصدر ثقافتان عظيمتان حكماً جائراً على بعضها البعض بهذه الـــصورة المؤســـفة ، ثـــم إنه في عالم اليوم ليس لدينا مفر من العيش معاً والعمـــل مـــتآزرين بسلام ووئام ، فالخيار هو إما أن نعمل معاً متضافرين وننتصر معاً ، أو نترك عدم الثقة والتوجس باقية على ما هي عليه وتكون النتيجة أن نخسر جميعاً .

- البعض يقول أن الغرب بحاجة إلى عدو ، وبما أن الحرب الباردة قد ولّت بغير رجعة ، فإن الإسلام سيأخذ مكان الاتحاد السوفيتي القديم كهذا العدو ، ويقولــون أن " صــراع الحــضارات " قادم ولا مفر منه ، وأنا أقول أنهم مخطــئون بل ومخطئون خطئاً فادحاً ، فنحن لسنا بحاجة إلى الإسلام كعدو بــل نحــن بحاجــة إلى الإسلام كصديق ، وقد تكون الحضارات التي لدينا مخــتلفة وقــد تكون الديانات أيضاً مختلفة لكن هذا لا يعني أننا لا نستطيع التعايش معاً .
- يــرى أحــدنا الآخــر ، إلــى حد كبير ، عبر الصورة المبسطة والمشوهة والخطيــرة لبعضنا البعض فالإسلام يرى الغرب على أنه عدو عاقد العزم علــى استعمال قيمه المتحررة لتقويض المجتمعات الإسلامية . والغرب من ناحيــته يــساوي الإســلام بالأعمال المتطرفة التي يقوم بها البعض وكلتا النظــرتين في غير محلها ، فأسامة بن لادن لا يمثل الإسلام كما أن الذين ارتكبوا عملية أوكلاهوما الإرهابية لا يمثلون قيم الغرب .
- لقــد حان الوقت لكي يبدأ الاتحاد الأوروبي ، ومنظمة المؤتمر الإسلامي ، حواراً حول القضايا العديدة التي تهم الجانبين ، فالحوار البناء فقط يمكننا أن نــتعلم كيف يفهم أحدنا الآخر ويثق به ، ويجب ألا يقتصر هذا الحوار على الدبلوماســيين أو حتــى وزراء الخارجية ، بل يجب أن يقوم وعلى جناح الــسرعة بين الشعوب ، وأن يشارك فيه أكبر عدد من المفكرين والمثقفين والفنانــين ، لتحطيم الصور المبسطة والمشوهة وللقضاء على الانطباعات المضللة التي تقع في صميم النزاع بين مجتمعينا وتسبب التنافر بين ثقافتينا، وهــناك الكثير الذي يمكننا أن نكسبه من قيامنا بذلك الحوار ، والكثير أيضاً الذي يمكننا أن نخسره لو أننا لم نقم بذلك .
- لــدى بريطانيا ميزتان في علاقاتها مع العالم الإسلامي ، فنحن نشترك معاً فــي ألف عام من التاريخ ، مع أنه لم يكن كله تاريخاً سهلاً أو يسيراً . كما لدينا في بلادنا مجتمع مسلم مزدهر يساهم إسهاماً كبيراً في مسيرة المجتمع البريطاني . والأمل هو أن يتمكن الغرب والإسلام من التعايش معاً في وئام وســلام ، والأمل أيضاً هو أن نزيد من ثراء بعضنا البعض فكرياً وإنسانياً واجتماعياً من دون أن نفقد هويتنا المستقلة .

٨ - **جورج كاري " الإسلام والمسيحية في عالم اليوم " :** (٢٥)

يقدم كاري رؤيته على النحو التالي :

- يقع على عاتق المسلمين والمسيحيين مسئولية عظيمة تجاه المجتمع الإنساني، فالمسيحية والإسلام هما أكبر ديانات العالم ومازالتا كلتاهما محتفظتين بكامل عنفوانهما .
- على مدار التاريخ لعب أتباع الديانتين أدواراً لها جوانبها المتباينة بصورة ما في تسيير أمور العالم ، فمن الناحية الإيجابية ترك كل من الإسلام والمسيحية آثاراً جليلة للمجتمعات الإنسانية عن طريق التعليم والتكافل الاجتماعي وزرع القيم الأخلاقية السامية من أجل خير البشرية ، لكن من الناحية السلبية هناك فروق الديانتين التي عزلت بكل أسف الناس عن بعضها بعضاً ، وينبغي أن نمعن التفكير في هذا حتى لا نترك الفرصة لصرخات التعصب والجهل تعلو وتخرس صوت الإيمان العقلاني الهادئ ومن ثم يحل العنف والقتل محل الحوار والسلوك الحضاري .
- ينبغي على القيادات الدينية أن تلعب دوراً مسئولاً وخلاقاً ، فالسعي نحو السلام بين ديانات العالم هو بالتأكيد أحد أصعب المهام التي تواجه الإنسانية.
- لقد أسأنا لزمن طويل تقدير إلى أي حد يمكن للثقافات والأديان أن تخلق الانقسامات في أجزاء عديدة من العالم ، وفشلنا في فهم ما يمكن أن تعنيه للشعوب خاصة الشباب ، فما الذي يجب عمله إذن ؟ هناك أربع مقولات لتغيير التوجه هي : الصداقة لا العداء ، التفهم لا التجاهل ، الانفتاح لا الانغلاق ، والتعاون لا المجابهة .
- فالصداقة ، وهي كلمة أدق من التسامح التي قد تعني اللامبالاة ، هي الإطار الذي يحتوي كل الاختلافات في تواصل ، والذي يحتضن المعتقدات المخالفة في حب يحول دون الانزلاق إلى العداوة والبغضاء ، لقد قال د. ألبرت حوراني ذات مرة ، أنه ليس باستطاعة أحد أن يكتب شيء ذا معنى عن العالم الإسلامي ، ما لم يؤسس نوعاً من العلاقة الحية مع هؤلاء الذين يكتب عنهم " وتنطبق هذه المقولة أيضاً على العالم المسيحي ، ووصف د. حوراني " للعلاقة الحية " هو جوهر الحوار الذي نسعى إليه .

- وجهلــنا ببعــضنا البعض أمر مريع ، وكما قال د. عزيز العظمة ، فإن التشويهات التي تعرض لها الإسلام في الغرب ، تمت عبر ثلاثة عصور : فحتــى زمـــن حركة الإصلاح في القرن السادس عشر صور الإسلام كدين متعــصب وشـــرير ، فحتى زمن حركة الإصلاح في القرن السادس عشر صـــور الإســـلام كدين متعصب وشرير ، وخلال عصر التنوير في القرن الـــثامن عـــشر صور بأنه ديانة غريبة أو بالأحرى سخيفة ، وفي العصر الحـــديث يصور على أنه دين يجب الخوف منه ، ولاشك أن هناك ادعاءات مماثلـــة في التاريخ الإسلامي عن ماهية وطبيعة المسيحية فكيف يتسنى لنا إحالة هذا الجهل المحيط بنا إلى نور ثاقب ؟
- بالتأكـــيد علينا أن نبدأ بالكليات الدينية والمؤسسات التعليمية ، وكما قلت في محاضـــرة ألقيتها في الهند في بدايات العام الحالي ، فإنني أتطلع إلى اليوم الـــذي يطلـــب فيه من الدارسين لفقه الدين أن يدرسوا طريق حياة وتعاليم عقيدتين أخريين إلى جانب ديانتهم .
- إن الـــسعي نحـــو السلام والتآلف يطرح مسألة الانفتاح بإلحاح . وعلينا هنا مواجهة المشكلة الأساسية بوضوح ، فكلانا لديه الرغبة القوية في نشر دينه، وتلـــك حقيقة لا يمكن إنكارها أو الاعتذار عنها ، لكن علينا أن يكون لدينا الاستعداد لسماع الآخرين ولتفهيمهم . ومن الضروري أن ندرك أن الطريقة التـــي نتعصب بها لها انعكاساتها على عقائد الآخرين ، وأي من ديانتينا لا يمكن أن يأمرنا بنشر دعوتنا عن طريق الكبر أو الخداع أو اللامسئولية .
- لكـــن هل لدينا الاستعداد الصادق لتنمية هذا الانفتاح ، وهل نسعى نحو منح عقائد الآخرين نفس الحقوق التي نمنحها لعقيدتنا ؟ إن هذه المسألة أصبحت تـــتطلب الإجابة في جميع أنحاء العالم ، وأعتقد أن مصر بتقاليدها العريقة التي تعود لقرون طويلة من التعايش المشترك بين الكنيسة القبطية والأغلبية المسلمة تضرب مثلاً منيراً للإعجاب وجديراً بالأخذ في الاعتبار .
- لا يـــستطيع رجـــال الدين بصفة خاصة تحمل الانزلاق للعداء والمجابهة ، وهـــناك مجـــالات واسعة للاتفاق فيما بين الإسلام والمسيحية تؤهلهما لقيام تعـــاون أعظـــم والتزام مشترك نحو الإنسانية في صراعها ضد قوى الشر والفقر والمرض .

- فالإسلام والمسيحية يحثان أتباعهما على أن يكونوا أعضاء نافعين وجيراناً متعاونين في المجتمع الإنساني ، وهما أيضاً يتفقان على أن العدل والتكامل هما أساس بناء هذا المجتمع ، كما أنهما يتفقان على الإيمان بحقائق أبدية في العـــالم المحكـــوم بواقـــع اللحظة . ومن ثم فهما يشتركان في الوقوف ضد العلمانية كنظام لتفسر الحياة والمعرفة والحضارة .
- إن هذه الاتفاقات الدينية والأخلاقية تفتح الباب واسعاً لمزيد من التعاون بين المـــسلمين والمـــسيحيين فـــي محاربة قوى الشر الكبرى التي تهدد العائلة الإنـــسانية : ففي مواجهة الفقر لدى كل من الإسلام والمسيحية هناك تراث طويل من التكافل الاجتماعي وموارد ضخمة يمكن استخدامها لتلبية حاجات الفقراء والمرضى ، وفي مواجهة الصراعات تستطيع القيادات الدينية ، بل ينبغي عليها بالأحرى أن تقوم بدور أكثر فاعلية خاصة حينما تقحم الخلافات الدينـــية فـــي هـــذه الصراعات ، وفي مواجهة العنف أو التطرف أو تسفيه العقائد ، لابد أن يسمع صوت رجال الدين بوضوح ضماناً للاستقرار وتلافياً لتفجر الأزمات .

٩ - **الـــبابا يوحـــنا بولس الثاني " الحوار بين الثقافات من أجل حضارة المحبة والسلام " :[٢٦]**

يعرض يوحنا بولس الثاني رؤيته في الأفكار التالية :

- فـــي مطلع ألفية جديدة ينتعش الأمل بأن تكون العلاقات بين البشر مستوحاة أكثـــر فأكثـــر من مثل التآخي لكن لا يخفى أن البشرية بدأت هذا المنعطف الجديـــد مـــن تاريخها بجروح لم تلتئم بعد ، فهي تعاني في بقاع كثيرة من نـــزاعات حادة ودامية . لذا بدا لي أن أدعو المؤمنين بالمسيح ومعهم جميع البـــشر ذوي الإرادة الطيـــبة إلـــى الـــتأمل في الحوار بين ثقافات الشعوب وتقالـــيدها المختلفة كسبيل ضروري لبناء عالم متصالح وقادر على التطلع بصفاء إلى مستقبله .
- كثيـــراً ما كان تنوع الثقافات في الماضي مصدراً لسوء الفهم بين الشعوب ودافعاً لنزاعات وحروب . لكن اليوم أيضاً وللأسف نشاهد بقلق ترسخ عدد مـــن الهويات الثقافية الرافضة لكل تأثير خارجي خير في بقاع مختلفة من

العـــالم . ودور وتأثير وسائل الاتصال الحديثة وطموح بعض الدول لنشر ثقافـــتها علـــى حـــساب الهـــويات الثقافية للشعوب الأخرى يزيد من تعقيد المشكلة. ثم هناك مسألة الهجرة التي باتت ظاهرة اجتماعية خطيرة بما تثره مـــن قضايا الاندماج الثقافي في البيئة البشرية الجديدة ، وليس هناك صبغة ســـحرية لحـــل هذه القضايا الشائكة ، لكن إذا كان تقدير الثقافة الذاتية يظل واجباً ، فإن احترام ثقافات الآخرين بات ضرورة .

- بقـــدر ما تكون الثقافة حية ، فإنها لا تخشى الاضمحلال ، من ثم فلا يمكن الحـــد فـــي مجال الحوار بين الثقافات من تفاعلها فيما بينها ، وهذا الحوار يرتكز على الوعي بالقيم الإنسانية المشتركة ، والديانات المختلفة قادرة على القـــيام بإســـهام مهم في هذا الحوار ، فالانفتاح المتبادل بين أتباع الديانات المختلفة سيستمر خيراً عظيماً لقضية السلام ولخير البشرية كلها .
- أمام التعاون المتزايد في العالم ، ينبغي إنماء وعي متصاعد بقيم التضامن ، وقـــيم التضامن الأصيلة تقتضي إرساء العدالة لتتمكن البلدان الأشد فقراً من مواكبة ركب النمو الاقتصادي والرقي البشري . ولبناء حضارة المحبة لابد أن يـــسعى الحـــوار بين الثقافات لتخطي الأنانية ، فينبغي النظر إلى ما هو أبعد من الخبرة الفردية لاكتشاف غنى تاريخ الآخرين وثراء قيمهم ، ولابد من تخطي إرث الحروب والنزاعات والعنف والأحقاد التي مازالت حية في الذاكرة وذلك بدخول درب الصفح والمصالحة ، وإذا كان هناك من يرى ، باســـم الواقعـــية ، أن هـــذا وهم وأمر ساذج ، فإن الرؤية المسيحية تعتبره السبيل الوحيد لبلوغ السلام .

ووفقـــاً لما تقدَّم يتحدد الهدف الأساسي من الدراسة الراهنة في إخضاع بعـــض الآراء الأساســـية والـــسائدة حـــول أطروحتي : " صدام الحضارات " و" حوار الحضارات " للتحليل على النحو التالي :

١ – تقـــويم العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى على صعيديها التاريخي والراهن .

٢ – تقـــويم دور الحضارة الإسلامية في بعث وتطور حضارة الغرب على وجه الخصوص .

٣ - تحليل العوامل التي أدت إلى تصاعد فكرة " الحوار الحضاري " أو فكرة " الصدام الحضاري " .
٤ - تقويم الأطروحات والنظريات التي أبرزت طابع " الصدام بين الحضارات " وتلك التي أبرزت طابع " الحوار والتفاعل الحضاري " .
٥ - تحليل أسباب ا لعداء بين الإسلاميين (حركات الإحياء الإسلامي) والغرب .
٦ - تحليل دعوة الإسلام للالتقاء والتحاور بين الشعوب والحضارات .
٧ - تقـويم الدور النسبي للإسلام كديانة وثقافة في تحديد سمة ونموذج العلاقات الدولية ، وخاصة بين الدول الإسلامية والغرب .
٨ - محاولات فحص التساؤل حول سمات العلاقات الدولية الراهنة ووجهتها .
٩ - تقويم ظاهرة " الإحياء الإسلامي " ودلالاتها .
١٠ - تقويم احتمالات الصدام الحضاري بين الإسلام والغرب ، وكذلك احتمالات التعايش السلمي بينهما .
١١ - اقتراح نموذج للتفاعل الحضاري بين الإسلام والحضارات الأخرى .

إطار التحليل :

١ - التأصـيل المنهجـي لمـشكلة البحث ومبرراته والأهداف التي يسعى إلى تحقيقها.
٢ - التحلـيل الـنقدي للأطروحات والنظريات التي اهتمت بالتفاعل الحضاري وجذورهما التاريخية .
٣ - التحليل التاريخي للعلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى (مع التركيز على أثر الحضارة الإسلامية على هذه الحضارات) .
٤ - تحليل تطور ونمو فكرة الغرب في مقابل فكرة الشرق ، وأثر الإسلام تحديداً في قيام الحضارة الغربية .
٥ - تحليل أوجه التقارب بين الديانات السماوية كمدخل للتقارب الحضاري .
٦ - تحلـيل الأسـس التي يقوم عليها الحوار الحضاري من خلال نموذج يعتمد على تفعيل ما هو متاح من آليات ، وإبداع آليات جديدة .

قضايا منهجية في حوار الحضارات :

١ - يـتعارض مع فكرة الحوار شكلاً ومضموناً، التركيز على صورة العدو والأخذ بنظرية التآمر في إطار التفاعل بين الحضارات المختلفة .

٢ - ظهـور بعـض أشكال العنف، والذي يغذيه ويروج له بعض أصحاب المـصالح، مـن شـأنه أن يحول دون حدوث أي تقدُّم ملموس على طريق الحوار، خاصة إذا تأسس هذا العنف على رؤية إيديولوجية .

٣ - الـتجاهل وعـدم الاكتراث من قبل الغرب، الذي يصل أحياناً إلى حد الاسـتعلاء الحـضاري، من شأنه أن يزهق كل جهود التسامح الحضاري (بوصفه الركيزة الأساسية لحوار الحضارات) .

٤ - الفهم الخاطئ لقضية اختلاف الحضارات وتمايزها، واعتبارها عقبة في سـبيل التواصـل الحـضاري، علـى حين أنها كانت دائماً أساساً للتفاعل الحضاري، فالتباين يحقق التكامل والتلاقح لا الصراع .

٥ - أن يحـرص المتحاورون على أن تظل المتغيرات بين الحضارات في حدود القيم والثوابت الإلهية .

٦ - التسليم المشترك بالغيبات والتوفيق بين الماديات والروحانيات .

٧ - أن يسعى كل الأطراف - بإخلاص - للتوفيق بين المتناقضات .

٨ - وضع آليات وأرضية مشتركة لاستمرار الاتصال بين الجانبين الإسلامي والغربي دون انقطاع .

٩ - اقتناع أطراف الحوار بجدواه وأهميته .

مشكلات جوهرية في سبيل حوار الحضارات :

١ - انعـدام نقطة الاتصال بين أطراف الحوار (وخاصة الجانبين الإسلامي والغربي) بتأكيد كل طرف على تميزه، فحيث يركز الجانب الإسلامي على الإسلام بمعنى الشريعة وقيم الحوار والتسامح وقبول الآخر والتعاون ووحدة الجـنس البـشري .. إلـخ، علـى حـين يركـز الغرب على قيم الحرية والديمقـراطية والليبرالية .. إلخ. ويحاول الطرفان إثارة القضايا الخلافية، أكثر من البحث عن أرضية مشتركة بينهما .

٢ - المشكلة الثانية، مع من يتحاور المسلمون ؟ لقد أعلن كثير من المخططين الاستراتيجيين أن الإسلام هو العدو البديل بعد انتهاء الحرب الباردة بهزيمة الاتحاد السوفيتي، ومن ثم فنحن في أغلب الظن أمام مخطط يستهدف العالم الإسلامي، وإذا كان الأمر كذلك، فإن أي جهود تبذل على طريق الحوار سوف تبوء بالفشل .

٣ - والمشكلة الثالثة، أن جهود الحوار قد لا تثمر دون تحقيق مصالحة تاريخية عن أخطاء ارتكبها الغرب كالحروب الصليبية والاستعمار، وما يجري في فلسطين تحت سمع وبصر ودعم الولايات المتحدة وأوروبا .

٤ - شيوع فكرة المفاضلة بين المسلمين والغرب، والسعي المتبادل إلى تعداد الأخطاء. فمن الأهمية أن يركز الحوار على القضايا الكبرى حتى لا تترك الأمور نهباً لسوء الظن، أو التنابز بما لا يحب كل طرف أن يسمعه من الآخر. ويجدر بنا أن نشير أن الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان وسيادة القانون كلها قيم إنسانية (إسلامية وغربية) مشتركة يمكن أن تكون أساساً للتلاقي بين الطرفين .

٥ - الاستخفاف بقواعد القانون الدولي ومؤسسات المجتمع الدولي، والكيل بمكيالين في التعامل مع المشكلات الإقليمية، مما يزيد من الشعور بالظلم نظراً لعدم وجود حلول منصفة تقوم على مبادئ الحق .

٦ - الدفعة الكبيرة التي منحتها أوروبا وأمريكا لسيناريو صدام الحضارات مما أشعل موجات الكراهية والعنف ضد المسلمين (خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر) .

مراجع الفصل الأول

1 - Robertson, R. (1996), Globalization – Social Theory and Global Culture, Sage Publications, London.

2 - Abazaa, M. & Stauth, G. (1990), Occidental Reason, Orientalism, Islamic Fundamentalism: A Critique", In M. Albrow & E. King (Eds.), Globalization, Knowledge & Society, Sage, London.

٣ - وجيه كوثراني (١٩٩٧) ، أزمة نظام عالمي أم صدام حضارات ، المؤتمر الدولي حول صـــراع الحـــضارات أم حوار الثقافات ، منظمة تضامن الشعوب الأفريقية والأسيوية ، القاهرة ، ١٠-١٢ مارس ١٩٩٧ .

٤ - حازم الببلاوي (١٩٩٨) ، حوار أم صراع الحضارات ، مؤتمر العولمة والهوية الثقافية ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ١٢-١٦ أبريل ١٩٩٨.

5 - Hunter, S. (2002), The Future of Relations between Islam and the West, Greenwood, New York, (Chapter 2 مواضع متفرقة)

6 - Ibid.

7 - Lewis, B. (1989), Politics and War, in the Legacy of Islam. Ed. Joseph Schacht and C. E. Bosworth, Oxford University Press.

8 - Pipes, D. (1986), Fundamentalist Muslims between American and Russia, Foreign Affairs, 64, No. 5 (Summer), 948.

9 - Hunter, S. (2002), Op. Cit., (Chapter 2) مواضع متفرقة

10 - Ibid.

١١ - أرنـــولد توينبـــي (بدون تاريخ) مؤلف ، أمين محمود الشريف (مترجم) ، الحضارة في الميزان ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .

١٢ - المرجع السابق ، ص ١٩٠ .

١٣ - المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

١٤ - روجيه جارودي (١٩٨٦) مؤلف ، عادل العوا (مترجم) ، في سبيل الحوار بين الحضارات ، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس .

١٥ - وليد محمود عبد الناصر (٢٠٠٢) ، حوار الحضارات ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، الأهرام ، القاهرة ، ص ٥٦ .

١٦ - المرجع السابق ، ص ٦٦ .

١٧ - المرجع السابق ، ص ٥١ .

١٨ - المرجع السابق ، ص ٦٨ .

١٩ - عمرو موسى (الأمين العام للجامعة العربية) ، محاضرة ألقيت في مركز الدراسات الإسلامية ، جامعة أكسفورد ، لندن ، ٢٠٠١/١١/٩ .

٢٠ - زين العابدين بن علي (رئيس تونس) ، خطاب ألقاه أمام الندوة الدولية حول " حوار الحضارات " التي عقدت في قرطاج بتونس في ٢٠٠١/١١/١٢.

21 - **Prince Hassan Bin Talal of Jordon, Respecting the Sanctity of Life, the Earth Times, 5/10/2001.**

٢٢ - جاك شيراك ، من خطاب افتتاح المؤتمر العام الحادي والثلاثين لليونسكو ، باريس ، ٢٠٠١/١٠/١٥ .

٢٣ - الأمير تشارلز ، محاضرة ألقيت في جامعة أكسفورد بلندن ، ١٩٩٣/١٠/٢٧ .

٢٤ - روبين كوك (وزير خارجية بريطانيا الأسبق) ، محاضرة ألقيت في مركز الجالية الإسماعيلية في لندن ، ١٩٩٨/١٠/٨ .

٢٥ - جورج كاري (كبير أساقفة كانتربري) ، عن محاضرتين قام بإلقائهما في جامعة الأزهر ، ومشيخة الأزهر خلال زيارته للقاهرة ، نوفمبر ١٩٩٩ .

٢٦ - قداسة البابا يوحنا بولس الثاني ، رسالة بمناسبة الاحتفال بيوم السلام العالمي، أول يناير سنة ٢٠٠١ .

الفصل الثاني

أطروحات ونظريات التفاعل الحضاري

نعــرض في الفصل الراهن لعديد من الآراء والنظريات المثيرة للجدل فيما يمكــن تسميته " التفاعل الحضاري " ، وذلك الذي استأثر بالاهتمام مع انعطافة القرن العشرين ، استجابة لما تثيره الأحداث السياسية والاقتصادية في العالم من مــشكلات وتساؤلات ، عجزت النماذج والنظريات التقليدية عن إيجاد حلول لها أو الإجابــة عنها . فما تمخضت عنه الأحداث الجسام التي صاحبت إفول القرن العــشرين آثار الحيرة وعصف بكثير من التفسيرات التي لاقت قبولاً واستقراراً نــسبياً فــيما مــضى . وقــد خلــص توماس كون Khun, 1992 في كتابه " بنــية الثورات العلمية "[1] إلى فرضية مؤداها أن النماذج الأساسية القديمة قد سقطت ، وأننا الآن نمر عبر مرحلة أزمة النماذج الأساسية .

وقــد وصف أندريه وانزين Danzin, 1997 الموقف الفكري في العالم مــن خــلال مقال تحت عنوان " فلسفة عدم الاستقرار "[2] بقوله أن المثير في الأزمة اليوم هو الصعوبة التي نعانيها في فهمها ، أي عدم وضوحها أو سهولة إدراكهــا . والمشكلة الأساسية التي تعاني منها كثير من النظريات والآراء في مجال التفاعل الحضاري، ذلك التداخل والتشابك بين مفهومي الحضارة والثقافة، مما يفضي في كثير من الأحيان إلى الالتباس الفكري . فبعض الكتابات يجعلهما متــرادفين ، والبعض الآخر يقيم بينهما تمايزاً كهذا التمايز التقليدي بين الروح والمادة ، والبعض الثالث يكاد يوحد بين الثقافة والدين . وإذا كانت الثقافة تمثل الــرؤية العامــة للعــالم أو المعــرفة بالمعنــى الشامل ، أي الامتلاك النظري والوجدانـــي والروحـــي العلمـــي والتقنـــي لحقائق الواقع الطبيعي والاقتصادي والاجتماعي والإنساني عامة ، فإنه ليس ثمة فروق يمكن ملاحظتها بين تعريف الــثقافة وتعــريف الحــضارة . وفيما يلي نقدم عرضاً للآراء والنظريات حول التفاعل الحضاري :

١ - صامويل هنتنجتون Huntington, 1993, 1996 وأطروحة صدام الحضارات : (٣)، (٤)، (٥)، (٦)

تُعدّ رؤية هنتنجتون عن صدام الحضارات أحدث المصطلحات المثيرة للجدل بما انطوى عليه من نظرية تفسر - من وجهة نظره- التفاعل الحضاري. وكان هنتنجتون قد طرح رؤيته عن " صدام الحضارات " في مقالة له نشرت سنة ١٩٩٣ في مجلة Foreign Affairs التي يصدرها مجلس العلاقات الخارجية في نيويورك . وكانت المقالة نتاجاً لمشروع معهد أولين للدراسات الاستراتيجية في جامعة هارفارد (يرأسه هنتنجتون) حول بيئة الأمن المتغيرة والمصالح الوطنية الأمريكية . وقد حرص هنتنجتون أن يظهر مقالة في صيغة استفهامية : هل هو صدام بين الحضارات ؟ وكان الهدف إثارة النقاش حول الموضوع ، وذلك ما حدث بالفعل حيث توالت الردود عليه بشكل لم تعهده مجلة Foreign Affairs من قبل . وأسهم النقاش في أن يبلور هنتنجتون مقاله في كتاب موسع صدر سنة ١٩٩٦ تحت عنوان " صدام الحضارات : إعادة تشكيل النظام العالمي " . ووفقاً لرؤية هنتنجتون ، فإن الصراع في العالم الجديد ، لن يكون إيديولوجياً أو اقتصادياً ، بل سيكون الانقسام الكبير بين البشر ، والمصدر الغالب للصراع ثقافياً ، وكان هنتنجتون قد وضع تسلسلاً لمراحل الصراع في التاريخ ، فكان قديماً بين الملوك والأباطرة ، ثم بين الشعوب ، ويقصد الدول القومية ، ثم بين الإيديولوجيات . ولكن بعد انتهاء الحرب الباردة سينشب الصراع بين الحضارات مع حلول النظام العالمي الجديد ، والحضارة عنده هي الكيان الثقافي الأوسع الذي يضم الجماعات الثقافية مثل الجماعات العرقية والدينية والأمم ، ويؤكد وبشكل صارم على أن الدين محوري في العالم الحديث، وربما كان القوة المركزية التي تحرك البشر وتحشدهم . والحضارات كما يقول، هي القبائل الإنسانية الكبرى . وصدام الحضارات صراع قبائلي على نطاق عالمي . والفروق الثقافية هي التي تمثل الأساس والمركز في التصنيف والتمييز بين البشر اليوم . وتتحدد الهوية الثقافية عنده بالتضاد مع الآخرين ، وفي الحروب تترسخ الهوية ، ويتحقق التماسك الاجتماعي بدلاً من الانقسام الذي يتطلب زوال وجود عدو مشترك . هكذا يؤكد هنتنجتون على حتمية الحرب

لتكـــريس حـــضارة الغـــرب، وهو يزعم أيضاً أن الحضارة العالمية تتمثل في إيديولوجية الغرب في مواجهته للثقافات أو الحضارات غير الغربية ، والتي هي كانـــت من قبل – وباعتراف الباحثين المنصفين – مصدراً للحضارة الغربية .
وإذا كـــان الكـــتاب الصادر سنة ١٩٩٦ لم يختصر الصدام بين الحضارات في الـــصدام بين الحضارة الغربية والإسلام ، ذلك أن فرضية الكتاب تتمثل في أن تشكيل النظام العالمي سيحكمه الصدام بين سبع أو ثماني حضارات (إذا أضيفت الأفريقية). حيث قسم هنتنجتون العالم إلى سبع أو ثماني حضارات كبيرة تشمل: الغربية والكونفوشيوسية واليابانية والإسلامية والهندية ، والسلافية الأرثوذكسية، والأمـــريكية اللاتينـــية ، وربمـــا الأفريقية . ويرسم هنتنجتون خط تقسيم بين الحـــضارات الغربية والحضارات الأخرى ، وهو خط الحدود الشرقية للمسيحية الغـــربية ، ويمتد هذا الخط عبر ما يشكل حالياً الحدود بين فنلندا وروسيا ودول البلطيق ، ويمر عبر بيلاروسيا وأوكرانيا فاصلاً غرب أوكرانيا الأكثر كاثوليكية عن شرق أوكرانيا متأرجحاً للغرب ليفصل ترانسلفانيا عن بقية رومانيا ثم يمر بامـــتداد الخط الذي يفصل حالياً كرواتيا وسلوفينيا حيث الأغلبية كاثوليكية عن بقية يوجوسلافيا (الأرثوذكسية) ، وكما يقول هنتنجتون فإن الشعوب القاطنة إلى الـــشمال والغـــرب مـــن هذا الخط بروتستانت أو كاثوليك ، يتقاسمون تجارب مـــشتركة للـــتاريخ الأوروبي : الإقطاع ، والنهضة ، والإصلاح ، والتنوير ، والثورة الصناعية . ولا تتضمن الحضارة الغربية عند هنتنجتون اليونان (رغم ميراثها الحضاري ودورها في الحضارة الغربية) وشرق أوروبا وروسيا (لأنها مـــسيحية أرثوذكـــسية) وهكذا يبدو الدين أساساً واضحاً للتقسيم . وبمعنى أكثر تحديداً فإن الغرب المسيحي عند هنتنجتون هو أمريكا وأوروبا الغربية المسيحية الكاثويكـــية . ويعـــتمد هنتنجتون على مقولة المستشرق برنارد لويس : لمدة ما يقـــرب من ألف سنة ، كانت أوروبا تحت تهديد مستمر من الإسلام . ثم يصل إلـــى نتـــيجة مـــؤداها أن الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي جعلت بقاء الغرب موضـــع شـــك ، ويقـــول : إن المشكلة المهمة بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإســـلامية بـــل الإسلام ، فهو حضارة مختلفة لشعب مقتنع بتفوق ثقافته ، وفي المقابـــل – من وجهة نظره – فإن المشكلة المهمة للإسلام هي الغرب كحضارة

مخـتلفة ، شـعبها مقتنع بعالمية ثقافته ، ويعتقد بأن قوته المتفوقة تفرض عليه التـزاماً بنـشر هـذه الثقافة في العالم ، وهاتان المشكلتان تغذيان الصراع بين الإسـلام والغرب . وعلى الرغم من الجدل الذي أثير حول أطروحة هنتنجتون عن " صدام الحضارات " ، فإن أحداث سبتمبر ٢٠٠١ جعلت منه نموذجاً نظرياً لتفـسير مـا حـدث ، وراح هنتنجتون في مقابلات ومقالات وندوات ليختزل " صـدام الحـضارات " من صدام بين الغرب وبقية العالم إلى صدام بين الغرب والإسلام، وقدم على استحياء للغرب عوداً احتياطياً هو الحضارة الكونفشيوسية. ويعـتقد هنتنجـتون أن المسلمين يستهلكون جزءاً كبيراً من طاقاتهم في حروب سـواء أكانت فيما بينهم أو مع الآخرين . ويرجع ذلك إلى عدة عوامل : أولها الصحوة الإسلامية كرد على الحداثة والعولمة وعلى الحكومات القمعية ، وثانيها التذمر ضد الغرب بسبب السياسات الغربية ومنها الهجوم على العراق والعلاقات الأمريكية الإسرائيلية ومساندة النظم القمعية ، وثالثها الإنقسامات القبلية والدينية والعرقية والسياسية والثقافية في العالم الإسلامي .

ومن الواضح أن أفكار هنتنجتون تمثل انعكاساً شخصياً لطبيعة القوة في عالم اليوم ، وهو بذلك يقدم منظوراً استراتيجياً أمريكياً لما يمكن أن تكون عليه العلاقات الدولية الراهنة . ورؤية هنتنجتون تنطلق من مقدمات خاطئة ، وربما غيـر أميـنة ، ذلك أن ما أورده من حجج ينبغي أن يوضع في سياقه التاريخي خاصـة وأن رؤيته قد ظهرت بعد نهاية الحرب الباردة بوقت قصير عندما كان مستقبل التحالف الغربي محفوفاً بالمخاطر ، لاسيما بعد تدعيم أوروبا الموحدة ، ومن ثم كان سعي الولايات المتحدة إلى إعادة صياغة العلاقات الدولية على نحو يحـافظ على التحالف الغربي تحت قيادتها . إنها محاولة فكرية أمريكية لوضع أوروبـا والولايات المتحدة في خندق واحد أمام آخر يمثل – من وجهة نظره – تهديداً للحضارة الكونية .

ويـبدو ذلـك واضحاً في استبعاده لفقراء أمريكا اللاتينية رغم الهيمنة الثقافـية الأوروبية ، واليونان الأقل قوة رغم ميراثها الحضاري لأوروبا . إن قلـق هنتنجتون على مستقبل الغرب وقدرته على البقاء كقوة مهيمنة عالمياً في القرن الحادي والعشرين جعله يقدم طرحاً ضعيفاً . وعلى الرغم من عدم إنكار

البعد الثقافي في السياسة الدولية ، إلا أن المستقبل لن تحدده نزاعات ثقافية مفترضة ، وإنما ستحدده دوافع واعتبارات منبثقة عن مصالح الدول السياسية والاقتصادية . إن المتعمق في تاريخ الصراعات عبر التاريخ البشري الحضاري يلاحظ أن الثقافة احتلت دائماً المكان الأخير كعامل صدامي بين الشعوب ، بل أحياناً نجد العكس ، وهو أنه العامل الثقافي قد ينقلب إلى عامل توفيقي من حدة الصراع السياسي والاقتصادي والعسكري . والحقيقة أن معظم إمبراطوريات العالم القديم – فيما عدا إمبراطورية الإسكندر – لم تهتم بالثقافة كعامل من عوامل الحرب ، ولم تعتبر الغزو الثقافي أحد أهدافها ، ولم تحارب بسبب الاختلاف الحضاري إنما حاربت لأهداف سياسية اقتصادية فقط . ويعتبر الإسكندر الأكبر أول من جعل الغزو الثقافي من بين أهداف الغزو العسكري ، فقد استطاع أن ينشر الثقافة الهللينستية بالقوة في العالم القديم (٧) . والواقع أن رؤية هنتنجتون تكرس المفاهيم الاستشراقية القديمة ، والتي تساهم – عن قصد – في تعميق موجة الإسلاموفوبيا التي تجتاح بعض الأوساط الفكرية في الغرب. ولست أعتقد في أنها تنم عن جهل بالإسلام بقدر اعتقادي بأنها صيغة استعمارية معاصرة ومقصودة تهدف إلى إشاعة الرعب من الإسلام في الغرب وتقديمه في صورة الدين المهدد للمسيحية واليهودية ، وتقديم حضارته في صورة الحضارة المهددة للحضارة الغربية .

وإذا كان هنتنجتون يعتبر أن المستوى الحضاري هو وحدة التحليل الأساسية ، ويؤكد على أن الصراع بين الحضارات هو الذي سوف يسيطر على السياسة العالمية ، فإنه يعتقد أن ثمة مجموعة من الأسباب هي التي ستقود العالم لهذا الصراع :

(١) تعميق الفروق الحضارية بسبب التاريخ واللغة والدين والتقاليد الثقافية ، والتساؤل ألم تكن موجودة من قبل ، ولعبت هذه التعددية دوراً في التكامل والالتقاء الحضاري ؟

(٢) العالم يزداد صغراً بسبب ثورة الاتصالات ، الأمر الذي يؤدي إلى زيادة التفاعل الحضاري ، ومن ثم الوعي بجوانب التشابه والاختلاف بين الحضارات .. والتساؤل : أيكون هذا سبباً للصراع أم الحوار والالتقاء ؟

(٣) عمليات التحديث الاقتصادي والتحول الاجتماعي في كل أنحاء العالم تؤدي إلـــى تغــريب الناس عن الذوات المحلية المتوارثة ، وإلى إضعاف الدولة القومـــية كمـــصدر للذاتـــية ، مما جعل الدين يقفز لكي يسد هذه الفجوة . والتـــساؤل : لمـــاذا قفـــز هذا التفسير مؤخراً على الرغم من رفضه في الماضــــي ، فقــد كان الدين ولازال عنصراً مهماً في الخطاب الإسلامي للعالم ، وليس الدولة القومية ، وسبق أن أُستبعد في غمار المدّ العلماني .

(٤) نمو الوعي بالحضارة يزداد بفعل الدور الذي يؤديه الغرب ، وتلك الجذور الغـــربية الضاربة في الحضارات غير الغربية . ولكن هذا لم يمنع – في تقديـــرنا – إلى تحول النخبة في بلدان كثيرة عن التمثل بالغرب وعودتها إلى جذورها الذاتية .

(٥) الـــتوافق الاقتصادي الإقليمي يتزايد بإطراد ، ولكنه ربما لا ينجح إلا إذا كان منطلقاً من حضارة مشتركة ، ويدلل على ذلك بحالة اليابان التي تجد صـــعوبة في إنشاء تكامل اقتصادي إقليمي لأنها تعتبر مجتمعاً ذا حضارة فـــريدة في نوعها ، أما الثقافة الصينية المشتركة فبمقدورها أن تنشئ كتلة من هذا القبيل تتخذ من الصين مركزاً لها . ولكن هذا الطرح مردود عليه بفلـــسفة " العـــولمة " التـــي تـــؤكد سيادة الشركات العابرة للقارات والتي ستفضي في النهاية إلى تحطيم قدرات التجمعات الإقليمية والدولة القومية .

(٦) الـــسمات والفروق الثقافية أقل عرضة للتغير . وهذا صحيح جزئياً ويؤكد ذلـــك أن كثيـــراً من هذه السمات الثقافية استطاع أن يذوب أو يتلاشى في خضم التغيرات السياسية والاقتصادية .

ومـــن مناطق الضعف في البنية الفكرية لنظرية هنتنجتون ما يقره من وجود رؤية دينية لكل حضارة . إذن فما هو البعد الديني للحضارة الغربية ؟ . يعلـــن هنتنجـــتون أن قيم الحضارة الغربية هي الديمقراطية والاقتصاد الحر ، وفصل الدين عن الدولة والليبرالية والدستورية وحقوق الإنسان . وفي الواقع ، فـــإن ما يود أن يقوله هنتنجتون هو أن الأساس الديني الثابت للحضارة الغربية هـــو فـــصل الـــدين عن الدولة (وهو يُظهر عدم مقدرته على التصنيف الذكي والترتيب الدال) . وثمة ثنائية حادة واستقطاب متطرف في عالم هنتنجتون بين

الأنـــا الغربـــي (الحديث العلماني) من جهة والآخر (غير الغربي وغير الحديث وغير العلماني) من جهة أخرى ، وهذا في واقع الأمر صراع الحضارات الذي يفترضـــه ويدعو إليه (٨) . ومما سبق يمكن أن نخلص إلى أن نظرية هنتنجتون قد انطلقت من أساس نظري غير دقيق بشأن الصراع بين الحضارات والثقافات حـــيث يـــسعى تحليل هنتنجتون إلى إثبات وجود صدام حضاري بين ما يسميه الغـــرب والحضارات غير الغربية ، وبالذات الإسلام والكونفوشيوسية ، ويميل هذا التحليل إلى الفكر السياسي الاستراتيجي الذي يسعى إلى ابتداع خصم جديد (بـــدلاً مـــن الاتحـــاد الـــسوفيتي) للحفاظ على الدور القيادي للولايات المتحدة الأمـــريكية . وفي هذا السياق يتجه تحليل هنتنجتون نحو اختلاق فكرة الصراع حول الانتماء الثقافي باعتبار أن الثقافة تعتبر الوحدة الأساسية الباقية التي تصلح كأســـاس للـــصراع ، استناداً إلى أن كافة الأفكار والمفاهيم الأخرى مثل الدولة القومية والإمبراطورية والإيديولوجيا لم تُعدّ صالحة كمصادر للصراع الدولي ، مما دفعه إلى العودة إلى فكرة الثقافة كمصدر الصراع . وهو هنا لا يلجأ للثقافة لأنه رآها في الواقع ، وانطلق منها ، وإنما لأنه يحتاجها ، ولو كانت هناك فكرة أخرى مقبولة تصلح لتكون أساساً لما يريد الوصول إليه لتبناها .

- ويذهب هنتنجتون إلى أن الدول سوف تحارب من أجل الدفاع عن الروابط والـــولاءات الحـــضارية ، بينما أصبح من الواضح أن المرحلة الراهنة من تطور النظام الدولي أصبحت محكومة إلى حد كبير بالصراع حول المصالح الاقتـــصادية. وعلى الرغم من أن الاختلافات الثقافية والحضارية والعرقية تـــستخدم وتوظف كثيراً في إطار الصراعات الاقتصادية ، إلا أنه يظل من الـــثابت أن الصراع الاقتصادي هو المتغير المستقل في هذا الصراع وليس المتغيـــر الـــتابع ، فالـــدول تتصارع من أجل الحصول على الحصص في السوق كما تركز على التنافس بهدف توفير الوظائف والتخلص من الفقر .
- وقـــد أغفـــل هنتنجـــتون دور الدولـــة في عملية الصراع الدولي ، لصالح التكوينات الحضارية الكبرى ، بما يعني أن جميع الدول المنتمية إلى تشكيل حـــضاري كبيـــر سوف تسير تلقائياً نحو الصدام مع التشكيلات الأخرى . ويغفـــل هـــذا الطـــرح أن للدول هويات سياسية ووطنية ثابتة نسبياً ، ولها

مصالح اقتصادية تدافع عنها ، وقد يفرض هذا الأمران على الدول سلوكاً قد يختلف عما يفرضه انتماؤها الحضاري . (٩) ، (١٠) ، (١١)

ومــع وضوح أهداف هنتنجتون السياسية والاستراتيجية ، فإن نظريته الراهنة تكشف عن عدم إيمان بالتعددية الثقافية ولا بأي هوية تستقل عن الهوية الغربية .. إنه لا يؤمن بحق الاختلاف الثقافي ، ويؤكد على التباعد بين ما أسماه الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية إلى حد التصادم والصراع .

٢ – فرانسيس فوكوياما Fukuyama,1992 وأطروحة نهاية التاريخ:(١٢)، (١٣)

فرانــسيس فوكوياما ، محلل سياسي أمريكي ، من أصل ياباني ، عمل فــي معهــد راندكوربوريــشن للــبحوث الاستراتيجية ، ومديراً لقسم التخطيط السياسي بوزارة الخارجية الأمريكية ، ولم يعرف على مستوى المثقفين إلا بعد أن نُشرت له مقالة في صيف سنة ١٩٨٩ بمجلة The International Interest الأمــريكية تحــت عنوان " نهاية التاريخ " والتي تطورت فيما بعد لتصبح كتاباً تحت عنوان " نهاية التاريخ والإنسان الأخير " . ويفترض فوكوياما أن التغيرات التي يشهدها العالم لا تدل على نهاية الحرب الباردة فحسب ، بل تدل كذلك على نهاية التاريخ " بوصفه تاريخاً ، وتنبئ بالوصول إلى نقطة النهاية لخط التطور الإيديولوجــي للبشرية ، ونقطة تعميم وانتشار الليبرالية الغربية بوصفها الشكل النهائــي للحكم الإنساني مؤكداً على انهيار آية بدائل منهجية قادرة على الحلول محــل الليبرالية الغربية . ويعترف فوكوياما أن فكرة نهاية التاريخ ليست فكرة جديــدة ، فكــارل ماركس كان قد نظر إلى الشيوعية باعتبارها نهاية التاريخ ، وأعلــن هيجل ، قبل ماركس ، نهاية التاريخ في سنة ١٨٠٦ إثر معركة إيينا ، معتبــراً أن انتــصار جــيوش نابلــيون على الملكية البروسية الرجعية قد مثل انتصاراً لمُثل وقيم الثورة الفرنسية ، وإيذاناً بالتعميم الوشيك للدولة القائمة على مبادئ الحرية والمساواة . لقد كان في اعتقاد كل من هيجل وماركس أن تطور المجــتمعات البشرية ليس إلى ما لا نهاية ، بل إنه سيتوقف حين تصل البشرية إلــى شــكل مــن أشكال المجتمع يشبع احتياجاتها الأساسية والرئيسية . وهكذا افتــرض الاثنان أن " للتاريخ نهاية " : هي عند هيجل الدولة الليبرالية ، وعند مــاركس المجــتمع الشيوعي . وليس معنى هذا أن تنتهي الدورة الطبيعية من

الـــولادة والحياة والموت ، وأن الأحداث المهمة سيتوقف وقوعها ، وإنما يعني هــذا أنـــه لـــن يكـــون ثمة مجال لمزيد من التقدم في تطور المبادئ والأنظمة السياسية ، وذلك لأن كافة المسائل الكبيرة حقاً ستكون قد حُلت . ومن ثم يتبلور مــصطلح " نهاية التاريخ " عند فوكوياما (الذي لم يأت بجديد في تاريخ الفكر) وهـــو يعتبـــر عـــن انتصار الليبرالية الديمقراطية الغربية وسيادتها على العالم ويعتبـــر أن هذا الانتصار يرجع إلى الانتشار الواسع لقيم الغرب الاجتماعية ، وأن مـــصدر الحركية الاجتماعية للحضارة الغربية هو قابليتها لتطبيق نجاحاتها الاجتماعية والتكنولوجية على جميع البشر ، وهكذا يحاول فوكوياما أن يثبت أن الليبرالية الديمقراطية الغربية تمثل مستقبل البشرية ونهاية الفكر البشري .

إنها – من وجهة نظره – تمثل نهاية التاريخ ونقطة الرشد الكامل للإنسان، حـــيث يصبح كل شيء واضحاً وتتضح الحلول النهائية لجميع المشكلات ، ويتم التحكم في كل شيء ، ويتم تفسير كل شيء . وما من شك في أن إشكالية نهاية التاريخ كامنة في الفكر الديني والفلسفي الغربي .

وكمـــا سبق أن أوضحنا فإن فوكوياما استمد الأساس الفلسفي لنظريته من فكر قديم : هيجل وماركس . فقد اعتقد هيجل في القوة المستقلة للأفكار وبقدرة الوعـــي على تشكيل العالم المادي . وعليه فإن القول بأن التاريخ انتهى في سنة ١٨٠٦ يعنـــي أنـــه قـــد انتهـــى علـــى مستوى الوعي ، بحيث توقف التطور الإيديولوجـــي للبـــشرية عـــند المثل العليا للثورة الفرنسية . وهو ما ذهب إليه ماركس بفكرة " الحتمية الاقتصادية " فمن وجهة نظره يقف عند لحظة الوصول إلـــى اليوتوبيا الماركسية . ولذا فإن فوكوياما لم يضف جديداً عندما أورد فكرة نهاية التاريخ بالليبرالية الديمقراطية الغربية . وعلى الرغم من أن فوكوياما يرى أن الليبـــرالية الغـــربية قـــد واجهت تحديين إيديولوجيين كبيرين هما : الفاشية والـــشيوعية ، إلا أنه لم ينكر بروز تحديين آخرين أمام الليبرالية هما : التحدي الدينـــي والـــتحدي القومـــي . ولم يحصر فوكوياما التحدي الديني في الصحوة الإســـلامية فقط ، بل المسيحية واليهودية كذلك ، تشكل نوعاً من الاحتجاج على الفـــراغ الروحي في المجتمعات الاستهلاكية ، إلا أنه يرى أن الليبرالية الحديثة كانـــت تاريخـــياً محصلة ضعف المجتمعات ذات الأسس الدينية . أما العواطف

القومية فهي تظل – في ظنه – شديدة في العالم الثالث وحده ، أما في الغرب فلا تشكل خطراً على الليبرالية سوى في أجزاء معزولة من أوروبا ، كأيرلندا الشمالية ، معتبراً أن القومية لا تشكل تناقضاً لا حل له في إطار الليبرالية ، وهي إن شكلت مصدراً للنزاع في المجتمعات الليبرالية ، إلا أن هذا النزاع لا ينشأ عن الليبرالية نفسها بقدر ما ينشأ عند عدم اكتمال الليبرالية .

إن العالم الذي وصل فيه خط التطور الإيديولوجي للبشرية إلى نقطة النهاية بانتصار الليبرالية الغربية ، سيكون عالماً خالياً من الإيديولوجيا ، وسينقسم – كما يرى فوكوياما – إلى كتلتين رئيسيتين : كتلة بلدان العالم الثالث التي ستظل غارقة في قاع التاريخ وستشكل ساحة لنزاعات المستقبل ، وكتلة البلدان الغربية التي وصلت إلى نهاية التاريخ ، وستكون أكثر انشغالاً بالاقتصاد مما هي عليه بالسياسة والاستراتيجية . وليس من المستبعد أن تبرز في المستقبل نزاعات بين الدول التي لا تزال تقبع في التاريخ والدول التي وصلت إلى نهايته (١٤) .

وفي مقاله المنشور في مجلة Policy (أغسطس / يونيو ٢٠٠٢) ، لا يتردد فوكوياما في الإفصاح عن حقيقة الصراع المقبل مؤكداً اتفاقه مع هنتنجتون حول مقولته بأن الصراع القادم يمكن أن يتحول إلى " صدام حضارات " أو صراع ثقافات ، بل يذهب إلى الاختلاف الصريح مع ما أعلنه الساسة (أمثال بوش وبلير .. مجرد إعلان) الذين يرددون من منطلق مواقعهم السياسية أن الصراع الحالي ليس صراعاً بين الغرب والإسلام بل بين الغرب والإرهاب ، وهكذا يخلص فوكوياما إلى أن ذلك الصراع ، على عكس ما يقول به الساسة ، صراع حول " قضايا ثقافية " . ويرى فوكوياما أن الإسلام هو الثقافة العالمية الكبرى الوحيدة التي يمكن أن يكون لها مشكلات أساسية مع العصرنة . وهو يحاول الإشارة إلى أن الإسلام دين يقاوم عمليات التحديث والعصرنة ويرفضها . ومن هنا يبرر فوكوياما الصدام بين الحضارة الغربية العصرية والحضارة الإسلامية المتخلفة غير القادرة على التعايش مع العصرنة والتقدم . وهكذا تبدو أطروحة " نهاية التاريخ " ضعيفة في أسانيدها التاريخية ، فلم ينتهي التاريخ سنة ١٨٠٦ كما ادعي هيجل ، ولم تستقر الماركسية كثيراً

وتنتهي بها الإيديولوجيات ، فما يثير الدهشة أن يستمد فوكوياما فلسفته من فلسفات أخفقت تاريخياً . وهل انتهت التحديات التي تواجه الغرب ولم يبق منها سوى الإسلام والنزعة القومية ؟ أليس من الممكن أن يتشكل في الغرب شكل من أشكال الفاشية الجديدة التي تعمق النزعة الفردية . وإذا كان التحدي القومي في الغرب قد ضعف فإن ما يبدو الآن من نزعات محلية ومطالبات بالاستقلال الذاتي تنذر بعودة الإقليمية من جديد .

وإذا كان فوكوياما لم يستبعد مؤخراً حدوث نزاع بين كتلة البلدان الغربية التي وصلت إلى نهاية التاريخ وبين دول العالم الثالث التي لازالت غارقة في قاع التاريخ ، فمن يضمن ألا يؤدي تفاقم مشكلات دول العالم الثالث إلى جر الدول الغربية إلى هذه المشكلات في ظل المنظومة الاقتصادية والإيكولوجية الكونية . ثم ما هذا الادعاء بأن المسلمين يقاومون عمليات التحديث والعصرنة ، إنها ليست جهل بالإسلام ، وبمنجزات الإسلام في تاريخ الحضارة الإنسانية ، ولا بالفضل الإسلامي على الحضارة الغربية ذاتها ، إنها سياسة مقصودة تهدف إلى إشاعة الرعب من الإسلام وتصويره على أنه يهدد الحضارة الغربية ، ومن ثم يمثل العدو الذي ينبغي الاستعداد له ومحاربته .

إن أطروحة " نهاية التاريخ " التي تبشر بنهاية الإيديولوجيات ، ما هي في الحقيقة سوى مجرد دعوى إيديولوجية، ففوكوياما ، بتأكيده الليبرالية الغربية، يجعل من هذه الليبرالية إيديولوجية تمتلك الحقيقة المطلقة ، ويتجاهل حقيقة أن الإيديولوجيات لا تختفي في الواقع ، وأن إيديولوجيات أخرى جديدة ، أو تدعي كونها كذلك ، تحل محل إيديولوجيات الماضي . والدرس الأهم الذي ينبغي استخلاصه من التغيرات التي عصفت بالعالم في السنوات الأخيرة (والتي لم يعتد بها فوكوياما في تحليله نهاية التاريخ) هو أن التاريخ لا يسير على خط مستقيم ، يبدأ من نقطة وينتهي عند نقطة ، وفوكوياما إذ يتبنى هذا التصور الخطي للتاريخ ، يعتبر أن آفاق التطور الإنساني قد انسدت ، فاستمرار مشروع حضاري (الليبرالية الأمريكية) ما يقرب من القرنين – وهي فترة قصيرة نسبياً في عمر الحضارة الإنسانية – لا يعني أبداً أن الأفق قد انسد فعلاً في وجه طموح الإنسان إلى التغيير .[١٥]

٣ - ليون هادار Hadar, 1993 وأطروحة أي خطر أخضر هذا ؟ : (١١)

تعـتمد رؤيــة هــادار - في المقام الأول - على التقليل من قدرة الإسلام والمـسلمين ، الذي لا يمثل أي تهديد للغرب والولايات المتحدة الأمريكية . ولا تخل هذه الرؤية من استخفاف بالندوات التي تنصح الإدارة الأمريكية بأن تستعد لمــواجهة خطــر التهديد الإسلامي ، بعد زوال الخطر الشيوعي التقليدي ، تلك الـنداءات التي طرحت نفسها بإلحاح في آراء بعض الساسة (مثل نيكسون) أو المخططــين الاستراتيجيين (مثل هنتنجتون) . ومصطلح التهديد الأخضر يأتي امــتداداً لسلــسلة الــرموز التي يضعها المفكرون الغربيون على غرار التهديد الأحمــر (المقــصود به الشيوعية) باعتبار أن هذه الأخطار تهدد القيم الغربية والليبــرالية الديمقــراطية الأمريكية . ويذهب هادار إلى أن الحديث عن خطر إســلامي ، هو محاولة خبيثة لتوريط الولايات المتحدة في حرب باردة جديدة . فالإســلام - مــن وجهــة نظره - لا يمثل كياناً متجانساً يمكن أن يمثل تهديداً للغــرب . ويــرى هادار أن هذه السياسات تعيد إلى الذهن الطريقة التي كانت تمارســها بلدان العالم الثالث في فترة الحرب الباردة لاستغلال الولايات المتحدة وتوظيف توجهها من الخطر الأحمر . ويذهب هادار إلى أن " التهديد الإسلامي " لــيس حقــيقة ولا يعبر عن عداء للإسلام ، بقدر ما هو طرح تتبناه عناصر غربية وغير غربية بهدف إثارة صراع بين الغرب والإسلام لتحقيق مصالح هذه العناصــر ، ويرى أن الصحوة الإسلامية هي بمثابة رد فعل لحالة الاضطراب والقلــق التــي ترتبت على استيراد الحداثة ، فضلاً على كونها تحدي للأنظمة القمعــية والفاسدة . وخلاصة القول فإن هادار يعتقد أن الإسلام لا يشكل تهديداً من أي لون للغرب أو الولايات المتحدة الأمريكية (بصفة خاصة) ، وإذا سمحت واشــنطن لهــذه الفرضية بتوجيه سياساتها الخارجية فستلقي بنفسها إلى معركة طــويلة ومكلفة للغاية ضد ظواهر إقليمية مختلفة . إنها - من وجهة نظر هادار - فكــرة العــدو الذي لابد منه لدرجة رسم صورة مبالغة ، بل إن الإسلام هو المهــدد وفــي موقــف الدفاع عن النفس ضد أعدائه المتطرفين ، ففي البوسنة وكــوزوفا نجد أن المسلمين يُذبحون على يد الصرب الذين تربطهم علاقة قوية بالكنيــسة الأرثوذكــسية الشرقية في آسيا الوسطى . كما أن الحرس الشيوعي

القـــديم يقود بمساندة القوميين الروس حملة دموية ضد المسلمين أدت إلى تشريد عـــدد كبير من طاجيكستان وأفغانستان . وفي الهند تحدث جرائم اضطهاد ضد المـــسلمين علـــى يـــد الأحزاب المعادية للإسلام ، ويضيف هادار ما تلجأ إليه إسرائيل من محاولات لتصفية الحركة الوطنية الفلسطينية . وكذلك العنصريون في فرنسا والنازيون الجدد في ألمانيا وطردهم للآلاف من المهاجرين المسلمين بأســـاليب بالغـــة القـــسوة والعـــنف . وهكذا تتحدد رؤية هادار في التهوين من القـــدرات الإســـلامية والنظر إلى " صراع الحضارات " باعتباره غطاءً لتحقيق المصالح الاقتصادية في المقام الأول .

٤ – بنيامين باربر Barber, 1995 وأطروحة الجهاد ضد السوق الكونية: (١٧)

على غرار ما طرحه فوكوياما مستنداً إلى رؤية كل من هيجل وماركس عـــن نهاية التاريخ – يأتي تصوير باربر هو الأقرب لروح الفكرة الماركسية ، علـــى الـــرغم من أن تشبيهاته أكثر حيوية وإثارة ، فهو يعرف السوق الكونية MC World بأنها ذلك المستقبل مجسداً في تلك الصورة المفعمة بالحركة لقوى اقتصادية، وتكنولوجية، وإيكولوجية مندفعة تطلب التكامل والتناغم وتغرق وعي البـــشر فـــي كل مكان في طوفان الموسيقى السريعة ، والكمبيوترات والوجبات السريعة ، دافعة الأمم بإطراد نحو حديقة ملاهي عالمية واحدة متجانسة التكوين. ويذهب باربر – على غرار ماركس – إلى أن السوق الكونية ستؤدي إلى تفتيت الدولـــة القومـــية ، فالعولمة سوف تخلق مصادر جديدة للقوة الاقتصادية وثقافة كونية ، مجردة بذلك الدولة القومية من مبررات وجودها الاقتصادية والسياسية . ويعلق باربر أهمية أكبر على الشركات متعددة القوميات ، وبخاصة مجموعات الـــشركات العاملـــة في حقل الإعلام والتي تسيطر على وسائل الإنتاج الفكري والثقافـــي ، ويـــضعه هذا التأكيد في مكان قريب من رؤية ماركس لرأس المال الاحتكاري . ويعترف باربر بأن الآثار التفكيكية للسوق الكونية سوف ينجم عنها رد فعل معاكس عنيف داخل كل ثقافة . ويشير استخدامه لتعبير " الجهاد " – في عنوان الكتاب – إلى هذا الرفض للتحديث وللمواطنة العالمية ، ويتنبأ باربر بأن الجهـــاد ســـوف ينهزم في النهاية أمام السوق الكونية ، ويستند ذلك على القدرة طـــويلة الأمـــد للمعلوماتية الكونية وللثقافة الكونية ، التي يرى أنها ستهيئ في

الـــنهاية فرصـــة الغلبة على ضيق الأفق الفكري . إن باربر يصف التفاعل بين قـــوى العولمة وقوى التجزؤ حين يوضح أن قوى " الجهاد " ليست سوى نتيجة مباشـــرة لقوى " العولمة " وفي ذلك فهو يعتقد بأنه لا يتبدى موقف الجهاد بهذا القدر من المناهضة المتصلبة بمثل ما يتبدى في كونه الوجه المتمم ، المراوغ ، للـــسوق الكونية وهو يمثل بذاته رد فعل للحداثة والذي تعكس سماته وتعزز في آن فضائل العلم الحديث ونقائضه " . فالجهاد - كما يقول باربر - هو بالأحرى بوساطة السوق الكونية وليس في مواجهة السوق الكونية . ويذهب باربر إلى أن الكـــيانات الإقليمية سوف تعزز سلطتها نتيجة لدوافع عرقية وليس نتيجة لدوافع اقتـــصادية . ولا ريـــب فـــي أن باربر قدم رؤية تتأرجح بين الفكر الاقتصادي والفكـــر الاســـتراتيجي ، ولكـــنه لـــم يقدم أسانيد قوية (باستثناء بعض التقارير الصحفية) لإثبات نظريته القائلة أن الرأسمالية تفتت وتقوض الديمقراطية . كما أن باربـــر يـــناقض نفسه فيما يتعلق بقدرة الأسواق على تفتيت وتقويض سلطة الدولة . كذلك فإن الدعوى القائلة أن العولمة تجرد الدول من استقلاليتها الوطنية لا تملـــك ما يكفي من الأسانيد الأمبريقية ، بل إن دراسات التكامل الاقتصادي تـــشير إلـــى أن الحكـــومات أصـــبحت قادرة على تعزيز دورها حتى في ظل الاقتـــصاد العولمي . ولم يكن باربر موفقاً عند حديثه عن الثقافة ووصفه لجزء كبير منها بأنها مقومات ثابتة لم تتغير على حين حالفه التوفيق عندما حاول أن يوضـــح وجـــود قوى الجهاد في مناطق مثل أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية .

٥ - جـــون إسبوســـيتو Esposito, 1998 وأطـــروحة " التهديد الإسلامي : أسطورة أم حقيقة ؟ " : (١٨)

يُعـــدّ جـــون إسبوسيتو واحداً من كتّاب الشئون الإسلامية الموضوعيين نـــسبياً ، ويمـــثل كـــتابه " التهديد الإسلامي : أسطورة أم حقيقة " رؤية تستحق القـــراءة ، حـــيث يحاول من خلال هذا الكتاب الإجابة على العديد من الأسئلة أهمها : هل صحيح أن الإسلام والغرب يسيران على طريق الصدام المحتوم ؟ وهـــل الإســـلام والديمقـــراطية أمران متعارضان ؟ وهل صحيح أن الأصولية الإســـلامية تـــشكل تهديداً للاستقرار للعالم الإسلامي وللمصالح الأمريكية ؟ ..

وغيــر ذلك من الأسئلة التي باتت مطروحة بإلحاح بعد نهاية الحرب الباردة . ويعــتقد إسبوســيتو أن هذه الأسئلة وليدة تاريخ طويل من انعدام الثقة والإدانة المتــبادلة ، والــذي جاءت ثمرته في النهاية تنامي تصور عام لدى الحكومات ووسائل الإعلام الغربية مفاده أن الأصولية الإسلامية تمثل تهديداً للغرب . وفي هــذا الصدد يقول إسبوسيتو أنه غالباً ما يتم ربط " الأصولية " بالنشاط السياسي والتطــرف والتعــصب والإرهــاب والعــداء لأمريكا على حين أنني أرى أن الأصولية مُحملة بمسلمات مسيحية وتنميطات غربية (قاموس ويبستر Webster يــصفها علــى أنهــا حركة بروتستانتية في القرن العشرين تركز على التفسير الحرفي للإنجيل بصفته متأصلاً في الحياة المسيحية وتعاليمها) وتمثل خطراً في السياسة والدين .

ومــن ثم يذهب إسبوسيتو إلى مصطلحات أكثر ملاءمة من وجهة نظره حــيث يــصفها بــ " الإحياء الإسلامي " أو " الفعالية الإسلامية " كونها تحمل أدلــــة أقل ، ولها جذورها في الموروث الديني الإسلامي . ففي سنوات حديثة العهد ، أصبح مصطلحاً " الإحياء الإسلامي " و" الأسلمة " شائعي الاستخدام إذ يمــتلك الإســلام عُــرفاً طــويلاً من التجديد والإصلاح يتضمن مفهومات في النشاطين السياسي والاجتماعي تعود إلى القرون الإسلامية الأولى وحتى يومنا هــذا ، ولهذا يفضل إسبوسيتو الحديث عن التجديد الإسلامي والفعالية الإسلامية بــدلاً مــن الأصــولية الإسلامية . وهو يرى أن الأشكال التي اتخذها الانبعاث الإســلامي قــد تــنوعت علــى نحو مطلق من بلد إلى آخر ، ومع هذا هناك موضــوعات متكــررة : إحساس بالأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية القائمــة قد أخفقت ، امتعاض من الغرب ورفض في بعض الأحيان ، بحث عن الهوية والمزيد من المصداقية ، والإيمان بأن الإسلام يقدم إيديولوجية ذات اكتفاء ذاتــي للدولــة والمجــتمع ، إذ يُعد بديلاً شرعياً للقومية العلمانية والاشتراكية والرأســمالية العلمانــية . ومــن الناحيتين الاجتماعية – الثقافية والنفسية ، عُدُ الــتحديث تــركة الاستعمار الأوروبي التي تابعتها النخب ذات التوجه الغربي وفرضــت العمليتــين التوأمين للتحويل الغربي والعلماني وتبنتهما . وطالماً أنه نظــر إلى الإتكال على النماذج الغربية بصفته السبب وراء الإخفاقات السياسية

والعسكرية . ويذهب إسبوسيتو إلى أنه على الرغم من إدانة التحويل الغربي والعلماني للمجتمع ، فإن هذا لا يتم حيال التحديث . لقد تم قبول العلم والتكنولوجيا ، إلا أن سرعة التغيير ووجهته ومداه أقل أهمية من الاعتقاد والقيم الإسلامية وذلك للتحصين ضد تغلغل القيم الغربية والإتكال المفرط عليها . ويعتقد إسبوسيتو أن الحركات الراديكالية الإسلامية تعمل غالباً وفق افتراضين أساسيين ، أولهما : الزعم بأنه محتم على الإسلام والغرب أن يعيشا في معركة دائمة تعود إلى بدايات الإسلام وتتأثر إلى حد كبير بتركة الصليبيين والاستعمار الأوروبي ، وهي اليوم نتاج المؤامرة اليهودية – المسيحية . وثانيهما تزعم هذه الحركات الراديكالية أن الإسلام ليس خياراً إيديولوجياً للمجتمعات الإسلامية وحسب ، بل هو قدر محتوم لإصلاح حال الدنيا والفوز بالآخرة ، فطالماً أن الإسلام أمر الله ، ينبغي تطبيقه فورياً وليس مرحلياً . وهكذا يبدو أن إسبوسيتو يحاول التزام الموضوعية في تحليله لعلاقة الإسلام بالغرب . وعليه يؤكد على القول بأن ثمة حرب بين الإسلام والغرب وعدم توافق الإسلام مع الديمقراطية، تمثلان نوعاً من التضخيم والمبالغة والخلط بين الحقيقة والأسطورة . كذلك يحذر إسبوسيتو من أن الجهل والتفكير النمطي الجامد ، والتاريخ والتجربة والشوفينية الثقافية الدينية تفرض غشاوة على أبصار الغربيين في التعامل مع العالم الإسلامي ، وخاصة حول قضايا الديمقراطية والمشاركة وصورة الإسلام غير المتسامح .

وينبه إسبوسيتو إلى أن الذاكرة الغربية انتقائية في تعاملها مع المسلمين، حيث تضع حاجزاً يعوق قدرة الغرب على تقييم الجانب الآخر من المعادلة والمتمثل في مصادر التصور الإسلامي للغرب بدوره كتهديد حقيقي للعالم الإسلامي ، ويعول إسبوسيتو على حكومات الدول الإسلامية ذاتها ومسئوليتها عن وضع الإسلام في كفة واحدة مع التطرف الذي يهدد الغرب .

٦ – روبرت كابلان Kaplan, 1996 وأطروحة نهاية الأرض : رحلة إلى بدايات القرن الحادي والعشرين : (١٩)

في كتابه " نهاية الأرض : رحلة إلى بدايات القرن الحادي والعشرين " يعرض كابلان لجزء من العالم النامي لينتهي إلى نتيجة مفادها أن السوق الكونية

ســتؤثر حــتماً على الدولة القومية ، على أن كابلان يبدي اهتماماً بدراسة أثر السوق الكونية في الدول التي تقاوم سياسات " عدم التدخل " الحكومي وهو يقول أن هــذه السوق تفتت ، في أغلب الحالات ، احتكار الدولة . وينوه كابلان إلى الكيفــية التــي يؤثر بها التغير البيئي والديموجرافي في الثقافات والدول ، وهو يتأثــر هنا بوجهة نظر توماس هومر – ديكسون (١٩٩١) ، وهو أكاديمي يؤكد علــى العوامل البيئية كسبب رئيسي للصراع . ويذهب كابلان ، – بوجه خاص – إلى أن تعرية التربة وحركة التحضر الواسعة النطاق هما السببان الرئيسيان لاضمحلال الدولة القومية . وهو يتصور أن هذه المقولة تُحل نظرية " المادي – الاجتماعــي " محــل نظرية " الاجتماعي – الاجتماعي " . ويخفق كابلان في إدراك أن العوامل المادية التي يذكرها إنما هي نتائج لأسباب اقتصادية ، ومن ثم فإن الأسباب تظل اقتصادية ويبقى الأثر الناتج هو تفتت أو تآكل سلطة الدولة . ورغــم أن كابلان لا يعترف بحتمية ماركس الاقتصادية إلا أنه يحذو حذوه في توصــيفه للاقتــصاد العالمــي . ويلخص كابلان نتائجه الأمبريقية في التصور التالــي: إن كــل ما توصلت إليه حتى الآن إنما يتمثل في أن الدول في أفريقيا الغــربية ، والشرق الأدنى ، وآسيا الوسطى تضعف ، وأن الهويات العرقية – الدينية بدت أقوى في المقابل . ويذهب كابلان إلى ما هو أبعد من ذلك حين يرى أن جانــباً كبيــراً من المشكلات في أنحاء عدة من العالم : الفقر وتدهور المدن والحــدود المليئة بالثغرات والثقوب ، والنزاع الثقافي والعرقي ، وأوجه التفاوت الاقتصادي المتزايد والدول القومية الهشة ، هي مشكلات يتعين على الأمريكيين أن يفكــروا فيها جيداً . هكذا تبدو الفكرة الاستعمارية البالية " عن أمانة الرجل الأبــيض " تتجدد عند كابلان الذي يعتقد على نحو آخر أن كلاً من العولمة ورد الفعــل إزاءهــا هما تغيرات بنيوية ليس بإمكان صناع السياسات الحيلولة دون تحققهــا على أن كابلان يطالب بإحداث تغييرات في السياسة الداخلية للولايات المــتحدة – فــي مــواجهة الحضارة الغربية لمخاطر داخلية ناجمة عن الهجرة والــتعددية الثقافــية والعــرقية . ويــبدو كابلان ضعيف الحجة حينما يرى أن الولايات المتحدة تربطها عملياً روابط أقل عداوة وعلاقات عسكرية واقتصادية وتعليمية أعمق مع إيران مقارنة باليابان وألمانيا.

صـــحيح أن انــبعاث الهوايات الثقافية والعرقية ربما أسفر عن انهيار بعض الدول القومية ، لكن ذلك لا يعني انهيار الدولة القومية بوجه عام ، كذلك فـــإن النـــزاعات العـــرقية لا تدور في الأساس حول خلافات ثقافية ، بل تتعلق بالأحرى بمن تكون له السيطرة على أجهزة الدولة .

٧ - كينيشي أوماي Ohmae, 1995 وأطروحة نهاية الدولة القومية : صعود الاقتصادات الإقليمية : (٢٠)

تبنـــي أطروحة أوماي على تنبؤ باضمحلال الدولة القومية ، حيث يرى أن انتـــشار السوق والإيقاع السريع للتغير التكنولوجي يضعفان العقد الاجتماعي بين الأفراد والأمم . وتؤدي عولمة رأس المال إلى " مجانسة " الثقافات ومن ثم إزالة الفوارق بين القوميات أو الحضارات ويشير أوماي إلى هذه الظاهرة على إنهـــا " إضفاء الطابع الكاليفورني Californiaization لتفضيلات الفرد ، أي ذلـــك " التولـــيف " للـــذوق الـــذي يطمس الفوارق بين الدول ويمحو العداوات التاريخـــية ، جـــاعلاً الحـــروب بين الدول أمراً أقل احتمالاً ملغياً بذلك إحدى وظائف الدولة القومية الأساسية . ويؤدي انتشار رأس المال العالمي في الوقت ذاته إلى فرض تقييدات اقتصادية جديدة على دور الدولة في الشئون الاقتصادية ويتمـــثل الإســـهام الجديد لأوماي في تنبؤه بأن " الوحدة المنظمة " الطبيعية في المـــستقبل ستكون عبارة عن " دول مناطق " والتي يمكن أن يقع مركزها داخل بلـــد واحـــد ، كما هي الحال في منطقة تركز للصناعات الإليكترونية ، أو عبر الحدود كما في جنوب شرق آسيا . إن أوجه التفاوت في النمو الاقتصادي داخل الدولـــة القومـــية تنجم عنها صراعات سياسية واقتصادية ، وتضمحل التوترات العـــرقية فـــيما بـــين المناطق نظراً لأن توجه دول المناطق هو نحو الاقتصاد العالمـــي ، لا نحو بلدانها المضيفة . ويتنبأ أوماي ، مقتفياً خطي ماركس ، أن بلوغ السوق لمرحلة " الكونية " سوف يحجم تأثير الدولة القومية ويستحث ظهور كوزموبوليتانية (مواطنة عالمية) تفقدها أي مبرر للوجود .

٨ - فريد هاليداي Halliday, 1997 وأطروحة الإسلام وخرافة المواجهة:(٢١)

يعتبر هاليداي واحداً من الكتاب الذين يتمتعون برؤية مختلفة نسبياً عن كثيـــر من الكتاب الغربيين ، ويعتقد هاليداي أن مفهوم " الخطر الإسلامي " هو

ذاتـــه خـــرافة ، والحديث عن نزاع مستمر عبر تاريخي بين العالم الإسلامي " والعـــالم الغربي " هراء ، فمن الجانب الإسلامي ، من الحماقة أن نرى البلدان الإســلامية وكأنهــا بمعنـــى ما تهدد الغرب ، فقد اختفى منذ أمد طويل الخطر العسكري الذي تثيره قوات إسلامية موحدة ، ثم أن خرافة " العدو الضروري " للغرب تمثل خطأ عميقاً ، وإن يكن واسع الانتشار ، فالاعتقاد بأن الغرب يحتاج عـــدواً تمـــثل اتجاهـــاً في الفكر الاستراتيجي الغربي بعد الحرب الباردة ، فمن ورائـــه تظهر بعض المنافع مثل صناعة الأسلحة . كذلك يدفع هاليداي في وجه الاتهامات التي تجعل العالم الإسلامي مسئولاً عن كثير من الجرائم في الماضي والحاضـــر بقوله لم يكن العالم الإسلامي هو الذي نظم مذبحة اليهود في الحرب العالمية الثانية ، ولا هو الذي طرد السيفارديم من أسبانيا . وفي كثير من البلدان الـــيوم نجد أن المسلمين هم ضحايا القمع والإرهاب (بورما وكشمير وفلسطين والبوســـنة .. إلخ) ويذهب هاليداي إلى أن الصورة المعاصرة للخطر الإسلامي تلقـــي دعمـــاً مـــن ثلاثة مصادر : الأول هو تاريخ نزاع بين عالم " الغرب " المـــسيحي وعـــالم " الإسلام " يمتد عبر ألف عام ، وقد استحكم هذا النزاع منذ غزوات إيبيريا في القرن السابع ، وعبر الحروب الصليبية التي بدأت في القرن الحـــادي عشر ، ثم عبر النزاعات مع الإمبراطورية العثمانية التي استمرت من القرن الخامس عشر حتى الانهيار النهائي لهذا التحدي الإسلامي في سنة ١٩١٨ . والثانـــي هو انتهاء الحرب الباردة . فهناك من يزعمون ، في كل من الغرب والعالم الإسلامي ، أن انتهاء الحرب الباردة – وهي نزاع بين غرب ديمقراطي رأســـمالي وشرق ديكتاتوري يسيطر عليه السوفييت – قد استدعى خلق أو بعث النـــزاع القـــديم المفترض بين الغرب المسيحي والعالم الإسلامي . وقد استندت بعـــض تحلـــيلات حرب الخليج إلى هذه القضية ، والقائلة أن الغرب قد خاض الحـــرب مـــع صـــدام حسين ، وصوره كعدو ، بديلاً لنزاع الحرب الباردة مع روسيا . وامتداداً لذلك اعتبر القلق الأوروبي الغربي " الخطر الإسلامي " عموماً – بمـــا فـــي ذلك قضية الهجرة إلى أوروبا الغربية – بديلاً إيديولوجياً للحرب الـــباردة وما سببته من مواجهة بين النظم . وفي هذا المنظور يتنامي الزعم بأن النزاع مع العالم الإسلامي يعكس حاجة داخلية في المجتمع الغربي إلى وجود "

آخـــر " مهـــدد لكـــنه تابـــع ، ويربط العداء التقليدي القائم على الدين للمجتمع الإسلامي ، الذي يرجع إلى الحروب الصليبية ، بضرورة تأكيد الهيمنة فيما بعد الشيوعية . أما المصدر الثالث – من وجهة نظر هاليداي – فهو ينبع من العالم الإســـلامي نفسه . فالأصل أن مقولات الخطر الإسلامي تولد في الغرب لخدمة مصالح من بيدهم السلطة هناك ، سواء كان هؤلاء موصوفين بأنهم مسيحيون أو رأسماليون أو إمبرياليون ، وهي بهذا تمثل شكلاً من أشكال التحيز أو نوعاً من القولـــبة الـــسلبية أو الخطر الزائف . بمعنى أن هاليداي يعتقد أن الخرافات عن الإسلام لا تبتدع وتروج في عالم الهيمنة المفترض في أوروبا والولايات المتحدة فحسب ، بل كذلك في ساحة الإسلام والتي من المفترض أنها مقهورة وخاضعة للـــسيطرة ، وعلـــيه فمقـــولة " التهديد الإسلامي " صناعة إسلامية بقدر ما هي صـــناعة غـــربية . ويعتقد هاليداي أن هناك العديد من الآراء التي تحاول بث العـــداء للإسلام على الرغم من عدم وجود أسس حقيقية له ، ويذكر منها الفريد شـــيرمان المستشار الشخصي السابق لمارجريت تاتشر الذي نشر في مقال سنة ١٩٩٣ تحـــت عنوان " إندفاعة الإسلام الجديدة في أوروبا " يقول : هناك خطر إســـلامي علـــى أوروبا المسيحية ، وهو يتطور ومازال من الممكن وقفه ، لكن سياســـات الدول الغربية قد فعلت تقريباً كل ما هو ممكن لمساعدته على النمو . والعوامل التي خلقت هذا الخطر هي : (١) سياسات الهجرة غير المسئولة تماماً فـــي أوروبا الغربية والوسطى ، التي خلقت بسرعة أقلية تتزايد عداء تبلغ ١٥ ملـــيون مـــسلم ، (٢) سياســـة ألمانـــيا العدوانية في البلقان ، (٣) تدهور القيم المسيحية والغربية الذي سببه الجهل بالتاريخ الغربي ، وبما فيه خطر الإسلام ، ومن حيث الجوهر فإن موالاة الإسلامية – شأنه شأن موالاة العالم الثالث – هي أعراض انهيار إيمان المثقفين والسياسيين في الغرب بقيمهم. ويسترشد هاليداي فـــي نفس الاتجاه بكاتب آخر ممن يبثون مقولة " التهديد الإسلامي " وهو كلير هولينجورث (مراسل دفاع بريطاني قديم) الذي كتب تحت عنوان " عقيدة مطلقة أخرى تسعى إلى التسلل إلى الغرب " يقول : تصبح الأصولية الإسلامية بسرعة الخطـــر الرئيـــسي علـــى الـــسلام والأمـــن العالميـــين فضلاً عن كونها سبباً للاضـــطرابات القومية المحلية من خلال الإرهاب ، إنها قريبة من الخطر الذي

أثارتــه النازية والفاشية في الثلاثينيات ، ثم الشيوعية في الخمسينيات . لقد مثل هــؤلاء الكتاب مقولة " التهديد الإسلامي " الذي ينبغي مواجهته . وقد ظهر هذا فــي شكل مشاعر معادية للمسلمين تجلت في سياسات عنصرية جديدة ومعادية للمهاجــرين فــي عديــد مــن الدول الأوروبية ، والذي ربما يرجع سببه إلى الاضطراب الاجتماعي الناشئ عن الكساد الاقتصادي ، وبروز السخط المعادي للأجانب والمعادي " للملونين " الذي تركز في كثير من الحالات على المسلمين.

٩ - شيرين هنتر Hunter, 2002 وأطروحة مستقبل الإسلام والغرب : صدام حضارات أم تعايش سلمي ؟ : (٢٢)

تــذهب هنتر – في استهلال طرحها – إلى أن صدام الحضارات المتنبأ به بين الإسلام والغرب يرجع تحديداً إلى الحركة النضالية الإسلامية ذات الأبعاد العدائــية القــوية للغرب ، وربطها المفترض بين الدين والسياسة ووحدة الأمة الإسلامية وتماسكها كمضمون فوق اثني وقومي . ولكن هنتر تخلص في كتابها إلى مجموعة من الاستنتاجات على النحو التالي :

(١) بالرغم من الإيمان السائد بخصوصية الإسلام المتأتية من الالتحام المزعوم بــين الــسياسة و الدين ، إلا أن هذا الالتحام – واقعاً – لم يكن أكبر في الإســلام مــنها فــي الديانات الأخرى . وبالتالي فإن الوتيرة الأكثر بطئاً للعلمانــية في البلدان الإسلامية لا يمكن عزوها إلى خصوصية الإسلام ، فكل الأديان نظرياً على الأقل ، ترفع القوانين وقواعد السلوك الدينية فوق تلــك الوضعية ، وتعتقد جميعها أن كل مظهر من مظاهر الحياة الإنسانية لابد وأن ينظم في ضوء هذه المبادئ . وإن لم يتم التقيد بهذه المبادئ سواء في البلدان الغربية أم في المجتمعات الإسلامية في الأزمنة الحديثة .

(٢) طوال تاريخ الإسلام، احتل الدين موقفاً لغير مصلحته في علاقته بالسياسة، فــإذا افترضــنا أن الــدين والسياسة كانا منفصلين على الدوام في الغرب المــسيحي – وهو افتراض مشكوك فيه – فإن الإسلام كان على النقيض مــن ذلــك . إذ خضع دائماً للسياسة ومتطلباتها ، سواء في إدارة الشئون الداخلــية للــبلدان الإســلامية أم في تحديد سلوكها إزاء الدول الإسلامية الأخرى وغير الإسلامية .

(٣) الحـضارة الإسـلامية ، هـي ظاهرة مولدة وتوفيقية نشأت عن احتكاك الإسلام المبكر مع المناطق والحضارات من خلال توسعه التاريخي .

(٤) ثمـة غـياب كبيـر للوحدة والإتساق في العالم الإسلامي على المستوى السياسي ، فالإسلام لم يلغ الخصوصيات الإثنية والثقافية وغيرها من العالم الإسـلامي . إضافة إلى أن الأفكار القومية الحديثة قد ترسخت فيه مخلفة مـزيداً من التشظى ، ولا يزال حلم قيام أمة وكيان إسلامي موحد عصياً كما كان على الدوام . وكانت البلدان الغربية ، مقارنة بالعالم الإسلامي ، أكثر نجاحاً في جهودها للتوحد والعمل بانسجام .

(٥) إن دور الإسـلام داخـل كـل مجتمع إسلامي ، وبالمثل دوره في سياق علاقات المسلمين البينية وصلاتهم مع الدول غير الإسلامية مشابه لأدوار الأديـان ونظـم الاعتقاد العلمانية الأخرى ، وتعتقد هنتر أن دور الإسلام مـرتبط مباشـرة بالـصراعات علـى الـسلطة والنفوذ والشرعية داخل المجتمعات الإسلامية وفي سياق تفاعلها مع العالم الخارجي ، لذا استعمل الإسلام من قبل جماعات متعددة للحصول على السلطة أو الحفاظ عليها .

(٦) إن أسـباب الخلاف بين بعض الدول الإسلامية والغربية ، وكذلك معادلة العناصـر الإسـلامية الحادة للغرب أحياناً ، مرتبطة بشكل لا فكاك منه بالـتحول داخل المجتمعات الإسلامية وباختراق الغرب الهائل لبلدانها مما أدى إلـى فقـدان استقلالها ، والتغير الحاد لميزان القوة الدولي لمصلحة الغرب ، كذلك دعم الغرب للحكومات غير الشعبية في العالم الإسلامي .

وتـذهب هنتر إلى أن هذه الاستنتاجات تنطوي على دلالات مهمة فيما يتصل بمستقبل العلاقات بين الإسلام والغرب :

(١) كما في الماضي ، سيبقى للدوافع المتجذرة في الإسلام تأثير أقل في سلوك الـدول الإسلامية حيال بعضها بعضاً أو حيال غير المسلمين ، من تأثير المحـددات الأخرى لسلوك الدولة ، مثل الاعتبارات الأمنية ، والمتطلبات الاقتـصادية ومصالح النخبة . لذا ، فبالرغم من العروض الدورية للوحدة الظاهـرية فإنـه مـن المـستبعد أن يجسر الإسلام الخلافات بين الدول الإسـلامية ويمكنها من التصرف ككيان إسلامي موحد . وتعتقد هنتر أن

المسلمين سيفكرون في علاقات أفضل مع غير المسلمين مثل الحلف العسكري بين إسرائيل وتركيا سنة ١٩٩٧ .

(٢) ستكون العلاقات ذات سمة غير متوازية ، بمعنى أنه في حين سيكون لعدد من البلدان الغربية علاقات متوترة مع بعض الدول الإسلامية ستتمتع بعض الدول الغربية والإسلامية الأخرى بصلات تعاونية وحتى ودية .

(٣) بما أن التحول الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للمجتمعات الإسلامية ، بما فيها العلمانية التدريجية ، ليس مكتملاً ، فإن طابع علاقاتها الخارجية سيكون متغيراً وغير ثابت ، عاكساً بذلك حركتها الداخلية السريعة ، بل إن العلمنة التامة للمجتمعات الإسلامية وتبنيها لمظاهر مهمة من الحضارة الغربية لن يضمنا تفاهماً دائماً بين البلدان الغربية والإسلامية ، طالماً بقيت المصادر الأخرى للخلاف ، وخصوصاً رغبة البلدان الإسلامية في إصلاح التوازن السلبي للقوة في مواجهة الغرب .

(٤) وكما في الماضي ، سيعتمد مستوى الصداقة والعداوة بين العالم الإسلامي والغرب إلى حد كبير ، على موقف البلدان الغربية من قضايا ذات أهمية للمسلمين في مجالي تطورهم الداخلي وعلاقاتهم بالعالم الخارجي . والمثال الجيد لأثر المواقف الغربية في سلوك المسلمين هو مسألة حقوق المسلمين في القدس ، لكن تأثير هذا العامل في سلوك كل دولة مسلمة منفردة سيختلف اعتماداً على مدى ارتباط هذه المسألة بمصالحها الأكثر دنيوية .

(٥) في المستقبل كما في الماضي ، فإن قدراً من المنافسة والخصومة سيبقى بين الدول الغربية ، التي تريد الحفاظ على تفوقها الاقتصادي والسياسي العالمي ونفوذها في العالم الإسلامي ، وبين تلك الدول الإسلامية التي تريد توسيع هامش استقلالها ونفوذها الخاصين .

(٦) إن إمكان ظهور ثقل مضاد اقتصادياً وسياسياً للغرب قابل للنمو ، يوفر للدول الإسلامية حليفاً محتملاً ومصدر عونه ، قد يعزز ميولها التنافسية تجاه الغرب ويحثها على تحدي السيادة الغربية ، وفي المقابل ، فإن فقدان هذا ، من المرجح أن ينتج موقفاً إسلامياً أكثر تساهلاً .

لقــد جـــاء توجه هنتر يميل إلى الموضوعية النسبية ، فعلى الرغم من المنظور التاريخي للعداء بين الإسلام والغرب ، والذي اصطبغ بصبغة ثقافية ، إلا إنهـــا تستبعد حدوث هذا الصراع بين الثقافتين مؤكدة على أن العلاقات بين الــدول الإسلامية والدول الغربية ، مثلها مثل العلاقات الدولية الأخرى ، مركباً مــن النزاع والتعاون . وستبقى ديناميات العلاقات الدولية الأخرى هي المحدد الجوهــري للسمة الأساسية لهذه العلاقات . فالتشرذم الإسلامي وغلبة المصالح الذاتــية للدول وتحالفات بعض الدول الإسلامية مع الدول الغربية لن تجعل من الإسلام خطراً على الغرب .

١٠ - طارق علي Ali, 2002 وأطروحة صدام الأصوليات : (٢٣)

يذهب طارق علي إلى أن هجمات ١١ سبتمبر تستمد فلسفتها من صدام الأصوليات بين الأصولية الإمبريالية الأمريكية التي يصفها بأم الأصوليات ، مع الأصولية الدينية . ويعتقد على أن الأصولية الإمبريالية تتسم بالاستخدام المفرط للقوة ، على حين تتسم الأصولية الدينية بالتطرف واختيار أهدافها بعناية .

والأصولية الإمبريالية – من وجهة نظره – تعبر عن إمبراطورية بينما الأصـــولية الدينية نتاج لليأس . وفي معرض قناعته بفكرة صدام الأصوليات ، يعــتقد علـــي أنـــنا نعيش في عالم فيه أصولية كبرى هي أم الأصوليات وهي الأصولية الإمبريالية الأمريكية التي تسيطر على كل شيء ، وعلى النقض منها تأتي الأصولية الدينية ومنها الأصولية الإسلامية التي هي صغيرة جداً . وعبر فــصول الكــتاب (٢١ فصلاً) يتخذ الكتاب مساراً واحداً هو أن هناك إمبريالية أمريكية فائقة الهيمنة على العالم .

ولم يتعرض علي لمسئولية المسلمين عن تخلفهم وعجزهم إلا في نهاية الكتاب عبر الفصل الحادي والعشرين الذي جاء عنوانه "رسالة إلى شاب مسلم"، ففـــي هـــذا الفصل يرجع ضعف الدول الإسلامية إلى أنه لم تحدث في الإسلام حــركة إصلاح ديني كما حدث في المسيحية . ويدعو طارق علي في كتابه إلى إعادة النظر في الأصول التقليدية للفكر الإسلامي باعتبار أنها نصوص تاريخية لـــيس لهـــا علاقـــة بالوحي ، وبما يساعد المسلمين على التعامل في المشكلات الاجتماعية والسياسية في منطلق عملي وليس من منطلق غيبي ، ويعتبر الكاتب

أن جمود الفكر الإسلامي كان السبب وراء ظهور الحركات الأصولية الإسلامية المعاصـــرة . وفـــي معـــرض حديـــثه عن التسامح الديني يزعم أن " لاهور " الباكستانية المسلمة (مسقط رأس الكاتب) كانت تتسامح مع وجود حزب شيوعي، وهكذا كان العالم الإسلامي قبل ٧٠ عاماً ، كما يشير إلى أن والده انضم للحزب الـــشيوعي بعـــد عودته من أداء فريضة الحج وليس قبل ذلك ، في دلالة أخرى على التسامح الديني والسياسي . إن كتاب طارق علي ليس سوى قصة تاريخية إيديولوجـــية ، فهـــو يـــروي قـــصة حياته بين عالمي الإسلام والغرب كمثقف ماركـــسي وأحد رموز حركة الطلبة في الستينيات في بريطانيا حتى أصبح من الماركسيين الجدد ورئيساً لتحرير مجلة اليسار الجديد . New Left

١١ - فواز جرجس Gerges, 1999 وأطروحة أمريكا والسلام السياسي : صدام الثقافات أم صدام المصالح : (٢٤)

تـــنطلق الفرضية الأساسية لكتاب جرجس من الازدواجية أو التعارض بـــين المـــبادئ والمصالح في السياسة الأمريكية تجاه الإسلام السياسي . ويعتقد جرجس بوجود نظريتين متعارضتين في الإدراك الأمريكي للإسلام السياسي ، إحداهما نظرية المواجهة التي تستند على العداء بين أمريكا والإسلام ، والثانية هـــي نظـــرية الاحـــتواء التي قالت بالتوافق الأمريكي مع الإسلام والمسلمين . ويطـــبق المؤلـــف هذه الثنائية في الإدراك الأمريكي تجاه الإسلام على إدارات كارتـــر وريجـــان وبـــوش الأب وكلينتون ، وتعامل تلك الإدارات مع الحالات الإســـلامية فـــي إيـــران والجزائر وتركيا ومصر ، وقد أدى هذا التعارض في الإدراك (الإســـلام كعـــدو - الإســـلام المـــتوافق) وفي الممارسة (المواجهة - الاحـــتواء) إلـــى غـــياب اســـتراتيجية أمريكية شاملة ومتكاملة تجاه الحركات الإسلامية والدول الإسلامية ، وإلى غلبة التعامل من منطلق المصالح الأمريكية والـــسياسة العملـــية . ويـــذهب جرجس إلى أن غياب السياسة المتكاملة وغلبة النظـــرة المـــصلحية تجـــاه الإسلام السياسي كانت وراء تجاهل إدارة كلينتون للتحذيـــرات من خطورة الحركات الأصولية المتشددة ، ورفضها لمقولة " صدام الحضارات " التي صكها هنتنجتون ، وفي المقابل فإن إدارة جورج بوش الابن التـــي ضـــمت اليمـــين المحافظ الجديد واليمين المسيحي أعلت مقولة " صدام

الحـضارات " نمـوذجاً تفـسيرياً للأحداث وأساساً لسياسة متكاملة شاملة تجاه المسلمين والإسلام .

١٢ - جراهام فوللر وإيان ليسر Fuller & Lesser, 1995 وأطروحة الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة : [٢٥]

يــذهب فوللر وليسر إلى أنه من المألوف منذ نهاية الحرب الباردة الدفع بالقول بأن الصراع الإيديولوجي العالمي المقبل قد يكون بين الإسلام والغرب . ويأتــي هذا الدفع تأسيساً على اعتقاد بأنه لابد كضرورة مطلقة ، أن يظهر فيما بعد " مذهب " ما يتخذ موقف التحدي من المجتمعات الغربية . وهذا القول ليس عاريــاً تماماً من أي أسباب تبرره . ذلك أن القوة الرمزية والواقعية التي يمثلها الغــرب – والــولايات المــتحدة بخاصــة – على الساحات الثقافية والسياسية والاقتــصادية والعسكرية هي قوة اقتحامية ، فحضور الغرب – من وجهة نظر الكاتبــين – على الصعيد العالمي لابد أن يولد نوعاً من الاستجابة المعاكسة أو المــضادة . ولكن لماذا شاع تصور أن الإسلام بالضرورة هو المنافس السياسي والإيديولوجــي للغرب ؟ ثمة أسباب كثيرة نذكر منها التاريخ الطويل للمواجهة الدينــية بــين الديانتين العظيمتين المتجاورتين وهما الإسلام والمسيحية . ولعل الإسلام – أكثر من أي عقيدة أخرى مناظرة – مندمج بعمق أشد كمؤسسة ونظام فــي الدولــة والمجتمع . وهيأ له هذا قدرة احتمال أكبر من حيث هو قوة ثقافية متمايــزة عن الغرب ، ومنحه منعة في مواجهة إغارات وانتهاكات التغريب . يــضاف إلى ذلك – من وجهة نظر فوللر وليسر – صعود الأصولية الإسلامية بوصــفها القــوة الوحــيدة تقريباً المناهضة للغرب على مدى العقدين الأخيرين خاصة مع تهاوي الحركة الشيوعية . فمع انهيار النظام الشيوعي لم تظهر إلى جانب الإسلام أي مجموعة أخرى من المعتقدات المتماسكة ذات الانتشار الواسع بين الناس وتوجه على نحو منظم نقداً واضحاً وقوياً للغرب . كذلك سوف تواجه المجــتمعات الإســلامية ، شــاءت ذلــك أم أبت ، حقائق هيمنة النظام الدولي للرأســمالية والــتجارة الحرة ، والدول – الأمم ، وتطبيق الديمقراطية ، والقيم الإنسانية المناظرة لأنماط التطور في الغرب . ومع هذا يخلص فوللر وليسر إلى الاستنتاجات التالية :

(١) لا يعـــتقد الكاتبـــين بأن العلاقات بين الإسلام والغرب تمثل بذاتها المجال المقـــبل للصراع الإيديولوجي العالمي ، فالإسلام كعقيدة ليس على طريق التـــصادم مع الغرب . فالقضية ليست بين المسيحية والإسلام . إن هناك حلقات كاملة من القضايا الخاصة والمتميزة ذات طبيعة ثنائية بين البلدان الغـــربية كل على حدة وبين البلدان الإسلامية ، وحيث إن الإسلام كما هو مـــتوقع يمثل الرمز الجليل للمصالح الإقليمية المتصارعة ، فإنه قد يحتل حتماً محور القدر الأعظم من حوار الشمال والجنوب ، ويرى الكاتبين أن تطلعـــات العالم الثالث بسبيلها إلى أن تفرض مطالبات متزايدة على الأمم المتقدمة، وإن فشل الدول الغربية في التلاؤم مع هذه المطالب من شأنه أن يشجع نزعة التطرف في العالم الثالث في صورتيها القومية والإسلامية.

(٢) يعـــتقد الكاتبـــين أن الإسلامي السياسي سيتوجه لدعم القوة الحقيقية للدول المسلمة – وهو هدف لا ينفرد به رجال السياسة الإسلاميون – في صورة علاقات هذه الدول مع الدول الأقوى في الغرب ، وذلك بهدف التعامل من أرضـــية تهيـــئ لهـــا قـــدراً أكبـــر مـــن المساواة بدلاً من حالة الضعف الاســـتراتيجي . وســـوف يتـــضمن هذا النهج السعي من أجل تحقيق قوة عـــسكرية أكبـــر ، بمـــا في ذلك امتلاك أسلحة التدمير الشامل بغية إقامة علاقات مع الغرب على أساس من التكافؤ على الصعيد الاستراتيجي على الأقل . ويكرر الكاتبين أن هذه أهداف يكاد لا ينفرد بها القادة الإسلاميون.

(٣) يعتقد فوللر وليسر أن التفاعل مع العملية السياسية والاندماج فيها هو وحده الـــذي سيفضي إلى أن تفقد السياسة الإسلامية في نهاية المطاف جاذبيتها الراهنة .

(٤) ضـــرورة حـــدوث تغيـــر سياسي واقتصادي واجتماعي بمنأى عن النظم الاســـتبدادية القديمـــة فـــي الدول الإسلامية (وخاصة الشرق الأوسط) . فالإسلام السياسي – من وجهة نظر الكاتبين – يهدد أكثر من غيره النظام المستقر في غالبية البلدان المسلمة أكثر مما يهدد الغرب ذاته .

ويخلـــص فوللر وليسر إلى أن الإسلام اليوم من حيث هو دين ليس في مـــسار صـــدامي مع المسيحية أو الغرب ، علاوة على هذا فمن الصعب التنبؤ

بحتمية حدوث مواجهة شاملة بين كتلتين من الدول إحداهما إسلامية والأخرى غــربية، فالــدول والحــالات والمصالح الداخلة في هذا الصراع شديدة التباين والتنوع بحيث لا تصلح لدعم حالة استقطاب كبرى وبعيدة المدى بين كتل ثقافية – دينــية. ويعتقد الكاتبين في أن شروط التدخل وحفظ السلام في مرحلة ما بعد الحرب الباردة سوف تضع الغرب بالضرورة في اتصالات دبلوماسية وعسكرية أوثق مع العالم الإسلامي. وسوف يكون التعاون مع الدول الإسلامية في الغالب شــرطاً مــسبقاً لــنجاح العمليات المتعددة القوميات. إن التصورات السائدة في العــالم الإسلامي وفي الغرب ربما تنم عن شعور متبادل بالحصار، وكذلك عن شــعور بــأن العلاقات بلغت لحظة تستلزم تحديدها بوضوح، وإن مهمة صناع السياسة والمراقبين المتعقلين على جميع الجوانب أن يستكشفوا القواعد الأساسية لأسلوب تعايش عملي داخل نظام دولي يفرض التفاعل المتبادل .

١٣ – روبرت كاجان Kajan, 2002 ونظرية القوة والضعف: [٢٦]

تعــتمد رؤيــة روبرت كاجان على وجود تباعد بين أمريكا وأوروبا، فعلى الــرغم أنهمــا كيانان متماثلان ولا يستغني أحدهما عن الآخر، فإن كلا منهما مــضطر أن يبــتعد عن الآخر، فهي علاقة تنطوي على تناقص وتكامل في آن واحــد، فالأوربــيون يؤكدون – وفقاً لرأي كاجان – أن الأمريكيين أكثر منهم استعداداً للالتجاء إلى القوة .. وبالمقارنة إلى أوروبا، يبدون قدراً أقل من الصبر في اتباع طرق الدبلوماسية. وبوجه عام يرى الأمريكيون العالم وكأنما هو منقسم إلى فريقين: فريق الأخيار وفريق الأشرار (أصدقاء وأعداء)، بينما صورة العالم فــي نظــر الأوروبيين أكثر تعقيداً. ويعتقد كاجان، أنه بجانب التمايز العسكري الأمريكي على أوروبا، هناك تباعد بينهما ناجم عن الثغرة " الإيديولوجية " بين أمــريكا وأوروبا، إذ يتغلب الأوربيون على أسباب الفرقة بينهم، وبنجاحهم في إنشاء الاتحاد الأوروبي خلال نصف القرن الذي تلا الحرب العالمية الثانية، فقد طورت أوروبا مجموعة أفكار ومبادئ تتعلق بفائدة وأخلاقيات " القوة " تختلف عن مثل ومبادئ الأمريكيين الذين لم تتح لهم فرصة مشاركة الأوربيين تجاربهم .. وهكذا نشأت ثغرة بين الجانبين اتسعت بالتدريج لتبلغ الآن حداً مقلقاً. وهكذا يــــؤكد كاجـــــان علـــــى التـــــباعد لا الــــتقارب بـــــين أمــــــريكا

وأوروبـــا رغــم انتمائهما معاً إلى حضارة واحدة ، والخلاف بينهما أيضاً عن تصور التهديدات ليس تعبيراً عن حالة نفسية وحسب ، وإنما له جذور في الحالة الواقعـــية الناجمة عن التباين في موازين القوى . فإذا صح أن أوروبا ، خلال حقبة الحرب الباردة ، قد وجدت نفسها مضطرة إلى أن تسهم إسهاماً ملموساً في إرســـاء أســـس دفاعها ، فإن الأوروبيين يتمتعون الآن بقسط غير مسبوق من الـــدفاع المجانـــي ، فلـــم تَعُـــدَّ أوروبا مهددة بتهديدات تأتيها من خارج القارة الأوروبـــية ، أي مـــن قـــبل أطراف تملك الولايات المتحدة وحدها القدرة على مواجهـــتها . فـــلا العـــراق ولا إيران ولا كوريا الشمالية .. إلخ تشكل مشكلة بالنـــسبة إلـــى أوروبا . وفي سياق هذه التطورات ، خرج كاجان بأطروحة أن أوروبـــا قد تحللت من نظرة الفيلسوف " هوبز " الفوضوية إلى العالم . وانتقلت إلـــى رؤيـــة الفيلسوف " كانت " القائمة على " السلام الدائم " ، غير إن كاجان يعتقد أن " ما بعد التاريخ " يمثل مرحلة جديدة داخل التاريخ تشمل دول الاتحاد الأوروبي التي تخلت عن النظام العالمي الذي أقامته معاهدة سلام وستفاليا .. لقد عبـــرت هذه المعاهدة عن نهاية مرحلة الحروب الدينية ، وأصبحت الصراعات المسلحة في أوروبا تشن عقب هذا التاريخ لأغراض سياسية صريحة . ويذهب كاجان صراحة إلى ما وصفه بأهم سبب في حدوث تباعد في وجهات النظر بين أوروبا وأمريكا ، إنه قوة أمريكا ، واستعدادها إذا لزم الأمر لاستخدام هذه القوة لتهديد ما تراه أوروبا رسالتها الحضارية الجديدة التي ترغب في بثها إلى العالم أجمـــع ، باعتبار أن التجربة الأوروبية ذات قيم إنسانية مستقرة . ومن هنا عدم حماس أوروبا للحرب التي يريد بوش شنها ضد العراق ، ذلك أنها تمثل هجمة على المبادئ التي تقوم عليها أوروبا ما بعد الحداثة (أوروبا ما بعد التاريخ على حـــد تعبيـــر كاجان) ، وأي ما أبداه كاجان من حدوث تصدع في العالم الغربي (بـــين أميـــركا وأوروبـــا) ، فـــإن نظريته لم تتعارض مع فكرة التصادم بين الحـــضارات ، فمن وجهة نظره هذا وارد الوقوع حتى لو لم يكن مبعثه انتماء مجـــتمع إلـــى التاريخ أو وجوده خارجه ولعل كاجان يحاول استخلاص بعض النـــتائج مـــن نظـــريته حينما يتساءل : هل أوروبا ما بعد التاريخ كفيلة بتغيير مجـــرى الـــتاريخ أم ستكون محدودة الأثر ؟ ويجيب كاجان بقوله إن على قادة

أمريكا أن يدركوا أن أوروبا ليست في وضع يمكنها من تقييد أمريكا ، ومن ثم علـيها أن تـتجاوز هذا الإحساس غير المبرر بالقلق الناجم عن شعور بالقيد ، ووقتئذ سوف يكون بوسعها إظهار تفاهم أكبر لمشاعر الآخرين .. سوف يكون بوسعها إظهار مزيد من السماحة وإبداء الاحترام لفكرة التعددية ، ولحكم القانون ، ولمحاولـة بناء رأسمالي سياسي دولي ، وبإيجاز يتعين على أمريكا أن تظهر اهتماماً أكبر بآراء بقية البشرية .

١٤ - محمَّد خاتمي ، ١٩٩٣ وأطروحة حوار الحضارات : [٢٧]، [٢٨]

لم يكن محمَّد خاتمي هو أول من طرح هذه الفكرة ، بل من الثابت أنها طُـرحت مـن قـبل مفكـرين آخرين مثل جارودي في السبعينيات من القرن العـشرين. ويعترف خاتمي في مستهل أطروحته بأننا نعيش في عصر تفرض فيه الحضارة الغربية سيطرتها ، ويدعو خاتمي إلى استبدال فكرة المواجهة بين الحـضارات بالدعـوة إلى الحوار بين الثقافات والحضارات ، لكن ثمة معوقين يحـولان دون تحقـيق هذا الحوار : الأول تاريخي والآخر عصري . إن بيننا وبـين العـالم المـسيحي ذهنية تاريخية مروعة ، لاسيما في أعقاب الحروب الـصليبية . وقد تشكلت حالة من عدم الثقة والتشكيك بين المسلمين والمسيحيين تحـولت مـع مـرور الزمن إلى مجموعة ترسبات سادت الأذهان في العالمين الإسـلامي والمـسيحي ، علماً بأن هذه الحالة تكمن بالدرجة الأولى في العالم المـسيحي . والسبب هو أن المسلمين في كل الأحوال يؤمنون بعصمة نبيي الله موسـى وعيـسى (عليهما السلام) الأمر الذي يمهد سبل الحوار مع المسيحيين واليهود . في حين أن المسيحيين قد يحملون نظرة سلبية على نطاق أوسع إزاء الدين الإسلامي والمسلمين ، وهذه الذهنية السوداء والظلامية تجعل من الحوار عملـية صعبة وعسيرة . ويذهب خاتمي إلى أن المعوق العصري فيتمثل في " الاستعمار "، فبعد استقرار الحضارة الغربية كان ظهورها في العالم ، وللأسف، علـى شـكل " الاسـتعمار " ، إذ أن أصحاب المصالح الاقتصادية والسياسية والعسكرية تجاوزوا حدودهم الوطنية بقصد السيطرة على العالم ، ولتحقيق هذا الهـدف أباحـوا لأنفسهم استخدام كل الوسائل ، ومنها إثارة مساوئ التاريخ في الأذهان ، ليس فقط للإلقاء على الخلافات بين المسيحيين والمسلمين وكذلك بين

المـذاهب الإسـلامية نفـسها ، ليـتمكن المستعمرون ، في ظل هذه الخلافات والنـزاعات مـن الوصـول إلى مصالحهم غير المشروعة . ويعتقد خاتمي أن الـتغلب على هذين المعوقين يجب أن يتم من خلال محورية مشتركة للمفكرين المسيحيين والمسلمين بغرض التعارف والمعرفة المتبادلة في مختلف المجالات للوصول إلى الهدف المشترك الذي يحتاج إليه العالم الإسلامي والعالم الغربي ، ويتمـثل ذلـك فـي ملء الفراغ المعنوي (الديني) الذي يعتبر السبب الأساسي للأزمـة الموجـودة فـي العـالم ، والأداة الرئيسية للتعامل في هذا الحوار هو " المنطق " .

ويخلـص خاتمـي - فـي رؤيته - إلى أنه ينبغي على المفكرين في العالمين الإسلامي والمسيحي ، بل جميع مفكري العالم ، فتح جسور الحوار فيما بيـنهم بعـد إزاحـة الحجب وحواجز التعصب عن الأذهان ، وباعتماد الفكر والمـنطق لتحقـيق عالم يعمه السلام ، تحترم فيه حقوق الإنسان ، وكذلك قيمه المعـنوية والدينـية ، وبالحيلولة دون إهدار حقوق الإنسان تحت أقدام أصحاب المصالح والقدرات الاقتصادية والسياسية .

١٥ - كاي حافظ Hafez, 2000 وأطروحة الإسلام والغرب وإمكانية الحوار:(٢٩)

يتـساءل حـافظ هل يتعارض الإسلام مع الغرب ؟ إن خطورة نظرية هنتنجـتون عن صراع الحضارات تكمن في أنها تعيد إلى الشعور الجمعي في الحاضـر فعَّالية التناقض القديم بين الشرق والغرب ، كما أنها تستعرض توابع هذا التناقض على صعيد السياسة الدولية . ويظهر التاريخ المبكر لعلاقة العالمين الإسلامي والغربي أن الهوية الثقافية الجمعية (القومية) قد تمت في كليهما على حساب الاستعداد للتواصل الثقافي والحضاري الدولي . ولم يُعدَّ من قبيل التخيل أن صـار ذلـك باعثاً على نشأة الخلافات بينهما في مجال السياسة الخارجية . ويعتقد حافظ أن نهاية الحرب الباردة أحدثت فراغاً إيديولوجياً ووجدت السياسة الغـربية نفـسها أمـام أزمة وظروف صراع جديدة ، ومن ثم صارت صورة الإسـلام المعادي للغرب علاوة على الخطر الدائم من القنبلة النووية الإسلامية همـا إحـدى اسـتراتيجيات حلـف الناتو الأساسية . ويتوقع حافظ أن سياسة الاسـترخاء والحوار السياسي بين الإسلام والغرب هي النموذج البديل للحرب

الباردة . إن علاقات الإسلام والغرب تصاغ من منظور أن الغرب هو منظومة من الإلحاد والأنانية والاستهلاك في مقابل توسعية الإسلام المتطرف . هكذا تبدو إيديولوجيا الخلاف بين الإسلام والغرب ويمكن تحييد تلك الخلافات والرؤي المتبادلة باتباع سياسة سلام . ويذهب حافظ أن تجارب الماضي أثبتت أن الحوار بين الأديان لا يحقق نتائج جديدة مؤثرة ، ذلك أن الاعتراف بدور الإسلام في بناء الثقافة الأوروبية والتاريخ الإنساني يستلزم إعادة النظر في الصورة المغلوطة والسلبية عن الإسلام والتي تنشرها وسائل الإعلام الغربية ذات الجماهيرية الكبيرة ، وفي الدول الإسلامية وكما حدث في الغرب لا تتوفر لدى التيارات الأصولية الدينية السنية الجادة والاستعداد للدخول في حوار مع الغرب . ويذكر حافظ أنه من وجهة النظر الغربية وعلى أساس التوزيع غير المتكافئ للقوى بين الغرب ببلدانه الصناعية والشرق ببلدانه الإسلامية النامية ، لا يرى الغرب ضرورة ملحة للدخول في حوار مع الشرق . وعلى النقيض من ذلك فقد فقدت الدول الإسلامية قدرتها على المناورة بين أقطاب العالم أو نهج سياسة الاستفادة من تعارض مصالح القوى الكبرى بعد أن انتهت الحرب الباردة، وعندما وجد تيار الإسلام السياسي نفسه أمام منعطف الطريق ، تزايد الإحساس المغالي فيه بأن الغرب يركز الآن على العالم الإسلامي . وإن كانت رؤية حافظ المتشائمة فإن المستقبل يحمل في طياته تغييراً إيجابياً ، تؤكده بعض الأصوات الحرة التي تنطلق في أوروبا وأمريكا تتحدث عن مبادئ الإسلام وإمكانية التحاور معه ، كذلك فإن تهميش العالم الإسلامي – حتى لو كان متشرذماً – أمر غير واقعي وغير منطقي في إطار العلاقات والتبادلات الاقتصادية .. فلنتفاعل بإمكانية الحوار رغم كثرة المعوقات.

١٦ – روجيه جارودي ، ١٩٧٧ وأطروحة حوار الحضارات : (٣٠)

استنتج جارودي في كتابه " حوار الحضارات " أن الغرب " عرض " وأنه ينمو متألهاً بتوسع المنطق الأرسطي العقلي والعملي ، وحسب تصور جارودي فإن مطلب " حوار الحضارات " يهدف إلى الإسهام – على الصعيد الثقافي – في بناء نظام عالمي جديد . ويؤكد جارودي على أن المشكلة الأساسية في الثقافة المعاصرة هي القضاء على التصور التسلطي في الثقافة الغربية ،

وأن نـــتطلع بأسئلتنا إلى حكمة العالم اللاغربي ، وقد أصبحت المشكلات تطرح مـــن الآن علـــى المستوى العالمي ولا يمكن أن تحل إلا على المستوى العالمي وذلك بالانخراط في حوار حضارات حقيقي مع الثقافات غير الغربية . ويكشف جارودي عن النظرة الغربية للعالم الثالث إذ يقول : ولئن حسبنا أننا نملك وحدنا الحقـــيقة بحسب موقفنا المستمر بوصفنا " غربيين " بدا لنا أن " الآخرين " الذين لا يرتبطون بالغرب بدائيون سيئو النية ، أو مرضى ، وأن واجبنا هو أن نهب لبرئهم أو قمعهم ، وهنا تتأكد حقيقة وصف السياسة الغربية بأنها تكيل بمكيالين ولا تنظـــر إلى الآخر بنفس النظرة الشمولية التي تتوحد معه من منطلق ومبدأ إنساني عام، وتنحرف وتنحاز باتجاه تأجيج الصراع العنصري بين الحضارات.

ولكـــن جـــارودي يرى أن اللقاء بين الحضارات أمر ممكن وأن النماذج القديمة لأكبر دليل على ذلك ، إن نظرة جارودي التي تستوحي الانفتاح والحوار الغربي مـــع ســـائر الحـــضارات ترى أن المشكلة تتحدد في إحداث تغيير في النموذج الغربـــي في علاقته مع الطبيعة بفضل حكمة الصين وأفريقيا والهند والإسلام . إن جـــارودي يسعى – على الصعيد الثقافي – إلى انفتاح على آفاق لا نهاية لها فـــي المـــنظور الذي من شأنه إحداث تجديد في الثقافة الغربية ، معتقداً في أن استمرار اتباع المنهج المكيافيللي من حيث استخدام السيطرة الرأسمالية قد دمّر كل شيء .

مراجع الفصل الثاني

١ - تـوماس كـون (مؤلف) ، شوقي جلال (مترجم) ، (١٩٩٢) ، بنية الثورات العلمية ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ١٦٨ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .

2 - Danzin, A., (1997), The Philosophy of Instability Seen through Complexity, Club of Rome, Unpublished Draft of the Conference.

3 - Huntington, S. P., (1993), The Clash of Civilizations?, Foreign Affairs, Summer.

4 - Huntington, S. P., (1996), The West Unique not Universal, Foreign Affairs, Nov.

5 - Huntington, S.P., (1996), The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order, Simon & Schuster, New York.

6 - Huntington, S. P., (2002), Age of the Islamic Wars, Newsweek.

٧ - محمّـد خلـيفة حسن ، (٢٠٠٠) ، مقدمة كتاب " الإسلام والغرب وإمكانية الحوار " ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ص ٨ .

٨ - عـبد الـوهاب المسيري ، (١٩٩٧) ، في نهاية التاريخ وصراع الحضارات ، المؤتمر الدولي حول صراع الحضارات أم حوارات الثقافات ، منظمة تضامن الشعوب الأفريقية والأسيوية ، القاهرة ، ١٠-١٢ مارس ١٩٩٧ .

٩ - محمّد السماك (١٩٩٥) ، موقع الإسلام في صدام الحضارات ، مجلة الاجتهاد ، السنة الـرابعة ، العـددان ٢٦-٢٧ ، شـتاء - ربـيع ١٩٩٥ ، ص ص ٣٠٦-٣١٣ .

١٠ - وحيد عبد المجيد (١٩٩٣) ، حوار بجريدة الحياة ، ١٧ أغسطس ١٩٩٣ .

١١ - مـيلاد حـنا وأحمـد إبراهيم (١٩٩٥) ، صراع الحضارات والبديل الإنساني ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، الأهرام .

12 - Fukuyama, F. (1992), The End of History and the Last Man, New York, Free Press.

13 - Fukuyama, F. (2002), History Started Has Again, Policy, June/August.

١٤ - ماهر الشريف (١٩٩٧) ، أطروحتا نهاية التاريخ وصدام الحضارات ، المؤتمر الدولي حول صراع الحضارات أم حوار الثقافات ، منظمة تضامن الشعوب الأفريقية والأسيوية ، القاهرة ، ١٠-١٢ مارس ، ١٩٩٧ .

١٥ - المرجع السابق .

16 - Hadar, L. (1993), What Green Feril?, Foreign Affairs, Spring.

17 - Barber, B. (1995), Jihad VS. Mc World, New York, Times Books.

18 - Esposito, J., (1998), The Islamic Threat: Myth or Reality?, 3rd Ed., New York, Oxford University Press.

19 - Kaplan, R. (1996), The Ends of the Earth: A Journey at the Dawn of the 21st Century, New York, Randon Howse.

20 - Ohmae, K., (1995), The End of the Nation State: The Rise of Regional Economics, New York, Free Press.

٢١ - فريد هاليداي (١٩٩٧) مؤلف ، محمّد مستجير (مترجم) ، الإسلام وخرافة المواجهة : الدين والسياسة في الشرق الأوسط ، مكتبة مدبولي ، القاهرة .

22 - Hunter, S. (2002), The Future of Relations Between Islam and The West, Indiana University Press.

23 - Ali, T. (2002), The Clash of Fundamentalisms: Crusades, Jihads and Modernity, Amazon Com.

24 - Gerges, F. (1999), America and Political Islam: Clash of Cultures of Clash of Interests, Cambridge University Press.

25 - Fuller, G. E. & Lesser, I. O., (1995), A Sense of Siege: The Geopolitics of Islam and the West, Santa Monica, CA: Rand.

26 - Kajan, R. (2002), The Power and Weakness, Policy Review, June.

٢٧ - سيّد صادق حقيقيت (٢٠٠١) مؤلف ، السيد علي الموسوي (مترجم) ، حوار الحضارات وصدامها ، دار الهادي للطباعة والنشر ، بيروت .

٢٨ - محمّد خاتمي (٢٠٠١) ، الإسلام والعالم ، مكتبة الشروق ، القاهرة .
٢٩ - كـاي حـافظ (٢٠٠٠) مؤلـف ، صلاح محجوب (مترجم) ، الإسلام والغرب وإمكانية الحوار ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة .
٣٠ - روجيه جارودي (١٩٨٦) مؤلف ، عادل العوّا (مترجم) ، في سبيل حوار الحضارات ، الطبعة الثالثة ، منشورات عويدات ، بيروت .

الفصل الثالث

العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى

(ثقافة الحياة .. وثقافة الحوار)

يقول تشارلز سنجر Charles Singer تكونت الحضارات معتمدة كل منها على الأخرى بصورة ما ، وهي في الحقيقة ليست إلا أدواراً حضارية في حركة واحدة في تطور البشرية ، وأنه ينبغي لنا – إذا أردنا أن نفهم الدور الأوربي في حركة التطور الحضاري – أن نرجع إلى أصوله ، وهو أمر لا يمكن تحقيقه إلا من خلال قراءة متأنية للقرون الوسطى . هكذا يبدو سنجر منصفاً ، إذ لا يمكن فهم التكوين الحضاري الأوروبي بموضوعية دون الرجوع إلى دور العرب والمسلمين . وحتى نهاية القرن الثامن عشر ، لم تكن أوروبا وغيرها من المنتمين لأي حضارة في العالم تشك في تفوق الحضارة الإسلامية وتميزها وعطائها الإنساني في مختلف فروع العلم والمعرفة ، إلى أن شهدت بدايات القرن التاسع عشر طفرة علمية (معتمدة على الميراث العربي والإسلامي) أوروبية ، صاحبها محاولات استعمارية لإخضاع العرب الذين يمثلون – من الناحية التاريخية – العدو الذي استطاع صد أطماعهم في آسيا وأفريقيا . فلم يغيب عن ذاكرة أحد وقتئذ انتصار العرب على الرومان في النصف الأول من القرن السابع إبان الفتوحات الإسلامية الأولى في الشام ، ثم في مصر وشمالي أفريقيا . وفي أوائل القرن الثامن استولوا على أسبانيا ، وظل العرب محاصرين لأوروبا من حدود سمرقند إلى أسبانيا أكثر من ثمانية قرون . ولم تستطع أوروبا أن تخترق هذا الحصار إلى آسيا وأفريقيا إلا بعد رحلة فاسكوداجاما إلى الهند حول رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٩٧ ميلادية . وفي إطار هذه المنظومة ، لم يستطع الأوروبيون إخفاء كراهيتهم ومشاعر العداء للعرب سواء بمحاولات السيطرة والاستعمار أو التضليل والتشويه ، حيث ذهب كثير من المفكرين الأوروبيين إلى التهوين والاستخفاف بالدور الإسلامي والعربي في الحضارة الغربية . وعلى حين يمكن القول بأن الغرب وُلد سنة ١٤٩٢ بعد رسم خرائط جغرافيا العصور الوسطى ، فإن الفترة من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١٥٠٠

مـــيلادية ، يمكـــن أن تكون الفترة التي تأسست فيها حضارة جديدة في غربي أوروبـــا متأثرة – على نحو ملحوظ – بالحضارة العربية والإسلامية التي كانت تـــشهد وقتئذ نهضة في شتى مجالات المعرفة . وعليه يمكن القول أن الحضارة الأوروبـــية في تلك الفترة – والتي أدت فيما بعد إلى عصر النهضة العلمية – كانت نتاجاً للدور العربي والإسلامي من الحضارة مترجماً إلى اللغة اللاتينية ، ولكـــن هـــذا لم يمنع من وجود تأثيرات يونانية على الحضارة الغربية، ولكنها ثانوية إذا ما قيست بالتأثيرات الأساسية والجوهرية للحضارة العربية والإسلامية

ذلك على خلاف ما يزعمه بعض مفكري الغرب من أن الحضارة انبعثت من بلاد اليونان ثم أيقظها الأوروبيون من بعدهم ، وما الحضارة العربية والإسلامية إلا الوســـيط . وإن كـــان جـــورج سارتون Sarton [1] يقول : إنه من سذاجة الأطفـــال أن نفتـــرض أن العلم بدأ في بلاد الإغريق ، لأن المعجزة الإغريقية ســـبقها آلاف الجهود العلمية في مصر ، وفي بلاد ما بين النهرين وغيرهما من البلدان . أما العلم اليوناني فكان إحياءً أكثر منه اختراعاً ، وكفى بالغربيين سوءاً إخفاءهم للأصول الشرقية التي لم يكن التقدم الهليني (الحضارة اليونانية القديمة قبل عصر الإسكندر الأكبر) مستطاعاً بدونها .

لقـــد امتدت الحضارة الإسلامية على مختلف جوانب الحياة والمعرفة ، حتـــى أنـــه فـــي يـــوم ٢٦ يناير سنة ١٩١٩ فجر أسين بلاثيوس Palacios (مستـــشرق أسباني اهتم بصفة خاصة بالتأثيرات المتبادلة بين المذاهب العالمية والـــديانات التوحـــيدية وبصفة خاصة المسيحية والإسلام) مفاجأة ، عندما تقدَّم بـــبحث استهلالي بمناسبة تعيينه عضواً في الأكاديمية الملكية الأسبانية عنوانه " الأخرويات الإسلامية في الكوميديا الإلهية " . وقد أثار هذا البحث هزة كبيرة في مختلف الأوساط العلمية في العالم كله ، نظراً لخطورة المشكلة التي أثارها وهي – تأثـــر دانتـــي بالتصويرات الإسلامية للآخرة في رائعته الخالدة : " الكوميديا الإلهـــية " ، وقـــدم بلاثيوس سنة ١٩٣٣ بحثاً قيماً عن التأثيرات الإسلامية في الفكـــر الأوروبـــي تحـــت عنوان " مفكر مسلم أندلسي يؤثر في القديس يوحنا الـــصليبي "[2] وفيه يدرس بالتفصيل مدى تأثير ابن عياد الرندي (المتوفى سنة ١٣٩٠م) فـــي يوحنا الصليبي ، المصلح الرهباني وعالم التصوف المسيحي في

القــرن السادس عشر للميلاد . كذلك يمثل دريبر Draper [٣] واحداً من أشهر علماء الغرب الذين أنصفوا الحضارة الإسلامية ، ولا تزال كلماته الخالدة دليلاً قوياً على الاعتراف بالفضل حين قال : ينبغي لي أن أنعى على الخطة المحكمة المدبــرة التـــي تحايــل بها الأدب الأوروبي ليخفي عن الأنظار مآثر المسلمين العلمـــية علينـــا . أما هذه المآثر فإنها على اليقين سوف لا تظل كثيراً بعد الآن مخفـــية عـــن الأنظار . إن الجور المبني على الحقد الديني والغرور الوطني لا يمكن أن يستمر إلى الأبد .

كـــذلك ما قاله سيديو Sedillot [٤] يمثل شهادة حق على الدور العربي الإسلامي في الحضارة الغربية حينما يقرر بشجاعة : أنه تكونت فيما بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر مجموعة من أكبر المعارف في التاريخ ، وظهرت منـــتوجات ومـــصنوعات مـــتعددة ، واختراعات ثمينة ، تشهد بالنشاط الذهني المـــدهش في هذا العصر ، وجميع ذلك تأثرت به أوروبا بحيث يؤكد القول بأن العرب المسلمين كانوا أساتذتها في جميع فروع المعرفة . لقد حاول الأوربيون أن يقللوا من شأن العرب المسلمين ، ولكن الحقيقة ناصعة يشع نورها من جميع الأرجاء .

إن المتأمل للحضارة الإسلامية ، يعتقد – للوهلة الأولى – أنها التهمت كـــل شـــيء صادفته ، ولكن الواقع أنها كانت تتخير غذاؤها تخيراً دقيقاً ، فلقد تقـــبلت كـــل مساهمة من شأنها أن تساعدها على الاحتفاظ بهويتها مهما تغيرت الظروف . ومن ثم فإنها رحبت بفنون الجدل الإغريقية ومنهج التأويل الرمزي ، وســـيكولوجية الـــزهد المسيحي كوسائل توسع بها دعامتها الأساسية . فأخذت بالطـــرائق " العقلية " التي تدعم البحث ، وظل الإسلام قروناً عديدة سمحاً بتقبل المعلـــومات والأصـــول الفنية ومختلف الأشياء وألوان العُرف والعادات من كل حـــدب وصوب ، وكذلك دأب على نبذ كل ما لم يكن من المستطاع التوفيق بينه وبين أسلوبه في التفكير والإحساس .[٥]

فلـــم يـــشهد تاريخ الحضارة الإنسانية ، حضارة مثل الإسلام ، حققت انفـــتاحاً علـــى الحضارات الأخرى ، فأثرت وتأثرت بتلك الحضارات ، بل أن علمـــاء المـــسلمين ، كانوا شديدي التواضع للعلم ، وجابوا من أجله كل البقاع

لتعلمه وتعليمه ، ولذلك بقدر عدم خلو الحضارة الإسلامية من ملامح حضارية إغـريقية .. وغيـرها ، لم تخل الحضارات الإنسانية التالية عليها من تأثيرات إسلامية واضحة لا يخطئها المتأمل الموضوعي .

وكانـت عملية التمثل الثقافي للإنتاج الحضاري الإنساني في الحضارة الإسلامية ، أشد انتقاءاً وعمقاً ، حيث ساعد على النهوض والتجديد دون إخلال بالأصالة والهوية .

ومن المحتمل أن ما يتخذه الإسلام من تسامح ورحابه صدر إزاء المادة الأجنبـية ومقدرته على تمثلها ، قد يثير في النفس شعوراً بأنه تعوذه الأصالة . ولكـن أصالة الإسلام إنما تظهر بالضبط في قدرته على تكييف الإلهام الدخيل وفـق حاجاته ، وفي خلقه إياه خلقاً جديداً يسبغ عليه طابعه الخاص ، وفي نبذه كل ما لا يقبل التكيف .(٦)

ومـن ثـم وجب علينا إن نحن شئنا أن نفهم كلا من مقومات الحضارة الإسـلامية وروحهـا ، أن لا نقـصر همنا على اقتفاء ما نقلته واستعارته من المـصادر الأجنبـية ، بل أن نقدر أثرها ومدى فاعليتها . وليس ثمة ميدان من مـيادين الخبـرة الإنـسانية لم يضرب فيها الإسلام بسهم ولم يزد ثروة التقاليد الغـربية فـيها غنى . فثمة الأطعمة والأشربة ، والعقاقير والأدوية والتداوي ، والأسلحة والدروع ونقوشها والفنون الصناعية والتجارية والبحرية ، ثم بعد ذلك الأذواق والموضـوعات الفنية ، ودع عنك الحديث في المصطلحات العديدة في الفلـك والرياضـة ، فإن قائمة تدل على المدى الكامل لمساهمة الإسلام في كل ذلـك . ولا شك أن أعظم رجال اللاهوت وأعظم الشعراء في القرون الوسطى الأوروبـية مدينون للإسلام بأكبر الفضل في ناحيتي الإلهام والمادة جميعاً . ألا تـرى إلى توماس أكونياس كيف يستخدم مذاهب ابن ميمون (المتوفى ١٢٠٤) وابـن رشـد (المتوفـى ١١٩٨) ، كما أنه يستخدم طريقة الجدل المألوفة عند المتكلمين الإسلاميين .(٧)

وكـذلك بذلت جهود شبيهة بهذه في ميدان الكيمياء القديمة Alchemy والتنجيم ، وقد ابتكر العرب المسلمون علم الجبر ، ويعد محمَّد بن موسى

الخوارزمــي أول مــن ألــف مصنفاً في الجبر والمقابلة ، وكان له السبق في اســتخدام المماســات والقواطع ونظائرها في قياس المثلثات والزوايا ، وهو ما وضــعه " أبو الوفاء محمَّد بن محمَّد بن حيى النرجاني " الذي أنشأ أول جدول للمماســات ، ومصنفاً لاستخدام الأوتار ، وشرحاً لكتاب ديو فانطس في الجبر والمقابلــة ، وفــي مجال الرياضة أيضاً نبغ أبناء " موسى بن شاكر " محمَّد ، وأحمد ، والحسن ، فقد برعوا في الهندسة والميكانيكا (علم الحيل) ، والبحث في مجــال الحركة والآلات المفرغة للهواء والموسيقى والنجوم ، ولهم كتاب متميز في مبادئ الميكانيكا وذبذبات الصوت . وفي مجال علوم الطبيعة ، صنف " ابن الهيــثم " فــي علم الأبصار والأشعة المنعكسة والمنكسرة ، وغير ذلك مما مهد لصناعة الميكروسكوب والتليسكوب ، وعلم البللورات المبكرة عموماً ، والمقربة كــذلك ، وقــد نقلت كتبه إلى اللغة اللاتينية ، وانتفع بها الأوروبيين ومن أولئك جاليلــيو . ومن علماء المسلمين في مجال " تخطيط البلدان " ، " الإدريسي " ، " زكريا بن محمود "، " ياقوت الحموي " ، " أبو الفدا إسماعيل "، " المقريزي ". وقــد كان تجار العرب أول من جاس خلال الأقطار وقطع البحار ، وكانت لهم مــشاهدات قيمة ، ولم تخل آراؤهم فيها من فوائد ثمينة وأخبار قيمة . ولأبناء " موســى بــن شــاكر " فضل كبير في الاستكشافات الفلكية ، وخصوصاً تحديد المــبادرة السنوية أي تقهقر نقطتي الاعتداليين ، ورسم مواقع النجوم على مدار الــسنة ، وقياس عرض مدينة بغداد بأنه ٢٣ درجة ، ٢٠ دقيقة ، وهو العرض الصحيح الذي استخرجه علماء عصرنا .

وإذا كان بعض مؤرخي العلم من أمثال جوستاف جرونيباوم ، يذهبون إلــى أن سيطرة الأمم على الطبيعة ، مقياس لتأخر الأمة أو وصولها إلى مرتبة الحــضارة ، وهم يعتقدون أيضاً أنه بهذا المقياس أن العالم الإسلامي لم يضرب إلا بسهم ضئيل فيها .(٨)

والواقــع أن هــذه النظرة الإسلامية للطبيعة التي لا تلهث لوضع الحياة الفيزيقية (المادية) تحت الضبط والهيمنة التقدمية ، تمثل أجمل وأرقى النظريات والفلــسفات البيئية المعاصرة ، والتي تسعى إلى التوافق والتناغم مع البيئة دون إفراط أو تفريط .

وعلـــى الـــرغم من اندثار بعض الحضارات ، كحضارة بين الرافدين ومصر القديمة والإغريقية والبيزنطية وأمريكا الوسطى ، إلا أن ثمة اتفاق على وجـــود خمـــس حـــضارات أساسية ، الإسلامية ، الغربية ، الصينية ، الهندية اليابانية ، ويضيف بعض الباحثين الروسية الأرثوذكسية كحضارة مستقلة متميزة عن سلفها البيزنطية ، بينما يعتقد باحثون آخرون ، في وجود حضارتين أخرتين همـــا الأفريقية ، الأمريكية اللاتينية . وسنحاول فيما يلي استعراض العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارات المشار إليها آنفاً .

١ - الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية :

ســـبق أن أوضـــحنا فـــي مقدمة الفصل الراهن – أن الغرب ولد سنة ١٤٩٢م ، حـــيث تم اكتشاف أمريكا وطرد المسلمين من أسبانيا ، وعلى الرغم من أن هذا لم يتحقق على نحو نهائي سوى سنة ١٦٠٩م ، لقد ولد الغرب تحت شـــعار " الاستيلاء والطرد " ولا يعني ذلك أنه لم يكن للغرب وجود قبل العصر الحـــديث ، فعلـــى العكس من ذلك ظل العالم الأوروبي ينظم ذاته عبر العصور القديمـــة . لكن ميلاد الهيمنة والسيطرة كان على النحو الذي ذكرناه سلفاً . ومن ثم فإن ادعاء هنتنجتون بأن الحضارة الغربية ترجع إلى القرنين السابع والثامن الميلادي ينطوي على مبالغة كبيرة .

فبالنظـــر إلـــى هذا التاريخ كان العالم الغربي مازال يعيش في ظلمات العصور الوسطى ، والدليل على ذلك أن أول بوادر النهضة وتباشير البعث في الحـــضارة الغـــربية كانت على يد الراهب " توما الأكويني " بعد التاريخ الذي يذكـــره " هنتنجتون " بقرون ، حيث استفاد الإكويني بشكل مكثف من إسهامات ومداخلات فلاسفة مسلمين مثل ابن رشد والفارابي وابن سينا . كذلك فإن الدليل الثانـــي هو أن مقدم الصليبيين إلى المشرق العربي في حملاتهم الأولى جاء في القـــرن العاشـــر المـــيلادي ، في وقت كان الغرب فيه يحاول جاهداً – وبنجاح محـــدود – الإمـــساك بأسباب التقدم في التنظيم والتدريب والتسليح العسكري ، وكانـــت النهـــضة بعـــيدة المنال وأبعد منها الإصلاح الديني والتحول العلماني اللاحقين ، حيث كان رجال الكنيسة يلعبون في ذلك الوقت دوراً مهماً في مجال التوجيه والتحريض وسبغ الشرعية على الحكام .[٩]

ويجـــدر الإشـــارة إلى أن الحضارة الغربية قد استعارت من الحضارة الإسلامية سواء عبر الأندلس (بعد سبعة قرون من الوجود الإسلامي هناك) ، أو بما حملته الحملات الصليبية العائدة من المشرق العربي من إنجازات الحضارة الإسلامية . ولم يكن ما أخذته الحضارة الغربية من حضارة الإسلام قاصراً على المنجزات العلمية والتقنية فحسب ، بل امتد ليشمل مختلف جوانب الفكر والأدب والفلسفة والفنون .. إلخ .

وعلى الرغم من أن مصطلح الغرب كان يعكس – من الناحية الجغرافية – غرب أوروبا وأجزاء من وسطها ، إلا أنه منذ بداية الحرب الباردة بات يشير إلـــى تحالــف استراتيجي عسكري إيديولوجي اقتصادي يضم الولايات المتحدة وكندا وأوروبا الغربية ، وهو ما يقلل من فكرة وجوده ككيان حضاري أو ثقافي متجانس . على حين أن مصطلح " الشرق " يطلق – قبل تحلل الاتحاد السوفيتي – علـــى المعسكر الاشتراكي في شرق ووسط أوروبا والدول الحليفة معه التي تطبق نظامه السياسي والاقتصادي والاجتماعي .

وعلـــى نحو أخير فإن بعض المفكرين الإسلاميين المعاصرين يطلقون كلمة " الغرب " على مجمل أوروبا وأمريكا الشمالية ، على اعتبار أنهم ينظرون إلى " الشرق " الشيوعي على أنه في نهاية المطاف نبت حضاري للغرب بمعناه الثقافي والحضاري الواسع، وبقيمه ومبادئه ومثله العليا وبنمط تطوره التاريخي.

فالماركـــسية هي في نهاية الأمر نتاج للحضارة الغربية ، وإن كانت رد فعــل علـــى بعض تجاوزات هذه الحضارة، فإنها تبقى أسيرة إطارها المرجعي وفلسفتها المادية وتفسيرها الصراعي للأحداث .[١٠]

وهـــذا ما يفسر أن كثيراً من الآراء المعاصرة السياسية والاستراتيجية (مثل فوكوياما وهنتجنتون وغيرهما) والتي انطلقت من الغرب ، اعتمدت – في المقام الأول – على مرجعية الفكر الماركسي .

ومن المهم أن نشير في هذا المقام إلى أن الغرب الذي نعنيه في الدراسة الـــراهنة يضم مكونين أساسيين هما أوروبا وأمريكا الشمالية ، فعلى الرغم من المفارقة بينهما في القرن التاسع عشر ، أصبحا يمثلان جناحا الحضارة الغربية (أوروبـــية / أمـــريكية) ، أو حضارة شمال الأطلسي . ووفقاً لهذا الأساس فإن

الغــرب يــتم تحديده على نحو جغرافي ، إلا أن هذا لا ينفي البعد الإيديولوجي للحــضارة الغربية المتمثل في المسيحية أو اليهودية ، المسيحية من وجهة نظر أخرى . كذلك فإن للغرب تجربته السياسية الاجتماعية الليبرالية التي تميزه عن غيره من المجتمعات .

وعلــى الــرغم من أن العالم الإسلامي ، كان مصدراً أصيلاً للحضارة الغــربية ، كما أوضحنا سلفاً ، إلا أن القرنين الرابع عشر والخامس عشر شهدا ظهــور علامات الابتعاد الثقافي للأوربيين عن العالم العربي – الإسلامي ، هذا التباعد والانكفاء ، لم يؤد بعد ذلك إلى قطع الاتصالات بين هاتين الحضارتين ، وإنمــا أخذت الاتصالات بينهما أشكالاً جديدة ، فانتظمت العلاقات الدبلوماسية ، واتسعت وتنوعت العلاقات التجارية . وحتى في ميدان العلوم الطبيعية ، وعلوم الطــب ، وإلــى حد ما في ميدان الفلسفة ، استمر الأوروبيون في توجههم نحو المــصادر العربية بغية الحصول على المعارف الضرورية التي تلزمهم . ومن النصف الثاني من القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن السادس عشر استؤنفت أعمال الترجمة والعلاقات الثقافية بين إيطاليا والعرب ، وإن كانت على نطــاق غير واسع . ولكن في المجال المعرفي البحت ، تنامى موقف اللامبالاة والتجاهل إزاء الفكر العربي الإسلامي .(١١)

ولكــن الــذي يمكــن استنتاجه من أحداث القرون الوسطى ، يتحدد في توجــيهن أساســيين ، حرص الغرب المسيحي على أن يبني علاقته مع العالم الإســلامي علــى أساسهما ، وهما : ضرورة الأخذ من هذه الحضارة ، والتعلم منها ، والتوجه الثاني ، اعتبارها حضارة ذات عقيدة معادية للغرب والمسيحية ، ومن ثم وجب الاستعداد لها ومحاربتها .

وتشكلت في الوعي المسيحي ، إبان القرون الوسطى ، القوالب النمطية الذهنــية عــن الإسلام ، وهي التي نشأت في كثير من جوانبها بارتباط مسبق وارتهان شرطي بنوع وطبيعة الموقف التقليدي للكنيسة من الحضارة الإسلامية. وبشكل عام فإن صورة الإسلام وحضارته المتكونة آنذاك ، وهي مزيج متناقض لمجمــوعة من المعارف المشوهة ، التي هيمنت لفترة طويلة على عقل الإنسان الأوروبــي ومــنطقه ومداركه تجاه الإسلام وحضارته . ويشير الدارسون إلى

ثلاثــة عناصر بنيوية ، أسهمت في تشكيل هذه القوالب النمطية ، متداخلة فيما بينها ، وهي : الميثولوجية ، واللاهوتية ، والعقلانية .[١٢]

أما في العصر الحديث (في الفترة ما بين القرنين السادس عشر والثامن عــشر) ، جــرت في أوروبا عملية فكرية بطيئة ، ضمن إطار دائرة ضيقة من المختصين ، في ما يتعلق بتراكم المعارف العلمية عن الشرق العربي والإسلام . ففــي القــرن الــسادس عشر حدثت تغيرات كبرى في موقف المسيحيين إزاء الإسلام . حيث أن الأوربيون بدأوا يلمسون كيف أن السبق الثقافي أصبح يتحول إلــى صفهم ، ولم يُعدَّ الأوربيون ينظرون إلى الإسلام بوصفه منافساً جدياً في ميدان العقل والعلم . حتى أن مارتن لوثر Luther (مؤسس البروتستانتية) تهكم علــى تصورات القرون الوسطى (الأوروبية) حول الإسلام . وكان لوثر واحداً من أوائل الذين صاغوا " نموذجاً " جديداً للموقف من الإسلام حيث يقول " البابا والإســلام يــشكلان – من حيث الجوهر – العدوين اللدودين للمسيح والكنيسة المقدسة " .[١٣]

وفــي الاجتماع السنوي الثاني والعشرين للجمعية الأمريكية الكثاوليكية التاريخــية ، الذي عقد سنة ١٩٤١ ألقى مارشال بولدوين Baldwin ، بوصفه رئيــساً للجمعــية ، خطاباً جاء فيه " إن الغرب ما عاد ينظر للإسلام باعتباره خطــراً علــى الحــضارة " وهو بذلك كان يصف وضعاً حديثاً كانت فيه البلاد الإســلامية كلهــا تقريباً تحت السيطرة الغربية . وذكر بولدوين مستمعيه " بأن العــالم المــسيحي ، أو أجــزاء مهمة منه على الأقل ، ظلت تواجه خطر عالم إســلامي معاد لفترة تقرب من الألف سنة تمتد من تاريخ وفاة النبي سنة ٦٣٢م حتــى تاريخ انهيار آخر هجوم عثماني أمام فيينا سنة ١٦٨٣م " ثم أضاف " إن الإسلام كان الدين الوحيد الذي جاء عقب المسيحية وغنم منها مناطق شاسعة ، وكبدها هزائم عسكرية كبرى " .[١٤]

هكــذا تــبدو النظرة الحديثة التي نظر بها الغرب للشرق الإسلامي منذ الــبداية وحتــى سنة ١٦٨٣ ، نظرة عداء دفاعي في البداية تحولت إلى عداء هجومــي فيما بعد . وقد تأصلت هذه الروح العدائية للإسلام من قبل الغرب في الحــروب الــصليبية (١٠٩٥ – ١٢٩١م) ، والتي انطلقت شرارتها الأولى في

السابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٠٩٥م بالخطبة التي ألقاها البابا إربان الثاني Urban II في حشود المستمعين في أوفريني بكليرمون في جنوب فرنسا.

وقد تركت الحروب الصليبية آثاراً سالبة على المجتمعات العربية الإسلامية ، حيث عانت هذه المجتمعات من التدهور الاجتماعي على صعيد النظام القيمي والأخلاقي ، وتوترت العلاقات بين المسلمين والمسيحيين ، لاسيما في بلاد الشام . ومن ناحية أخرى ، أدت الحروب الصليبية إلى اختلال القوى الاجتماعية في بعض المناطق ، إذ تحول المسلمون إلى أقليات في المدن التي احتلها الصليبيون من جراء المذابح الصليبية والهجرات الضخمة التي نجمت عنها . كما أن بعض المسلمين آثروا أن يرتدوا عن دينهم فاعتنقوا المسيحية خوفاً على حياتهم . أما التأثير الاقتصادي للحروب الصليبية في العالم العربي الإسلامي ، فقد اتخذ أبعاداً غير منسقة . فبينما عانت الزراعة من التدهور والتخريب في بعض المناطق ، ازدهرت التجارة الداخلية والخارجية في مناطق أخرى ، وبينما ازدهرت بعض المدن الواقعة على طرق التجارة البرية والبحرية اضمحلت مدن أخرى كانت مزدهرة قبل عصر الحروب الصليبية . وخلاصة القول ، لقد كانت الحروب الصليبية صداماً عسكرياً ومواجهة حضارية طويلة مضنية بين الشرق العربي الإسلامي والغرب الأوروبي الكاثوليكي . وقد بدأت هذه المواجهة في وقت كانت الحضارة العربية الإسلامية قد بلغت أقصى مراحل نضجها وتطورها . وفي خضم الصراع تجلت عوامل الضعف في العالم العربي الإسلامي ، وتجلت في الوقت نفسه عوامل القوة التي ساعدته على الصمود أمام الغزوة الصليبية والانتصار عليها . وإذا لم تكن الحروب الصليبية هي السبب في توقف الحضارة العربية الإسلامية وجمودها ، فإن تلك الحروب التي استمرت أكثر من قرنين من الزمان ، كانت من أهم عوامل استنزاف قوى الدفع الإبداعية في الحضارة العربية الإسلامية .[١٥]

ولكن ذكريات المسلمين عن الهيمنة الغربية لا تقف عند حدود الحروب الصليبية ، تلك الحروب التي عبرت - كما أوضحنا سلفاً - عن صراع حضاري بين الإسلام والمسيحية الكاثوليكية ، ورغبة الأخيرة في الهيمنة

والسيطرة على العالم الإسلامي . ولكن الخبرة الأحدث عهداً تتجلى مع الحقبة الاستعمارية التي بدأت منذ القرن السادس عشر وحتى ما بعد سنة ١٩٤٥ .

وعلى الرغم من أن التجربة الاستعمارية والصراعات المناهضة للاستعمار هما عاملان مهمان في تحديد تصورات المسلمين المعاصرين عن الغرب ، فإنه ليس بالإمكان إغفال أثر هاتين العمليتين في التفكير الأوروبي ، لقد أثبت الإسلام ، من حيث هو ثقافة ، قدرة على المقاومة النسبية للتغلغل الاستعماري . كما أن البعثات التبشيرية المسيحية بدأت خلال الحقبة الاستعمارية اختراقاتها المحدودة داخل الأراضي الإسلامية . وتعجل الأوربيون تفسير هذه المقاومة باعتبارها دليلاً على التعصب الديني والسياسي .(١٦)

على أن الأمر بلغ ذروته باقتطاع جزء من قلب العالم الإسلامي وإقامة كيان يهودي به ، وتوسعت إسرائيل مع الزمن وبدعم عسكري غربي جعلها دائماً في موقع المتفوق عسكري على الدول العربية الإسلامية . ولم تتخل أوروبا عن إسرائيل طيلة صراعها الطويل مع العرب ، كما أن هذا الدعم الغير محدود يمثل أحد ثوابت السياسة الأمريكية في الإدارات المتعاقبة . وإذا كان الاستعمار – بمفهومه التقليدي – مآله عملياً أن ينتهي ، فإن إسرائيل تظل البؤرة الصليبية في قلب العالم الإسلامي .

أما إذا أردنا الحديث عن المكون الثاني للغرب وهو الولايات المتحدة الأمريكية ، فإن تفاعلها مع العالم الإسلامي لم يبدأ جدياً حتى أوائل القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من أن الانطباعات الذهنية المتولدة عن قرون الخبرة الأوروبية تمثل جزءاً مهماً من النهج الفكري تجاه الإسلام على جانب الأطلسي، إلا أن نظرة بعض الإسلاميين للولايات المتحدة كانت مغايرة حتى عقد الستينيات من القرن العشرين ، حيث مثلت بالنسبة لهم نموذجاً للتقدم وشيوع قيم الحرية والديمقراطية . ولم تلبث هذه النظرة كثيراً حتى انهارت أمام أطماع الولايات المتحدة الاستعمارية وأساليب الكيل بمكيالين في التعامل مع القضايا الدولية .

ويجدر الإشارة إلى أن الإسلام ينتشر في الولايات المتحدة على نحو ملحوظ ، خاصة في العقود الأخيرة ، حتى أصبح الديانة الثانية من حيث الحجم

بعد المسيحية نتيجة لهجرة أعداد كبيرة من المسلمين وتحول كثير من الأمريكيين السود (الأفارقة) إلى الإسلام .

وفي إطار الحديث عن الهيمنة الاستعمارية للغرب ، لا يغيب الجانب الاقتصادي الذي مثل دائماً هدفاً من أهداف الاستعمار ، زاد من تأثيره ظهور النفط في مناطق كثيرة من العالم العربي الإسلامي .

وعندما شهدت أوروبا نهضتها الحديثة ، وأخذ مجرى التأثير الحضاري ينطلق من الغرب إلى الشرق ، لم يتردد المسلمون كثيراً في الأخذ بأساليبها والاستفادة من مناهجها وإنتاجها ، وربما حالت بعض الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في بعض مناطق العالم الإسلامي ، دون الاستفادة المبكرة من النهضة الحضارية الغربية ، لكن هذا لا يعبر عن رفض للتقدم ، بقدر ما يعبر عن عجز في الإمساك بها واللحاق بركبها .

وأي كان الجدل الدائر حول علاقة الإسلام بالغرب ، فإن ثمة أبعاد أخرى لهذه العلاقة ، تتجاوز الإيديولوجية وترتبط في كثير من جوانبها بالدور المركزي الذي تؤدي المصالح والأهداف المتعلقة بالقوة . فلا يمكن تجاهل توزيع القوة والثروة والنفوذ العالمي في هذا الصراع . إنها حضارة الفقير والضعيف وحضارة الغني والجبار ، فهو نزاع بين أولئك الذين يحوزون القوة وأولئك الذين لا يملكونها ، بين أولئك الذين يتحكمون في مصير العالم وأولئك الذين هم موضوع التحكم .

إن جزءاً جوهرياً من أي تحليل للعلاقة بين حضارة الإسلام وحضارة الغرب ينبغي أن يبنى على الربط بين نظم الاعتقاد والقوة .

٢ - الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية :

على الرغم من العزلة النسبية التي أحاطت بتطور حضارة الصين ، إلا أنها تقف وسط حضارات العالم العظيمة في تكوينها وإنجازاتها ودلالتها . فقد تطورت الصين بنفسها وساعدتها على ذلك عزلتها الجغرافية – كان الشعب الصيني في تراثه التقليدي يعتبر نفسه مركزاً للكون . وكلمة شينج – كيو Chung – Kuo وهي الاسم الصيني للصين ، تعني حرفياً " مملكة الوسط " فقد

عـدَّ الـصينيون أنفسهم ، على نحو ما فعل الإغريق ، جزيرة من الثقافة وسط بحر من التوحش والهمجية .

لعبت ثلاث ديانات الدور الرئيسي على مدى ثلاثة آلاف سنة من التاريخ الـصيني . وهـذه الـديانات هـي : الكونفوشـية ، والتاوية ، والبوذية . أما الكونفوشية والتاوية فهما ديانتان قوميتان أصيلتان في الصين ، وجدتا قبل دخول الـبوذية إلـيها من الهند بحوالي خمسمائة سنة . وحتى قبل ظهور الكونفوشية والـتاوية كانت هناك ديانة أقدم (تفرعت عنها الكونفوشية والتاوية كل بطريقتها الخاصـة) . وسيطرت هذه الديانة القديمة على الصين لما يقرب من ألف سنة . وهكـذا امتد تاريخ الدين في الصين لأكثر من ألف عام ونصف الألف قبل أن تواجه أفكاره تحدي التراث الأجنبي .(١٧)

وليس أدل على قوة الثقافة الدينية الصينية من أن البوذية ، حينما وفدت إلـيها تطبعت بالثقافة الصينية ، وظهرت المدارس البوذية الصينية الخالصة ، لكن هذا لم يمنع من وجود تأثير قوى للفكر الهندي وتجربته الدينية على عقول الـصينيين حتى أنه غير من الكونفوشية والتاوية ، اللتين عادتا إلى الظهور في شـكلين جديرين هما : الكونفوشية الجديدة والتاوية الجديدة الذين يمثلان جوهر الحـضارة والثقافة الصينية . وتقوم الفلسفة الصينية على أهمية المحافظة على الحـياة الإنـسانية العظـيمة ورعايتها . من خلال فهم جيد للعالم وجعل الناس عظماء .

ولكون المرء عظيماً وجهان ، في الفكر الصيني ، فهو في المقام الأول يتـضمن " عظمة داخلية " هي شموخ الروح ، منعكساً في سلام الفرد ورضائه بكمالـه . وهو يتضمن ثانياً " عظمة خارجية " ، تظهر في القدرة على العيش بـصورة جيدة على الصعيد العملي ، مع الشعور بالعزة في السياق الاجتماعي الـذي يـوجد فيه المرء في حياته اليومية المألوفة . وهذا المثل الأعلى يسمى " بالحكمة في الداخل والنبل في الخارج " ويقول حكيم الصين لاوتسو Laotzu " إنـه مـا لـم يعـرف المرء ويحي وفقاً لقوانين الكون الداخلية التي يسميها (الثوابت) فإنه ينتهي بكارثة " ، ويسمى معرفة الثوابت بالاستنارة . ومن يعرف الـثابت يتحـرر ، ومن يتحرر يخل من الهوى والتحيز ، ومن يخل من الهوى

والتحيز يتسع إدراكه ، ومن يتسع إدراكه يصبح رحب الأفق ، ومن يصبح رحب الأفق يكن مع الحقيقة ، ومن يكن مع الحقيقة يستمر إلى الأبد ، ولا يعرف الفشل على امتداد عمره . أما الجهل بالثابت والتصرف على نحو يفتقر للبصيرة فهو مضي إلى الكارثة .[١٨]

هكذا تبدو حضارة وثقافة الصين لا تخل من التعاليم الطيبة ، وتؤكد على الأخلاق والحياة الروحية ، فالروح وليس الجسم ، هي الجانب الأهم في الوجود البشري .

وتذكر التواريخ الصينية أن أول دخول الإسلام في الصين ، كان في أيام أسرة تانج ، التي عاصرت البعثة المحمدية ، وعصر الراشدين وعصر بني أمية . وكان القادمون إلى الصين من المسلمين تجاراً دخلوا بلاد الصين من الجنوب أيام بني أمية ، فاستقروا في كانتون حيث أنشئوا لأنفسهم جالية زاهرة ، واتخذوا المساجد ، وأطلق عليهم أهل الصين لقب هوى هوى . واستمر الإسلام يتوسع في الصين ، حتى قرر ماركو بولو الذي عاش في الصين فيما بين سنة ١٢٧٥ ، ١٢٩٢ أن أعداداً كبيرة من المسلمين تعيش في إقليم يونان . وكذلك وصف ابن بطوطة الذي زار الصين في منتصف القرن الرابع عشر ، ترحيب إخوانه المسلمين في مدن الصين به ، وقرر أن كل مدينة من مدن الصين فيها هي للمسلمين ، ينفردون بسكناه ولهم فيه المساجد العامرة . وتمتع الإسلام في الصين بقبول حسن ، ولقي المسلمون معاملة طيبة طوال عصر أسرة تانج ، التي انتهت سنة ٩٦٠م ، فلما خلفتها أسرة سونج ، ازدادت التجارة ازدهاراً ، وتزايد توافد المسلمين على الصين ، وأصبحت كل تجارة الصين مع بقية بلاد الشرق وأوروبا في أيدي المسلمين ، فعرفت أوروبا حرير الصين وخزفها وتحفها وصناعاتها الدقيقة عن طريقهم ، وحملوا إليها متاجر أوروبا وغرب آسيا ، ونظراً لما امتاز به المسلمون من خلق طيب ، وأمانة والتزام بالقوانين ، فقد احترمهم شعب الصين ، وزاد انتشار الإسلام تبعاً لذلك . ويقرر المبشرون الكاثوليك في القرن التاسع عشر ، إن عدد المسلمين في الصين زاد زيادة عظيمة ، ويردون هذه الزيادة إلى أن عدد المسلمين في الصين سنة ١٩٥٠ خمسون مليوناً ، أي واحد إلى اثني عشر من سكان الصين ، أي أن الصين

تجــيء الخامــسة فــي أعــداد المسلمين فيها بعد إندونيسيا وبنجلاديش والهند وباكستان .[١٩]

والمتأمل في تاريخ العلم يلاحظ أن الصين - بوجه عام - تخلفت نسبياً عن العرب والغرب منذ حوالي القرن الحادي عشر ، ويشير كثير من الباحثين الموضوعيين إلى أن العرب المسلمين لعبوا دورا مهماً في نقل الأفكار الرياضية للعلــم الصيني خلال عصر يوان Yüan (١٢٦٤-١٣٦٨م) ومع أن الصينيين أســهموا كثيــراً في تقدّم الرياضيات (ولاسيما في علم الجبر) والفلك ، فإن هذه المساهمات لم تكن تقع على الطريق المؤدي إلى علم الفلك الحديث على الصورة التــي اتخــذها في الإسلام والغرب . أما علمي الهندسة والمثلثات ، باعتبارهما يقومان على الاستنباط المنظم للبراهين والأدلة ، فلم يكن لهما وجود في الصين علــى الــرغم من أهميتهما في التقدم عند وضع النماذج الفلكية . أما الفلكيون العرب فكانوا قد أعدوا أزياجاً كثيراً تسجل الإحداثيات الفلكية لكثير من المواقع فــي كل أنحاء الشرق الأوسط بسبب اختلاف المواقيت تبعاً لاختلاف المواقع . وأدت عيوب الصين في هذا المجال إلى أن يستخدموا فلكيين مسلمين في المكتب الــصيني للفلك منذ القرن الثالث عشر فصاعداً دون انقطاع . وقد أسس مكتب إســلامي خاص للفلك في الصين سنة ١٣٦٨م كان ما يزال يعمل حينما وصل المــسيحيون فــي القرن السادس عشر ، وعندما وصل المسيحيون كانت هناك أربعــة نظــم فلكية منافسة : النظام الصيني التقليدي ، والنظام الإسلامي (القائم علــى الــتقويم القمــري) ، والنظام الأوروبي الجديد ، ونظام المكتب الشرقي الجديد.[٢٠]

لذا فإن نيدم Needham لاحظ أن التأثيرات الرياضية العربية كانت لها فــرص لا شــك فيها للاندماج بالتراث الصيني . كذلك نلاحظ أن الصينيين لم يبرعوا مثل المسلمين في علم البصريات ، خاصة فيما يتصل بتطوير التلسكوب والمجهر ، وهما الآلتان اللتان لعبتا دوراً أساسياً في تطور علمي الفلك والطب.

وقــد كان العالم العربي المسلم ابن الهيثم (المتوفى سنة ١٠٤٠م) ساهم بنــصيب وافــر فــي تطوير هاتين الآلتين وكانت أعماله قد أرست أسس علم البصريات الحديث ، وإن كان نيدم يرى أن الصينيين في أوائل العصر الوسيط

كانـــوا على إطلاع على ما كان يجري في علم البصريات عند العرب ، إلا أنه يعتـــرف بأنهم عانوا كثيراً من افتقارهم للهندسة الاستنباطية اليونانية التي كان العرب قد ورثوها عن اليونانيين ، وطوروها .[٢١]

وهكـــذا يبدو واضحاً ، وجود علاقات علمية وحضارية بين الحضارتين الإســـلامية والصينية ، وكانت الأخيرة قد نهلت كثيراً من الأولى مثلما أوضحنا فـــي الـــنماذج السابق الإشارة إليها . لكن هذه العلاقات ليست على النحو الذي افترضه هنتنجتون في كتابه " صدام الحضارات : إعادة صنع النظام العالمي " . يـــستدل " هنتنجـــتون " لتبرير دعواه بالمواجهة التي حدثت أثناء مؤتمر حقوق الإنـــسان في فيينا بين الغرب وبين اتحاد الدول الإسلامية الكونفوشية الرافضة لمـــبدأ العالمية الأمريكية ، ومما يثير العجب استناد " هنتنجتون " إلى ملاحظة ضعيفة في دعم رؤيته وهي أن الصين تبيع مكونات صواريخ لإيران ، وتساعد باكـــستان على إنتاج صواريخ . وبهذا التحليل السطحي يربط " هنتنجتون " بين الحـــضارة الإسلامية والحضارة الصينية ، ويعتبرهما معاً مصدر التهديد القوى والمباشر لمستقبل الحضارة الغربية . ويرى أن المواجهات الأكثر عنفاً ستجمع المـــسلمين بباقـــي الحـــضارات (وخاصة الكونفوشية) ضد الحضارة الغربية ، وســـيكون الانقـــسام الأساسي على المستوى العالمي – من وجهة نظره – بين الكبـــرياء الغربـــي واللاتـــسامح الإسلامي والرغبة في تأكيد الذات من جانب الـــصين. ويؤكد وجود محور تعاوني إسلامي كونفوشيوسي يجمع بين مجموعة مـــن الـــدول الإســـلامية والكونفوشيوسية ، ولذلك يطالب بمنع هذا المحور من التسلح العسكري وخاصة التسلح النووي .[٢٢]

٣ - الحضارة الإسلامية والحضارة الهندية :

تعتبر الهند دولة ذات حضارة قديمة ، ويعتقد المؤرخون أنها بدأت قبل الميلاد بنحو أربعة آلاف سنة ، ومع ذلك من الصعب تقديم تطور معرفي كامل ومتسلـــسل عـــن هذه الحضارة . وثمة آراء تختلف حول حضارة الهند ، حيث يعـــتقد الـــبعض بوجـــود حضارة هندية واحدة ، بينما يذهب آخرون إلى وجود حضارات متتالية وتأثيرات متعددة .

ويـوجد في الهند ما يقرب من ٢٤٠ لغة ونحو ٣٠٠ لهجة ماعدا اللغة الفارسـية والـبهلوية والصينية والإنجليزية والسنسكريتية . وتعتبر المعتقدات الدينية في الهند أساساً لجميع النظم الاجتماعية ، فما في الهند من نظم اجتماعية ليس بالحقيقة إلا نظماً دينية .(٢٣)

وتنتـشر في الهند ديانات عديدة ، وإن لم تبلغ من الكثرة مبلغ اللغات ، فالأديـان المـشهورة فـي الهـند هي : الهندوسية والإسلام والبوذية والسيكية والمـسيحية بجـوار مـذاهب أتباعها قليلون جداً ، ولكن الذي يهمنا في البحث الـراهن هو الديانات ذات التأثير الواضح في الحضارة الهندية ، وهم الهندوسية والإسلام والبوذية . والهندوسية هو إتباع أو عبادة الإله فشنو Vishnu أو شيفا Shiva أو الإلـه شاكتي Shakti أو تجسيداتهم ، أو مظاهرهم أو أزواجهم أو ذريتهم . وهكذا يندرج ضمن الهندوسيين عدد كبير من أتباع عبادة راما وكرشنا Rama & Krishna (وهمـا تجـسيدان لفـشنو) وأتباع عبادة درجا Durga وسـكاندا Skanda وجانيشا Ganesa (وهما على الترتيب زوجة شيفا وابناه) لكن ينبغي أن نستبعد براهما Brahma وسيريا Surya أي الشمس ، اللذين كان لهمـا من قبل عبادة خاصة ومعابد خاصة ، كما ينبغي كذلك أن نستبعد قلة هم أولـئك الـذين يعتبـرون التراث الفيدي Vedic (نسبة إلى الفيدا Veda كتاب الهندوس المقدس) هو التعبير الرئيسي عن الدين ، وهو تراث أسبق من التراث الهندوسي .

وعلـى كل حال فالهندوسية تشتمل على كثرة من العبادات والفرق التي تقترب قليلاً أو كثيراً من الاندماج في تراث بالغ القدم . وعلى حين أن المفاهيم والممارسـات العملـية التـي يرعاها هذا التراث القديم تؤثر في هذه العبادات والفـرق وتـضفي عليها طابعاً هندوسياً مميزاً ، فإن هذا التراث القديم ذاته هو الحـصيلة النهائـية لمؤثرات ثرية أتت من القارة الهندية ، بحيث استوعبت في داخله جميع الآلهة المحلية ، وآلهة القبائل وكثرة من الطقوس والفلسفات .(٢٤)

ويجـدر الإشـارة إلـى أن تناول فلسفة الهندوسية على نحو تفصيلي وتحليلـي يتطلب بحثاً متخصصاً في هذه النقطة تحديداً ، ولكن – وبإيجاز شديد – تقـوم الفلسفة الهندوسية على مجموعة من المعتقدات الأساسية وهي : عبادة

قوى الطبيعة – تشخص هذه القوى بأسماء الآلهة – الاعتقاد في خلود الروح – عبادة الأجداد – الميل إلى إخضاع الطبيعة والناس والآلهة لإله واحد أقوى منها وهـــو الإله أندرا – أساس الدين أو حقيقته تنحصر في تبادل الإنسان قرابينه ، وأن تمنحه الآلهة الكثر واليسر والمطر المبارك والصحة والكنوز .

أما البوذية ، فإن موطنها الأصلي هو الهند ، ثم انتقلت من الهند إلى ما حـــولها الصين واليابان وبورما ، حتى أصبحت هذه البلاد هي الموطن الحقيقي لازدهار البوذية بعد أن تقلص شأنها في الهند .

ويعـــرف هـــذا المـــذهب على مستوى العالم باسم " البوذية " ، أما في موطنه في آسيا فيعرف باسم بوذا – ساسانا Buddha - Sasana بمعنى طريقة حـــياة أو نظـــام الواحد المتيقظ وهو البوذا . ويعرف أيضاً باسم بوذا – داهما Buddha - Dhamma بمعنـــى داهما – الحقيقة الخالدة والمقصود هنا بوذا أو جـــوتاما Gautama الذي عاش في شمالي الهند في القرن السادس قبل الميلاد (سنة ٥٥٧ ق. م) ، وبوذا هذا لقب له ، ومعناه " العالم المستنير " .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن بوذا كان نبيل الفكر قوي الروح ماضي العـــزيمة واســـع الـــصدر عـــزوفاً عن الشهوات ، زاهداً كريم النفس ، حسن المعاشرة ، بريئاً من الحقد والعدوان ، جامداً لا ينبعث فيه حقد ولا بغض ، ولا تحـــركه عواطف ولا تهيجه نوازل . وكانت البوذية في أول أمرها مذهباً خلقياً يرمـــي إلى تزكية النفس وتحررها من الشهوات ، ويدعو إلى الحب والتسامح ، والعمل بقدر ما يمكن للتخفيف من آلام الإنسان ، لا فرق بين إنسان وآخر (على عكس الهندوسية التي تؤكد على التمايز الطبقي) . ولم تهتم البوذية بالبحث عن إلـــه كمـــا هو الشأن في الهندوسية فالناس – من وجهة نظرهم – يشقوا كثيراً بالآلهـــة . ولذلك نجد تعاليم بوذا تدور كلها حول الأساس الخلقي : لا تقتل . لا تسرق. لا تشرب خمراً . لا ترقص . لا تكذب . لا تزن . لا تكن مترفاً .. إلخ. وكـــان أهم شيء اتجه إليه بوذا هو العمل على إلغاء نظام الطبقات الذي أوجدته الديانـــة الهندوســـية ، لأن الـــناس عـــنده سواسية لا فرق بين صغير وكبير ، وتفـــاوتهم يكون حسب طهارة نفوسهم وما تتحلى به من حب وعطف وتسامح نحو الآخرين .[٢٥]

والواقع أن طابع البوذية وروحها غريب تماماً عن التعصب الأعمى تجاه أولئك الذين يختلفون معها في الرأي ، وهو ما كان واضحاً في استقبال البوذية وتعاملها مع المذاهب الأخرى ، حيث لم ترفض هذه المذاهب والمعتقدات رفضاً عنيفاً ولم تدنها بغير تردد ، بل سمحت لها بالاستمرار ، وامتد الأمر لما هو أبعد من ذلك بسعي البوذية إلى ضم هذه المعتقدات والممارسات إلى المعتقدات البوذية .

وكانت الصلات بين الهند والغرب من قبل الميلاد ، حيث كان التجار العرب هم واسطة هذه الصلات تقريباً . فبلادهم قريبة من الهند تقع على بحر العرب كما تقع الهند ، وسفنهم هي التي كانت تقوم بنصيب كبير في نقل التجارة بين الهند وبين هذه البلاد ، ومن الطبيعي أن يكون التجار والبحارة العرب بحكم عملهم أكثر صلة بالهنود . وحين ظهر الإسلام ، ودخل العرب في دين الله ، كان منهم هؤلاء التجار والبحارة العرب ، فحملوا معهم دينهم الجديد إلى البلاد التي يتعاملون معها . وقد وصل المسلمون إلى الهند على ثلاث موجات مميزة ، كان وصولهم الأول إلى سواحل جنوبي الهند كدعاة للدين وتجار ، ورغم أنهم جاؤا بأعداد قليلة فقد استمر وجودهم حتى القرن الخامس عشر . والموجة الثانية لوصول الإسلام إلى الهند حدثت في عهد الحجاج بن يوسف ، حين نظم حملة ناجحة في عهد الأمويين ، قادها محمد بن القاسم سنة ٧١١م . وقد نتج عن هذه الحملة ضم السند إلى الخلافة الأموية . وكانت بلاد السند الإقليم الوحيد الذي حكمه العرب مباشرة أو الذي احتك بهم مباشرة . ورغم أنه كان إقليماً بعيداً عن الخلافة فقد كان الطريق الرئيسي الذي انتقلت من خلاله العلوم الهندية إلى بغداد . وقد زار السند العربية جغرافيون مسلمون كالمسعودي (توفى سنة ٩٥٦م) ، وابن حوقل والاصطخري . وسلكت الموجة الثالثة طريق ممرات أفغانستان الشمالية الشرقية . وقد بدأت بغزوات محمود الغزنوي (٩٩٨-١٠٣٠) وتأسيس السلطة الغزنوية في البنجاب . وفي عهد الغزنويين ، أصبحت لاهور قاعدة للثقافة الإسلامية في الهند . ونشأ نمط مميز من الثقافة الهندية الإسلامية في جنوبي الهند المعروفة باسم الدكن في ظل البهامنيين (١٣٤٧ – ١٥٢٧) . وربما كانت أقل رقياً من حضارة الشمال لكنها كانت أكثر ليناً منها . وكان

انجازهـــا الثقافـــي الرئيسي ، بخلاف عمارتها المحلية، يتمثل في تطوير اللهجة الدكنـــية للغـــة الأوردية التي أنتجت أدباً غنياً وسليماً من النثر والشعر قبل مدة طـــويلة مـــن تحول الهند الشمالية إلى الأوردية كلغة أدبية . وقد نقلت العلاقات الـــتجارية تأثير العمارة البهمانية إلى المسلمين على الساحل الشرقي لأفريقيا . ولكـــن قيام الإمبراطورية المغولية على يد بابر (وهو من أتراك تيمورلنك) سنة ١٥٢٦م يمـــثل أعلى ما وصلت إليه الهند الإسلامية من روعة وسلطة سياسية وازدهار ثقافي .(٢٦)

وفي مجال الرياضيات والفلك ، اتصل المسلمون بالهند ، وأخذوا عنهم قـــبل أن يتصلوا – اتصالاً وثيقاً – باليونان . فقد ذكروا أن وفداً من الهند وفد علـــى أبي جعفر المنصور سنة ١٥٤هـــ وفيهم رجل ماهر في معرفة حركات الكـــواكب وحسابها ، وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء أمته ، وكان معهم كتاب الفلكي الرياضي " برهمبكت " فكلف المنصور ذلك الهندي بإملاء مختصر الكتاب ، ثم أمر بترجمته إلى اللغة العربية ، وباستخراج كتاب منه تتخذه العرب أصـــلاً فـــي حـــساب حركات الكواكب ، وما يتعلق به من الأعمال فتولى ذلك الغزاري ، وعمل منه زيجاً اشتهر بين علماء العرب ، حتى أنهم ظلوا يعملوا به إلى أيام المأمون، حيث ابتدأ مذهب بطليموس في الحساب والجداول الفلكية .(٢٧)

لقد أخذ العرب المسلمون كثيراً من نظريات الهند في الحساب والهندسة وبعض المصطلحات الهندية مثل مصطلح " الجيب " في حساب المثلثات ، ولكن لـــم تنل العرب من التقنيات والشهرة العلمية في هذه التخصصات عن طريق ما أخذوه من علماء الهند ، ذلك أنها كانت عبارة عن مصنفات عملية قاصرة على منطوق القواعد ، وشرح استعمال الجداول ، خالية من البراهين والتحليلات .

كذلك كان في بغداد أطباء هنود ، يمثلون الطب الهندي – بجانب الطب اليوناني – اشتهر منهم في عهد الرشيد " صالح بن تتهله الهندي " .(٢٨)

ولقد واجه الإسلام في شبه القارة الهندية تحديين خارجيين هددا هويته ، وهما : التحدي الهندوسي والتحدي الغربي . فالحضارة الهندوسية ، رغم بنيتها الطبقـــية ، أقـــدر على استيعاب العناصر الغربية وتمثلها أكثر من أي حضارة أخـــرى . ولقـــد كان الإسلام وحده هو الذي استطاع ، بفضل توحيده الصارم

وعـزلته الطائفـية ، أن يقـاوم قوة الجذب التمثيلية الهندوسية ، لكن الاتصال والـصراع بـين الديانتين والحضارتين أديا إلى نشوء جماعات هامشية ضئيلة الحجم مثل البراهيميين والحسينيين الذين تأثروا بالفئتين الإسماعيليتين الرئيسيتين فـي الهـند ، البهـرة والخوجيين ، كما أديا ضمن الهندوسية إلى نشوء حركة البهاكتـي الـصوفية التوفيقية في القرن الثالث عشر ، وإلى تشكيل ديانة السيخ التي أصبحت فيما بعد عدواً لدوداً للإسلام .(٢٩)

والواقع أن قدراً كبيراً من الصراع السياسي بين الهندوس والمسلمين في العصور الحديثة ، إنما هو إرث الصراع الديني والثقافي الذي نشب في التاريخ الوسيط وأوائل التاريخ الحديث .

٤ - الحضارة الإسلامية والحضارة الروسية الأرثوذكسية :

المقـصود بالحـضارة الروسية في البحث الراهن ، تلك الحضارة التي تنتمي إلى الأرثوذكسية الغربية ذات الأصول البيزنطية . وثمة حدود فاصلة بين الحـضارة الروسية الأرثوذكسية والحضارة الغربية الكاثوليكية على الرغم من عامل الإرث اليهودي / المسيحي المشترك .

وفضلاً على التباين المذهبي ، والنسب البيزنطي المختلف ثقافياً وقيمياً ، يضاف إلى ذلك عامل مهم ، وهو خصوصية الخضوع للحكم التتري لأكثر من قـرنين مـن الـزمان ، وطول فترة حكم سياسي جمعت صيغته بين الاستبداد والبيروقراطية ، وأخيراً لمحدودية تعرض وتأثر الأرثوذكسية الأوروبية للنهضة والإصـلاح الديني والتنوير ، وغيرها من التجارب المركزية في تاريخ تطور الحضارة الغربية ، وأيضاً تأخر هذا التعرض والتأثر في بعض الأحوال .(٣٠)

ولقد كان انتشار الإسلام في ثنايا الحضارة الروسية الأرثوذكسية مثاراً للدهشة ، فبعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد على يد جنكيز خان وجنوده سنة ١٢١٨م ، تقهقر الإسلام على نحو ملحوظ إلى أن دخل قلوب بعض المغول مثل بـركة خان ، الذي اعتنق الإسلام وتسمى باسم الملك السعيد بركة خان ، وأخذ كل المغول التابعين له باعتناق هذا الدين ، واجتهد في تعويض الإسلام عما لحق بـه من الأذى على يد أجداده ، فاهتم بإنشاء المساجد واستقدام الفقهاء والإحسان إلـيهم ، وتيسير مهمتهم في نشر الدين . كذلك انتشر الإسلام بين القبيلة الذهبية

أكبر قبائل المغول نظراً لتبعيتهم لبركة خان . وفي سنة ١٣١٣م ، تولى زعامة القبيلة الذهبية أوزبك خان ، الذي ظل يحكمها حتى سنة ١٣٤٠م ، وكان مسلماً متحمساً للإسلام ، فوضع خطة لنشر الإسلام في كل بلاد الروس ، وكانت المسيحية قد انتشرت بينهم على يد دعاة مسيحيين من بيزنطة (القسطنطينية) . ولكن أوزبك خان كان متسامحاً ، فلم يأذن لنفسه في اضطهاد المسيحيين في بلاده ، بل ترك دعاة المسيحية يبشرون كيف شاؤا . وبهذا لم يقدر لهذا الزعيم المغولي المسلم المتحمس أن يوقف تقدم المسيحية في بلاد الروس ، وظل الإسلام في روسيا مقتصراً على المناطق التي خضعت لمغول القبيلة الذهبية .

وكان يجاور مغول القبيلة الذهبية في جنوب روسيا شعب إسلامي آخر من أصل تركي هو شعب البلغار وقد اجتهد البلغار في تحويل الروس إلى الإسلام ، حيث كانوا على الوثنية في كييف ، وكان ملكهم يسمى فلاديمير ، وكان التنافس شديداً بين المسلمين والنصارى على اجتذابه ، واستقر رأيه على اتباع المسيحية على مذهب الكنيسة الإغريقية (الروم الأرثوذكس) سنة ٩٨٨م ، وهكذا كسبت المسيحية شعب الروس كله ، وانتشرت في كل ما سكنوه وخضع لهم من بلاد ، وهذا حدث يعتبر من أخطر حوادث التاريخ الإسلامي ، خاصة وقد تعصب قياصرة الروس للمسيحية تعصباً شديداً . وعندما قامت الثورة الشيوعية في روسيا سنة ١٩١٧م ، كان في روسيا أعداداً كبيرة نسبياً من المسلمين ، معظمهم من التتار الذين كانوا القياصرة يستجلبونهم من آسيا للاستعانة بهم في الشئون العسكرية ، وكانت السلطات الروسية تكره أن ينشئ التتار مساجد لهم ولا يسمح لهم بالزواج من الروسيات إلا إذا دخلوا المسيحية ، وكانت الدولة تعمل على تنصيرهم ، وهكذا تحمل تتار روسيا هذا العسف ، لكي يحتفظوا بدينهم ، وعاشوا في فقر وعسر في مناطقهم محتفظين بدينهم . وأما تتار القرغيز ، فقد ظلوا متمسكين بدينهم الإسلامي رغم كل محاولات الروس في تنصيرهم .(٣١)

ومما يثير الدهشة أن يرجع الفضل إلى التتار ، الذين كانوا في يوم من الأيام من ألد أعداء الإسلام إلى انتشاره في روسيا ، بل والدفاع عنه ومحاولة تثبيته ، ذلك أن الإسلام دين عقل وحوار . وفي بعض الأماكن من روسيا ،

شـــاعت عناصــــر مـــن الثقافة الإسلامية ، وأصبحت جزءاً من أنظمتها الثقافية التقلـــيدية ، حيث كيّف الإسلام نفسه مع الثقافة المحلية والبيئة الاجتماعية ، وقد أدى ذلـــك فـــي بعض الحالات إلى نشوء تركيبات جديدة فريدة . ولعب الإسلام دوراً علــى جانـــب كبير من الأهمية في الثقافة المادية ، وبصورة خاصة في الطابـــع المعماري ، الذي كان التأثير فيه متبادلاً بين روسيا والدول الإسلامية . كذلك جاء التأثير واضحاً للإسلام في الطقوس الحياتية الأساسية التي يتميز بها مجـــرى حـــياة الفـــرد من المهد إلى اللحد ، وخلع الإسلام على هذه الجماعات سمات متشابهة تتجاوز الفروق الكبيرة التي كانت بينها في الماضي والاختلافات العـــرقية والثقافـــية الكبيرة ، وأما فيما يخص الحياة الاجتماعية فتتجلى السمات المتشابهة أوضح ما تكون في حياة الأسرة حيث تركت الشريعة الإسلامية بغير شك ، أكبر أثر اجتماعي لها .

٥ - الحضارة الإسلامية والحضارة الأفريقية :

علـــى الرغم من الجدل المثار حول الحضارة الأفريقية ، إلا أن أفريقيا ســـتظل تكويـــناً وأرضاً وشعباً تعبر عن جزء حضاري مهم ومتميز في تاريخ الحـــضارة الإنـــسانية . وربما من قبيل الملاحظة العابرة ، فإن قارة من قارات الدنـــيا لم تشهد هذا التنوع الثقافي والحضاري مثلما نراه في أفريقيا . وقد تكون هذه القارة – مستقبلاً – قارة الحوار الحضاري نظراً للتعايش المقبول نسبياً بين الديانات الأفريقية التقليدية والإسلام والمسيحية وقليلاً من اليهودية .

إن عـــدداً من المفكرين والمؤرخين الغربيين يشكك في وجود حضارة أفريقية بالمعنى الدقيق لكلمة حضارة استناداً لمجموعة من الاعتبارات :

أ - أن جـــزءاً كبيـــراً مـــن قارة أفريقيا ، خاصة منطقة شمال القارة ينتمي للحضارة الإسلامية .

ب - أن دولاً وكـــيانات جغـــرافية داخـــل القارة تنتمي لهويات حضارية لها خـــصوصيتها التاريخـــية مـــثل مصر وأثيوبيا (على الرغم من الانتماء الإسلامي لمصر) .

ج - التأثيـــر الثقافـــي والديـــني للاســـتعمار طـــيلة عقود طويلة ، فقد لعب المـــستوطنون الأوربيون من هولنديين وبريطانيين وفرنسيين وبرتغاليين

دورهم في إيجاد تأثيرات ثقافية في الأماكن التي استقروا بها في القارة ، كما كان للمستوطنين الهنود في شرق وجنوب شرق وجنوب القارة دور مماثل ، وإن كان أقل تأثيراً .

إلا أنـــه بالرغم من كل هذه التأثيرات والاعتبارات ، فقد بقيت حقيقة أن الغلـــبة فـــي أفريقيا – خاصة غير العربية – هي لانتماءات متداخلة من العرق والقبيلة واللغة ، مع وجود شعوب أفريقية لديها قناعة بوجود تراث حضاري لها في أزمنة بعيدة . بل إن عدداً من المفكرين الأفارقة روجوا لنظريات حضارية عامـــة تـــشمل الأفارقـــة عمـــوماً مثل رئيس السنغال الأسبق (ليوبولدسنجور) ونظريته حول الحضارة الزنجية ودورها المحوري في بناء الحضارة الفرعونية المـــصرية القديمة ، باعتبار الحضارة الزنجية أصل تلك الحضارة المصرية ، علـــى حين يذهب مفكرون آخرون مثل أحمد سيكوتوري وشقيقه إسماعيل إلى التأكيد على حجم وتميز مساهمة الشعوب الأفريقية في إثراء وتطور الحضارات الأخرى خاصة الحضارة الإسلامية .(٣٢)

بيـــنما ينحو بعض المفكرين منحى ثالث بالتأكيد على الهوية الحضارية الأفـــريقية ، تلـــك التي تعبر عن التفاعل الحضاري بين التقاليد القبلية الأفريقية البدائية والإيديولوجيات الحديثة والعقيدتين الإسلامية والمسيحية ، والأمثلة على ذلـــك الرئيـــسين الراحلين كينياتا (كينيا) ، نيريري (تنزانيا) . وعلى الرغم من الـــتعدد فـــي الآراء والنظريات حول الحضارة الأفريقية فإن لأفريقيا حضارتها المتميـــزة وهويتها الثقافية الخاصة بها ، وهي كغيرها من الحضارات تعرضت لقوى التأثر والتأثير ، فأخذت وأعطت ، محتفظة حيناً ، ومتخلية حيناً آخر .

وعلى الرغم من الصعوبة التي يكتنفها البحث في مجال دخول الإسلام إلـــى أفـــريقيا ، إلا أن الحقيقة الأساسية في هذا المضمار تشير إلى أن ارتباط الإســـلام بالـــتجارة كان هو السبب الرئيسي لدخول هذا العدد الكبير من شعوب القارة الأفريقية إلى الإسلام ، وإن كانت هناك بعض الأجزاء التي دخلها العرب عن طريق الفتح الإسلامي لنشر الدين (مثل مصر والسودان الشرقي) . فلقد كان لهـــؤلاء الـــتجار المسلمين الأوائل ، سواء أكانوا من العرب أم من غير العرب المدفوعـــين بحماســـة الداخلـــين جديـــداً إلى الدين ، تأثير قوي في المجتمعات

الأفــريقية التــي كانوا يمرون بها خلال أسفارهم ، وكثيراً ما كانوا يقيمون بين ظهرانيها . وبالرغم من أنهم لم يكونوا من الدعاة النشطين في المجال الديني ، فإن عباداتهم الدينية كانت تثير انتباهاً كبيراً ، وكانت معرفتهم بالثقافة الإسلامية واتــصالاتهم التجارية الواسعة المدى تضفي عليهم وعلى الرجال الأتقياء الذين كانوا يسافرون معهم بريقاً خاصاً في نظر السكان المحليين . ومن العوامل التي دعمت انتشار الإسلام في أفريقيا ، بساطة المتطلبات العقائدية للإسلام وتسامحه إزاء المعــتقدات الدينــية التقليدية والعرف المحلي ، وبصفة عامة كان الإسلام جــذاباً للأفارقة باعتباره مصدراً لأساليب جديدة في أداء الطقوس ، بالنسبة إلى إناس كانوا يفتشون دائماً عن علاجات قوية خارقة للطبيعة نظراً لافتقارهم إلى أي تحكم علمي يذكر في بيئتهم أو مصيرهم .

ولكــن إذا كانــت مثل هذه الاعتبارات قد شجعت الأفريقيين كثيراً على الــتوجه نحو الإسلام كدواء لمصائب الحياة ، بحيث اعتبر هذا الدين الجديد في الواقــع كمــصدر جديد للقوى الخارقة اللازمة لمعالجة صعوبات الحياة اليومية مــصائبها على غرار الديانة الأفريقية التقليدية ، فإننا يجب ألا ننسى أن العقائد الأخروية الأوسع التي يقدسها الإسلام إنما تمثل تحولاً جذرياً جديداً عن العقائد التقلــيدية . فالاعتقاد بحياة أخرى ينال فيها الإنسان الثواب والعقاب على أعماله التــي ارتكــبها في هذه الحياة ، هذا الاعتقاد غريبٌ بصورة عامة عن الأديان الأفــريقية التقليدية ، ودخول هذا الاعتقاد مع الإسلام يعطي أساساً جديداً لتقييم الأخــلاق ، وفــيما يــتعلق بغرس الإسلام الفعلي ، يجب أن نسجل الأثر المهم للتــيارات المحلية السائدة والمتعلقة بحركة السكان وهجرتهم ، فحينما كان تدفق الهجــرات القبلية يتطابق مع مسار انتشار الإسلام من خلال التجارة ، كان هذا التطابق يدعم انتشار الإسلام .[٣٣]

ومما يلفت الانتباه ، إمكانيات التسامح التي يقدمها الإسلام إزاء الطقوس التقليدية مادامت لا تتعارض مع القرآن ، بل أحياناً تنسجم معه ، وهذه المرونة والانفتاح يفسران شعبية الإسلام في أفريقيا وانتشاره باطراد أكثر من أي ديانة أخرى سواء سماوية أو أفريقية تقليدية . ومما يؤكد ذلك أن عدد الدول الأفريقية الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي ارتفع إلى ٢٧ دولة من مجموع أعضاء

المنظمة الذي يصل إلى ٥٧ عضواً ، ويقدر إجمالي السكان المسلمين بنسبة ٥١ % مــن إجمالي السكان في القارة . وكما سبق أن أوضحنا فإن سماحة الإسلام وبــساطة تعالــيمه وتأكيده على مبدأ المساواة بين البشر ونبذ التفرقة العنصرية فــضلاً علــى عدم ارتباطه في أذهان الأفريقيين بالاستعمار ، كل هذه العوامل مجتمعة ومتفاعلة شكلت قوة دافعة لانتشار هذا الدين الحنيف .

فقــد زاد من سرعة انتشار الإسلام أنه لم يعمل تحت خطوة الاستعمار كمــا هو الحال بالنسبة للمسيحية التي جاء بها المبشرون . بل على العكس من ذلــك ارتــبط الإســلام بالكفاح ضد الاستعمار الغربي الذي أخضع القارة كلها لــسيطرته مــنذ أواخــر القرن التاسع عشر حتى أوائل القرن العشرين . حيث واجهــت الدول المستعمرة مقاومة شديدة ، من جانب الزعامات الدينية والدول الإسلامية . كما ساهم التجار المسلمون والزعامات الإسلامية التي يلتف حولها الأفريقيون في مناطقهم المحلية في دعم الحركات القومية الأفريقية في التخلص مــن الاســتعمار وقــيام الدول الأفريقية المستقلة ، ومن ثم أصبح الإسلام ديناً أفريقياً وليس أجنبياً . ولم يكن الإسلام مجرد عقيدة ولكنه مثل حضارة متكاملة، وإن كانت تتميز بأنها لم تكن حضارة إحلالية . فلم تسع لتغيير ثقافة الأفريقيين أو الانــصهار فــي ثقافة جديدة، فمع فتح الأبواب للانتماء لثقافة عالمية ودين عالمي ، إلا أنه لم يفرض على متبعية نبذ ثقافتهم المتوارثة وأن يصبحوا أجانب أو أغــراباً في بلادهم ، فالإسلام يمنح معتنقيه هوية جديدة بدون الانفصال عن مجــتمعاتهم وفــي إطار وحدة الدولة . فمع اتباع الأفريقيين للإسلام ، إلا أنهم يخــتلفون ثقافــياً فيما بينهم ، ومثل الانتماء للإسلام الهوية العامة لهم . وأثبت الإســلام قدرتــه الاستيعابية الكبيرة للتنوع والتعدد دون المساس بجوهر الدين نفسه.[٣٤]

والإسلام في أفريقيا يتمتع بحالة من الاحتكاك ومن المنافسة الديناميكية مــع ديانــات تقليدية عريقة بالإضافة إلى المسيحية بجهودها التبشيرية واسعة الــنطاق ، ومع هذا فإنه يتقدم بصورة ثابتة . وفي كثير من دول أفريقيا شاعت عناصر من الثقافة الإسلامية ، ويلعب الإسلام دوراً على جانب كبير من الأهمية فــي السياسات الداخلية لكثير من البلدان الأفريقية مثل السنغال ومالي والنيجر

ونيجيريا ، وبدرجة أقل في تنزانيا . كذلك يخلق روابط مهمة ما بين هذه الدول. وقـد أدى اعتـناق الإسلام إلى تأثيرات ملحوظة على عادات اللباس والهندسة المعماريـة وبعض النواحي الأخرى للثقافة المادية . وتلقى الشريعة الإسلامية التزاماً واضحاً ، فبالرغم من أن الزواج يقترن بعادات تعود إلى ما قبل الإسلام مـثل ثـروة العـروس ، فإنه يتصف بسمات أساسية واضحة من السنغال إلى الصومال في التقيد " بالعدة " وقواعد الزواج والطلاق والمواريث .. إلخ .

وفـي السياسة نجد أن مبادئ الحكم والمؤسسات السياسية الإسلامية قد طعمت ، بدرجات متفاوتة ، البنيات السياسية لتلك الحكومات الأفريقية التقليدية التـي اعتـنقت الإسلام ، وأفضل الأمثلة الباقية نجدها في حكومات الهوسا في نيجيريا الشمالية .[٣٥]

مراجع الفصل الثالث

1 - Sarton, G. (1957), Introduction to the History of Science, Baltimore.

2 - Palacios, A. (1932), Un Precurseur Hispana – Musulman de Saint Jean de le Croix, Études Carmelitaines, Vol. 27, pp. 113-167.

3 - Draper, J. (1965), A History of the Intellectual Development of Europe, Vol. II, London, p. 42.

٤ - جـــلال مظهر ، (بدون تاريخ) ، حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ص ١٩ .

٥ - جوســتاف جــرونيباوم (١٩٩٧) مؤلــف ، عبد العزيز توفيق (مترجم) ، حضارة الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ص ٤٠٨ .

٦ - المرجع السابق ، ص ٤١١ .

٧ - المرجع السابق ، ص ٤٣٥ .

٨ - المرجع السابق ، ص ٤٣٦ .

٩ - وليد محمود عبد الناصر ، (٢٠٠٢) ، حوار الحضارات ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، الأهرام ، القاهرة ، ص ٣٠ .

١٠ - المرجع السابق ، ص ٣٤ .

١١ - أليكــسي جورافــسكي (١٩٩٦) مؤلــف ، خلــف محمد الجراد (مترجم) ، الإسلام والمــسيحية ، سلــسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ، ص ٦٣ .

١٢ - المرجع السابق ، ص ٦٩ .

١٣ - المرجع السابق ، ص ٩٨ .

14 - Baldwin, M. W. (1942), Western Attitudes Toward Islam, the Catholic Historical Review, 28, p. 403.

١٥ - قاســم عــبده قاسم ، (١٩٩٠)، ماهية الحروب الصليبية ، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ص ٢١٩.

16 - Fuller, G. & Lesser, I., (1995), the Geopolitics of Islam and the West, Rand, p. 27.

١٧ - جفــري بارندر (١٩٩٣) محرر ، إمام عبد الفتاح (مترجم) ، المعتقدات الدينية لدى الــشعوب ، سلــسلة عــالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ص ٢٦٨ .

١٨ - جــون كولــر (١٩٩٥) مؤلف ، كامل يوسف حسين (مترجم) ، الفكر الشرقي القديم ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ص ٣٢٦ .

١٩ - حــسين مــؤنس (١٩٨٧) ، الإسلام الفاتح ، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، مواضع متفرقة .

20 - Needham, (1969), Science and Society in East and West, in the Grand Tradition, Allen and Unwin, London, pp. 49-50.

21 - Ibid. (مواضع متفرقة)

22 - Huntington, S. P. (1996), the Clash of Civilizations and the Remaking of world Order, Simon & Schuster, New York.

٢٣ - جوســتاف لوبــون (ب. ت) مؤلف ، عادل زعيتر (مترجم) ، حضارة الهند ، دار العهد الجديد للطباعة ، القاهرة ، ص ٢٥٥ .

٢٤ - جفري بارندر (١٩٩٣) محرر ، مرجع سابق ، ص ١٣٦ .

٢٥ - عبد المنعم النمر (٢٠٠٢) ، تاريخ الإسلام في الهند ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ص ٥٤ .

٢٦ - جوزيــف شــاخت ، كليفورد بوزورث (١٩٩٨) محرران ، تراث الإسلام ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، الجزء الأول ، ص ١٨٥ .

٢٧ - أحمــد أمين (١٩٩٧) ، ضحى الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ص ٢٦٠ .

٢٨ - المرجع السابق ، ص ٢٦٢ .

٢٩ - جوزيف شاخت ، كليفورد بوزورث (١٩٩٨) ، مرجع سابق ، ص ١٩٤ .

٣٠ - وليد محمود عبد الناصر (٢٠٠٢) ، مرجع سابق ، ص ٣٧ .

٣١ - حسين مؤنس (١٩٨٧) ، مرجع سابق ، ص ص ٧٧ - ٨٠ (مواضع متفرقة) .

٣٢ - وليد محمود عبد الناصر (٢٠٠٢) ، مرجع سابق ، ص ٣٧ .

٣٣ - جوزيف شاخت ، كليفورد بوزورث (١٩٩٨) ، مرجع سابق ، ص ص ١٥٦-١٥٧.

٣٤ - حورية توفيق مجاهد (٢٠٠٢) ، الإسلام في أفريقيا ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ص ص ٣٥٧ - ٣٥٨ .

٣٥ - جوزيف شاخت ، كليفورد بوزورث (١٩٩٨) ، مرجع سابق ، ص ١٥٢ .

الفصل الرابع
الحضارة الغربية المعاصرة
من التكوين إلى فكرة الاضمحلال

تقديم :

يعـــتقد بعـــض المفكرين أن الناس ينجزون الحضارة عندما يحولون الطبيعة بجهـــدهم الشاق، ومن ثم وخلال هذه العملية يحسنون من أنفسهم، ومن ظروف معيـــشتهم، ويـــرى آخرون أنها موروثة، أعني جزءاً من تراث تاريخي تناقلته أجـــيال النخـــبة جـــيلاً بعد جيل، ويذهب فريق ثالث إلى أن الحضارة مغروسة متأصلة في العلاقات الاجتماعية، ويرى غير هؤلاء أن الحضارة تعبير عن حالة تفوق بيولوجي .

وربما يكون الرأي الأول هو أقربها للصواب، فكم من دول تأخرت كثيراً في ركـــب الحـــضارة على الرغم من ميراثها الحضاري التاريخي، وكم من دول تحظـــى بترتيبات راقية في إدارة علاقاتها وسلوكها الاجتماعيين، ومع هذا ليس لها هذا النصيب في السلم الحضاري، والقول بأن الحضارة تعبير عن حالة تفوق بيولوجـــي، بعـــيد كل البعد عن الحقيقة، ذلك أن كثيراً من الدول التي تراجعت حضارياً في الوقت الراهن، كان لها تاريخ حضاري متميز، بل وقدمت إسهامات يذكرها تاريخ الحضارة حتى يومنا هذا (مثل المصريين واليونانيين) .

ومـــن ثـــم يأتي التفسير الأول، ليقترب نسبياً من عتبة الصواب شريطة أن يـــتفاعل هـــذا الأداء البـــشري مع منظومة من القيم والأخلاق. ويذهب بعض المفكـــرين الغربيين إلى القول بأن بعض أجناس البشر مهيأة للتقدم الحضاري، علـــى حـــين لا تتمتع أجناس أخرى بخصائص كافية لإحداث هذا التقدم، ومما يؤسف له أن ابن خلدون ينحو نفس المنحى. ونود أن نناقش هذه القضية لما لها من أثر على فلسفة الاستعمار الحديث .

فالقـــول بامتـــياز الأجـــناس بعـــضها على بعض شائع عند معظم الأمم في العـــصور القديمة والوسطى، ولا يزال قائماً عند الغرب، وخاصة غرب أوروبا والـــولايات المتحدة. فاليونان كانوا يرون أنفسهم أفضل الأمم وأذكاها وأشرفها،

والـــرومان جعلـــوا الروماني فوق غيره بحكم القانون . أما أهل الصين فكانوا يؤمنون بأنهم أفضل الخلق، وأنه لا وجود لأي حضارة أو فضيلة خارج جنسهم. وأمـــا الهـــنود فشأنهم في تفضيل طبقة البراهمة على غيرها معروف ، ولازال لـــديهم التمايز الطبقي . وكذلك الغرب ، فلهم في التمايز الجنسي آراء كثيرة . ويكاد لا يخل من عقدة الجنس هذه غير العرب بعد الإسلام .

وترتكـــز نظـــرية تفاضل الأجناس عند الغرب على أن التفوق الخلقي والمعـــنوي مرتبط بلون البشرة ، أي بنسبة خلو الجلد من المادة الملونة ، وإن كـــان ذلك غير محتمل من الناحية البيولوجية . وعلى نحو آخر اكتشف علماء اللغـــات أن اللغـــات اللاتينية واليونانية والفارسية وأهل شمال الهند تتشابه فيما بينها في التركيب والنحو والصرف ، وأنها كلها ترجع إلى أصل آري أو هندي أوروبي . ومادام هذا كذلك فلابد أنه كان هناك جنس أصيل آري يسكن المناطق الممـــتدة من شمال الهند إلى شمال أوروبا ، ثم تفرع وامتد غرباً وشرقاً وشمالاً فـــي الأراضـــي التـــي سادها الأتراك فيما بعد . وهذا الجنس الآري أو الهندي الأوروبي هو الجنس الموهوب الذي ساد أهل المعمورة بامتيازه البدني والذهني، وأخـــرج آخر الأمر أهل الغرب الأوروبي . وهذا الجنس الشريف النبيل – في رأيهم – هو الذي صنع كل ما هو عظيم في حضارة البشر .[١]

وعلـــى نحـــو من هذا التفسير ظهرت فلسفات استعمارية تحمل أسماء مخـــتلفة ، وإن كانـــت تتـــشابه في جوهرها مثل أمانة الرجل الأبيض أو ذلك الترتيب الجنسي (أو العرقي) الذي وضعه الألمان إبان الحرب العالمية الثانية . وكـــان الألمان فيما قبل قد استخدموا مصطلح الهندي الجرماني بدلاً من الجنس الهـــندي الأوروبـــي ، وقد حاول بعض المفكرين الغربيين تقديم تأصيل علمي وتاريخي لهذه الفكرة ومنهم الإنجليزي هيوستون ستيوارت Stewart الذي افتتن بمـــواهب الجـــنس الألماني ، وراح يستعرض مناقب الجنس الآري أو الهندي الجرماني في كتابة " أسس القرن التاسع عشر The Foundations of the Nineteenth Century " وبلـــغ بـــه أن ضـــم دانتي وعيسى عليه السلام إلى الآريين أي الهنود الجرمانيين . ولقد سيطرت هذه الفكرة على الأمريكيين حتى

أن بعــض كـــتابهم أمـــثال ماديسون جرانت ولوثروب ستودارد نصحوا بقصر الهجرة إلى الولايات المتحدة على الأنجلوسكسون والجرمان وأهل شمال أوروبا.

وقد حاول أرنولد توينبي Tonbee تفنيد هذه المزاعم في كتابه " دراسة الـــتاريخ " A Study of History بقــوله إن علماء الأجناس يقسمون الجنس الأبـــيض إلـــى أقسام على أساس نماذجهم الخلقية ، ففيهم ذوو الرؤوس الطويلة وذوو الرؤوس المستديرة والبيض والسمر .. إلخ . وينتهي بهم الأمر إلى تقسيم الجـــنس الأبـــيض إلى ثلاث فصائل هي : النوردية Nordic والألبية Alpine والبحرمتوســـطية ، ويحـــاول توينبي تتبع مساهمات هذه الفصائل في الحضارة الإنسانية ، فيرى أن النورديون (أي الشماليون) قد أسهموا في خمس حضارات هـــي : الهـــندية والإغريقية والغربية والروسية الأرثوذكسية والحيثية . وساهم الألبيون في سبع حضارات – وربما تسع – هي السومرية والحيثية والإغريقية والغـــربية والروســـية ، وأصـــلها الـــذي انطلقت منه وهي الحضارة المسيحية الأرثوذكـــسية (البيـــزنطية) ، والحـــضارة الإيرانية وربما المصرية والميناوية Minoan . وساهم الجنس البحر متوسطي في عشر هي : المصرية والسومرية والميـــناوية والسريانية والإغريقية والغربية والمسيحية الأرثوذكسية والإيرانية والعـــربية والبابلية . وساهمت بقية أجناس البشر فيما يلي : فأما الجنس الأسمر ويـــشمل الدراويـــدي Dravidians الهندي وأهل الملايو Malayans (ومنهم الإندونيـــسيون) فقـــد ساهم في حضارتين : الهندية والهندوكية . وساهم الجنس الأصفر في ثلاث : الصينية وحضارتي الشرق الأقصى وهما الصينية ووليدتها اليابانـــية . أمـــا الجـــنس الأسود فلم يساهم إلى اليوم في حضارة ما . ويخرج توينبـــي مـــن هذا التحليل بأن نصف حضاراتنا قامت بمشاركات من أكثر من جنس واحد ، وأننا لا نجد جنساً مفرداً قام وحده ببناء حضارة كاملة .[٢]

لـــذلك فإن القول بأن الجنس الأبيض ينفرد وحده بصنع الحضارات أو معظمها إنما هو وهم وإدعاء لا يقوم على أساس . وأن نظرية تميز جنس على جـــنس إنما هي تشويه وتزييف لحقيقة بناء التاريخ . فالجنس الأبيض لم يسهم بأكثر مما أسهم به غيره .[٣]

وقـد أرهق الباحثون الغربيون أنفسهم للخروج بهذه النتيجة ، على حين أن القرآن الكريم أجملها في آية واحدة (الآية الثالثة عشرة من سورة الحجرات): ﴿ يَاأَيُّهَـا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .

وقـد نشأت عن القول بتفاضل الأجناس واختصاص بعضها دون بعض بالـذكاء والكفاءة والقدرة على بناء الحضارات مشكلات ومآسٍ طويلة أغرقت البشرية في تصرفات حمقاء وحروب طويلة .(٤)

وأغلـب الظـن أن الحضارة الإنسانية انطلقت من جهات كثيرة في آن واحد ، فهناك أكثر من مهد لحضارة البشر بعكس ما كان يظن في الماضي من أن مـسيرة الحضارة بدأت في وادي النيل وحده . وقد توصل إلى هذا فريمان Freeman فـي نهاية القرن التاسع عشر حينما قال : ومجال الشك قليل في أن الكثيـر من أهم المخترعات الأساسية للحياة المتحضرة قد تم اختراعها مرة بعد أخرى في أزمان وبلاد متباعدة ، لأن شعوباً كثيرة وصلت إلى تلك المراحل من الـتقدم الاجتماعـي احتاجت فيها إلى هذه المخترعات أول مرة ، ومن هنا فقد اخترعت الطباعة في الصين وأوروبا في العصور الوسطى وكل منهما مستقلة عـن الأخـرى . ومـن المعروف أن عملية مشابهة للطباعة في أساسها كانت مستخدمة لأغراض شتى في روما القديمة ، ولو أن أحداً لم يخط الخطوة الكبيرة نحـو اسـتعمال هذا الاختراع في طباعة الكتب . كذلك إذا نظرنا إلى المباني الأولى في مصر واليونان وإيطاليا والجزر البريطانية وخرائب المدن القديمة في أمريكا الوسطى ، تبينا أن اختراع المباني والقباب قد تم أكثر من مرة في تاريخ البشر .(٥)

وربمـا كان التباعد بين الجماعات البشرية وصعوبة الاتصال بينها هو الـذي حـال بـين انتقال هذه المخترعات أو اقتباسها ، وذهبت كل جماعة إلى الـبحث عـن لـزوميات الحـياة ، ومن ثم توصلت الحضارات المختلفة إلى الاكتشافات الحضارية الأولى في أوقات متقاربة .

ولكـــن الأهـــم مـــن ذلـــك هو ميلاد الضمير أو فجر الضمير Dawn of Conscience ، ذلـــك الذي يعني بزوغ الحضارة الإنسانية الحقيقية التي تميز بني البشر .

وفي ذلك يقول توينبي في كتابه الأخير " البشر وأمهم الأرض " Man and Mother Earth إن وعي الإنسان لنفسه وميلاد ما يسمى بالضمير يعتبر تاريخ بداية حضارة الإنسان ، أو بداية وجوده كمخلوق متميز بنفسه عن سائر الحيوان وقـــادر علـــى صنع الحضارة ومدرك لبعض القيم الإنسانية ، لأن الإنسان في مرحلة كفاحه الطويل لينجو من الفناء كان مثله كمثل غيره من الحيوان ، لم يكن يميـــز بين الخير والشر فهو يقتل ليطعم ويعيش وهو لا يشعر بأنه يعتدي على غيره .(٦)

إن الفـــصل الـــراهن سيناقش الحضارة الغربية من حيث هي فكرة أو مفهوم أو فلسفة أو طريقة لتنظيم الواقع ، وسوف يركز هذا الفصل على تطور فكـــرة الحضارة الغربية التي بدأت صياغتها الافتراضية في أوروبا النهضة ثم أعـــيد بلـــورتها فـــي عصر التنوير خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وتخـــتلف الآراء حول بداية هذه الحضارة ما بين منصف موضوعي ، ومتحيز متعصب . فعلى حين يرى المنصفون أن الحضارة الغربية المعاصرة تتقاسم في نشأتها الإرث اليوناني والعطاء الإسلامي المتميز إبان فترة النهضة الإسلامية ، يـــذهب المتحيزون إلى القول بأن الحضارة الغربية بدأت في اليونان القديمة ثم روما من بعدها وانتقلت إلى شمال أوروبا إبان عصر التوسع فيما وراء البحار وعصر التصنيع ، وانتقلت أخيراً إلى الولايات المتحدة حيث ازدهرت الحضارة الغربية ، وحققت أعظم إنجازاتها في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ومع أن هؤلاء المتحيزين ، سلموا بوجود حضارات أخرى مثل الإسلامية والصينية ، إلا أنهم ذهبوا إلى أن أياً من هذه الحضارات لم يبلغ شأن إنجازات حضارة الغرب في اليونان أو روما القديمة والمجتمعات التي هي من سلالة هذا التراث .

كذلك لم يشأ هؤلاء غير المنصفين من المفكرين الغربيين أن يتحدث عن مقـــومات هـــذه الحضارة الغربية ، والتي لا يمكن أن تناقش بموضوعية دون تحلـــيل لدور علماء المسلمين إن إبداعاً أو نقلاً مع التطوير لحضارة اليونان ،

حيث كانت الحضارة الإسلامية الوسيط الفعال بين الحضارتين اليونانية والغربية. وفي القرن الحادي عشر الميلادي (وبالتحديد سنة ١٠٩٥م) انطلقت الشرارة الأولى للحروب الصليبية ، التي مهدت – بلا شك – لنهوض الغرب وانهيار الشرق ، ثم ذلك المقوم الثالث للحضارة الغربية – الذي لازال قريباً من الذاكرة – والمتمثل في المغامرات الاستعمارية التي بدأت في القرن السادس عشر .

الحضارة الغربية : .. التكوين

لم يتشكل الغرب الحديث إلا في سنة ١٦٠٩ ، وهي السنة التي مثلت الخروج النهائي للمسلمين من أسبانيا ، ذلك التكوين الذي ظهر عند مستهل القرن السابع عشر ، معتمداً على الاستيلاء والطرد .

ولا يعني ذلك أنه لم يكن للغرب وجود قبل العصر الحديث ، فعلى العكس من ذلك حاول العالم الأوروبي البحر متوسطي أن ينظم ذاته عبر العصور القديمة ، ويستعد لإعادة رسم خريطته الجغرافية ولكن مولد آخر الديانات السماوية في القرن السابع ، وذلك الزحف الإسلامي لجزء كبير من حوض البحر المتوسط غير كثيراً من رؤية الغرب للأحداث . وفي كل الأحوال فإن التغيرات العميقة التي تسبب ذلك فيها لم تكن قد أعطت بعد للغرب والشرق ذلك الوجه الذي سيرتسمان به اعتباراً من القرن السادس عشر ، لأن الإمبراطورية البيزنطية ظلت على شرقيتها في إصرار وأقامت مع جيرانها الأمويين ثم العباسيين ، أي الشرق علاقات أكثر وثوقاً ، من علاقاتها مع ممالك المسيحية الغربية .

أما البعد الغربي لإسلام العصور الوسطى ، فلم يفكر أحد في مناقشته – على المستوى التاريخي على الأقل من صقلية – التي ظلت عربية حتى الاستيلاء على بالرمو في عام ١٠٧٢ – إلى أسبانيا التي ظلت مسلمة لمدة طويلة ، أضف إلى ذلك أن الحد الفاصل بين الإسلام والمسيحية لم يشكل الفاصل الديني الوحيد في القرون الوسطى الأوروبية – البحرمتوسطية ، وأن الانفصال الداخلي في المسيحية كان له أهمية تكاد تكون متساوية ، وذلك يساعد

على إدراك أن غرب تلك الأزمنة كانت له حدود متحركة منطقها يبتعد عن ذلك سيسدد فيما بعد داخل الوعي الغربي .(٧)

ويجدر الإشارة – كما سبق أن أوضحنا – إلى أن التكوين الحقيقي للحضارة الغــربية جاء عبر : الحروب الصليبية والحضارة الإسلامية والإرث الإغريقي والاكتشافات الجغرافية وأخيراً المغامرات الاستعمارية .

أ – الحــروب الــصليبية – بدأت أحداث الحركة الصليبية الفعلية في السابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٠٩٥م بالخطبة التي ألقاها البابا إربان الثاني Urban II واستمرت حتى سنة ١٢٩١م .

وكانــت دعــوة الــبابا صريحة طالب من خلالها شن حملة تحت راية الــصليب ضــد المسلمين في فلسطين . وقد جسدت الحروب الصليبية مظهراً للــصراع الحــضاري بين الإسلام والغرب اصطبغ بالدم القاني ، تواصل عبر حوالــي قرنين من الزمان ، وامتد على رقعة جغرافية عريضة تمر بالأناضول وتستوعب معظم بلاد الشام وتلتهم كل سواحل البحر المتوسط الشرقية .(٨)

وتعتبــر الحروب الصليبية واحدة من القوى الكبرى التي حركت تاريخ الغرب الأوروبي ، وظلت تحكم أفكارهم ومشاعرهم فيما بين سنة ١٠٩٥م وسنة ١٢٩١م . وظلــت للحــروب الصليبية جاذبيتها في أوروبا الغربية حتى القرن الــثامن عــشر . فبالنــسبة لخمسة عشر جيلاً من أبناء الغرب الأوروبي كانت الحروب الصليبية تشغل جزءاً حياً وحيوياً من عالمهم، إذ أن مئات الألوف منهم قد شاركوا بأنفسهم في حملة أو أكثر من الحملات الصليبية ، كما أن آلافاً عديدة مــن أبــناء الغرب الأوروبي ساهموا بأموالهم في تمويل حملة أو أكثر من هذه الحمــلات – ومــن ناحــية أخــرى كانت أحداث الحروب الصليبية تشغل بال الكثيرين ممن لم يشاركوا بالنفس أو بالمال .(٩)

أمــا العالم العربي فقد كان الطرف الذي وجهت إليه أوروبا الكاثوليكية عــدوانها تحــت راية الصليب . وعلى مدى الفترة ما بين أواخر سنة ١٠٩٦ ، وســنة ١٢٩١م قامت عدة مستوطنات صليبية على التراب العربي في فلسطين وبــلاد الشام والجزيرة ، وتعين على سكان هذه المنطقة العربية أن يدفعوا ثمناً

فادحـــاً لكـــي يقــضوا علـــى الكيان الصليبي من جهة ، ويتصدوا للمشروعات والغارات الصليبية المتأخرة من جهة أخرى .

لقد كانت الحروب الصليبية سبباً رئيساً من أسباب تعطل قوى الإبداع والنمو فـــي الحـــضارة العـــربية الإسلامية . وبعد نهاية النضال ضد الصليبيين دخلت المـــنطقة العربية في منحنى التدهور والأفول الذي أدى بدوره إلى سقوط العالم العربـــي تحت السيادة العثمانية . ولكن أحداً لا يمكن أن يتجاهل علاقة ما جرى مـــنذ عدة قرون بما يحكم اليوم علاقتنا بالغرب الأوروبي والأمريكي ، كما أن أحـــداً لا يستطيع أن يغض النظر عن حقيقة أن الحملات الصليبية ضد الشرق العربـــي كانت أول المشروعات الاستعمارية الأوروبية من ناحية ، وأنها كانت السابقة أو التجربة التي سبقت مرحلة الاستعمار الحديث من ناحية ثانية ، فضلاً عـــن أنهـــا كانت إلهاماً للتجربة الصهيونية ذات الأهداف الاستيطانية من جهة ثالثة. (١٠)

وقد حاول بعض المؤرخين أن يحيل مقدمات هذه الحروب إلى قرون عديدة قـــبل تـــاريخ انـــدلاعها ، حـــين اعتبر حروب هرقل إمبراطور الإمبراطورية البيـــزنطية (٦١٠-٦٤١م) ضـــد الفـــرس ، لاستعادة الصليب المزعوم ، أول حـــروب صـــليبية من نوعها ، باعتبار أن الدولة البيزنطية قامت بها بحافز من الحمـــاس الدينـــي . وذهـــب آخـــرون إلى اعتبار كل من حروب الإمبراطور البيزنطـــي نقفـــور فوكاس (٩٦٣-٩٦٩م) ، وخلفه يوحنا تزيمسكس المعروف باســـم حنا الشميشق (٩٦٧-٩٦٩م) ضد العرب ، من قبيل الحروب الصليبية ، وعممـــت فـــئة أخرى هذه الحروب لتشمل ما قام به النصارى من حروب ضد المـــسلمين فـــي الأنـــدلس وصقلية وجنوب إيطاليا في القرنين العاشر والحادي عشر.(١١)

لقـــد كانت خطبة البابا إربان الثاني أخطر وثيقة في تاريخ التكوين الغربي المعاصر ، بل وتكشف عن طبيعة العلاقة بين الغرب والإسلام ، وتعكس بشكل واضـــح صـــورة الإسلام والمسلمين في الوعي الكنسي الغربي . وربما بنظرة فاحـــصة لمـــا قالـــه إربان نستطيع أن نتعرف على الدوافع الحقيقية وراء هذه الهجمـــة الصليبية الشرسة ، فالمسلمون – من وجهة نظره – جنس لعين وأمم

نجسة ، وجنس خبيث . ولم يشأ هذا الرجل الذي سطر صفحة مظلمة في تاريخ البشرية ، أن يخفي دوافعه الأخرى بقوله : إن هذه الأرض التي تسكنونها الآن، ضـيقة لا تتـسع لـسكانها الكثيـرين، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيكم من الطعـام.. إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها . هكذا يبدو الهدف الثاني من وراء الحروب الصليبية ، الاستحواذ على الثروات الطبيعية خارج أوروبا ، وضـرورة اسـتجلابها لتأمين الحاجات الأساسية للإنسان الأوروبي . لقد كان الجوع الذي عض بأنيابه معظم أنحاء الغرب الأوروبي سنة ١٠٩٥م هو السبب وراء خـروج الأعداد الغفيرة من الفلاحين والمعدمين خلف قادة العصابات التي شـكلت مـا عـرف باسم " الحملة الشعبية " أو " حملة الفلاحين " ، حيث رأى الفقـراء فـي دعـوة إربان فرصة رائعة للخلاص من الفقر والإحباط والسادة الإقطاعيين.(١٢)

فقـد كانـت أوروبـا – وقتـئذ – ساحة للتمايز الطبقي ، وللظروف الاقتـصادية المتردية ، حيث شحت المواد الغذائية ، وبلغ الأمر إلى الحد الذي عانـت فيه أوروبا من أزمة في الحصول على الخبز ، فقد كانت مهددة بحدوث مجاعـة حقيقية ، ومن ثم – وفي سبيل استنفار الجوعى – لم يتردد إربان في الإشارة إلى الأهمية الاقتصادية لهذه الحروب .

وهذا لا ينفي تفاعل بواعث أخرى لهذه الحروب ، تختفي وراء أهدافها المعلـنة ، حـيث يمكـن القـول بوجـود عوامل أخرى غير العاملين الديني والاقتصادي .

فقـد كانـت أوروبا تعيش نمطاً تعيساً في حياتها الاجتماعية والسياسية عشية الحروب الصليبية ، فكانت بحاجة إلى تصدير مشكلاتها الداخلية ، وتوجيه جهـودها وقدراتها نحو خصومها التاريخيين ، بدلاً من أن يبدد قدراتها الاقتتال المحلي ، وتطحنها الحروب الأهلية .(١٣)

وقـد عبـر عن ذلك جوستاف لوبون بقوله : كانت أوروبا ، ولاسيما فرنـسا ، في القرن الحادي عشر الذي جُردت فيه الحملة الصليبية الأولى ، في أشـد أدوار الـتاريخ ظلاماً ، وكان النظام الإقطاعي يأكل فرنسا ، ولم يكن في

ذلــك الحــين نفــوذ شــامل لسوى البابا ، وكان الناس يخشون البابا أكثر من احترامهم له . (١٤)

ومــن الملفت للنظر أن تتوحد أوروبا ، وتوقف جميع الحروب المندلعة بيــنها وتستعد في حماس غير مسبوق لحرب ظالمة وحشية استخدمت فيها كل أساليب الدمار والتنكيل ، وتوصف بأنها حرب مقدسة !!

وإذا كــان لنا أن نجمل بواعث الحروب الصليبية - باستثناء الأوضاع الداخلية لأوروبا - في عاملين أساسيين ؛ الأول : العامل الديني المتمثل في ذلك الــصراع بين الإسلام والمسيحية ، والذي لم ينته بعد ، رغم الأصوات المسلمة التــي تــنادي دومــاً " بكلمــة سواء " . وأما العامل الثاني فيتعلق بالرغبة في الاستيلاء على موارد المسلمين وثرواتهم . وما أشبه اليوم بالبارحة .

وقــد حققت الحروب الصليبية أهدافها في تكوين الغرب الحديث وبعث القومــية الأوروبية ، وغنم الغرب كثيراً من الشرق العربي مادياً وعلمياً ، فقد نهبوا الموارد ، ونهلوا المعارف ، وأنكروا كل ذلك من بعد . لقد كا نت أوروبا تعــيش - عشية الحروب الصليبية - ظروفاً قاسية تسيطر عليها حالة من الفقر والجهل والمرض . ولم تكن حالة التخلف التي تعاني منها أوروبا وليد الصدفة ، بــل كانــت نــتاجاً حتمياً لمنظومة القيم والتقاليد التي أفرزها الجهل وفرضتها الكنيسة ، ومن الأمثلة على ذلك ، كانت القراءة والكتابة صفة لا تليق بالرجال ، ولذا كان الصليبيون القادمون من شمالي أوروبا لا يقرأون ولا يكتبون .

كــذلك حظرت الكنيسة الطب والصناعة لأنها كانت تزعم أن المرض عقــاب إلهــي لا ينبغي للإنسان أن يصرفه عمن استحقه ، كما حرمت الكنيسة الاستحمام وحظرت فتح الحمامات ، بعد أن كانت شائعة في الدولة الرومانية .

لكن هؤلاء وبعد مدة من مكوثهم في ديار المسلمين وتعرفهم على طبيعة الحــياة الإســلامية ، ومظاهرها المدنية ، ونسقها الحضاري المتميز ، أصبحوا أمام منظومة قيم جديدة ، ومعارف متنوعة ، وأنماط مدنية أخرى ، فتفاعلوا مع هــذه الحياة وتأثروا بمعطياتها المختلفة ، وحاولوا ترحيل مكتسباتها إلى ديارهم في أوروبا بالتدريج ، في مدة تناهز القرنين ، فبدأت تنهض أوروبا من سباتها ، ودبــت الحــياة فــي أوصالها ، حتى استوت على عودها ، وقامت على قدميها

بالاعــتماد على ما راكمته من ثراء مادي ، وما استعارته من عناصر تمدن ، ومن معارف متنوعة .[١٥]

إن أي محلــل موضــوعي ، لا يستطيع أن يشكك في الدور الذي لعبته الحــروب الــصليبية على مدى قرنين من الزمان في تشكيل وتكوين الحضارة الغــربية . لقــد اســتطاعت أوروبا خلال هذه الفترة أن تنهب كل شيء أمامها بفلــسفة النهب والاستحواذ سواء أكان ذلك مورداً اقتصادياً أو معارف علمية ، ولــم يكن ذلك على سبيل التواصل الحضاري ، فهو أمر مقبول ، ولكنه بمنطق المستعمر المستوطن . فقد وقعت أعينهم على أعظم حضارة ظهرت في القرون الوسطى في رقعة جغرافية واسعة ، ولم يقتصر ما أخذوه على الموارد الطبيعية والاقتصادية لهذه المنطقة ، بل امتد ليشمل الترحيل المعرفي والحضاري للفنون والعلــوم المتــنوعة ، وعمدت إلى سرقة هذا التراث وإعادة تركيبه ودمجه في الحضارة الأوروبية دون الإشارة إلى المصادر الحقيقية لهذا التراث .

فــباتت الكثيــر مــن المجتمعات ذات الماضي العريق بلا حاضر ولا مستقبل ، بعد احتواء ماضيها وإلحاقه بالغرب ، الذي بنى حاضره على ماضي تلك المجتمعات ، حينما استلب تراثها وأسس عليها تقدمه ، وسعي لإشاعة وعي زائف بالتنقيب عن جذور ومنابع مزعومة أخرى لذلك ، وإن كانت تلك المنابع مــوغلة فــي القدم في تاريخه ، كي ينفي أي إسهام لغيره في التاريخ ، وليؤكد شمولية تاريخه وكونيته .[١٦]

وخرج من بينهم بعض المفكرين المنصفين أمثال جوستاف لوبون الذي أطلــق عبارته الشهيرة لتستقر في ضمير التاريخ : لقد أضحى تأثير الشرق في تمدين الغرب عظيماً جداً بفعل الحروب الصليبية .[١٧]

لقــد أخذت أوروبا مبادئ التنظيم السياسي والاجتماعي من المجتمعات الإســلامية إبــان الحروب الصليبية وعاد الصليبيون إلى ديارهم يحملون هذه الأفكار والمبادئ وينشرون الدعوة إلى إعادة تنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية والإصلاح الشامل للمجتمع الذي يبدأ بتحرير الفكر من القيود الكنيسة العقيمة .

ويمكــن ملاحظة بعض صور التمدن التي وفدت إلى أوروبا من الشرق عقــب الحروب الصليبية ، في انتقال نباتات وفنون وأزياء وصناعات جديدة ،

فمحاصيل مثل السكر والليمون والبطيخ والقطن والحرير الموصلي والدمقس ، لـم تكـن أوروبا تعرفها قبل الحروب الصليبية . كذلك تأثر الصليبيون بروعة الـزجاج المنقوش المصنوع في بلاد الإسلام ، وربما كان من نتائج تأثرهم بها أنهم نقلوا من بلاد الشرق الأسرار الفنية التي أدت إلى تحسين الزجاج الملون ، ويـبدو أن البوصـلة والبارود ، انتقلت إلى أوروبا من الشرق في أعقاب تلك الحروب . ولما كانت الكنيسة تحرم الطب وصناعته ، أتاحت الحروب الصليبية فرصـة لأن يكتـشف الأوروبـيون علم الطب ، ويتعرفوا على التراث الطبي والخبـرة العلمـية الوفيـرة التـي أنجزها الأطباء المسلمون ، فاشتغل بعض الـصليبيين بنقل بعض الكتب الطبية العربية إلى اللاتينية ، وتقدم علم الجراحة بفـضل الحـروب الصليبية . كذلك أسفرت هذه الحروب عن العودة إلى إنشاء الحمامات العامة والمراحيض الخاصة في الغرب . (١٨)

ونقـل الصليبيون فنون البناء العربي وطرزه المختلفة ، ووضح تأثرهم بـذلك فـي تشييد القلاع والكنائس ، وحاول الأغنياء في أوروبا محاكاة البيت العربي عند تصميم منازلهم . وأخذ الصليبيون عن المسلمين ، استعمال القوس والقذاف والدروع واستخدام الوسائد القطنية تحت الدروع واستخدام حمام الزاجل لحمـل المعلـومات الحربية ، وانتشار علامات النسب على الأسلحة وشارات الفرسـان ، وتأثـروا بفـن بناء الحصون والقلاع الإسلامية . وأدت الحملات الـصليبية إلـى تهذيب أخلاق الفرسان الصليبيين وتنمية وعيهم وتبديل بعض المفاهـيم المتخلفة لديهم وتعليمهم القراءة والكتابة . وتأثر الصليبيون بالقصص والـشعر العربـي فاستوحاها بعضهم في كتاباته ، واعتمدت كثير من قصصهم على قصص ألف ليلة وليلة .

وقد اعترف كثير من المفكرين الأوروبيين بدور الحروب الصليبية في تكـوين الحـضارة الغربية المعاصرة . فيقول إرنست باركر : إن ما نجم عن الحـروب الـصليبية مـن المعرفة والخبرة الجديدة ، قد هيأ مادة جديدة للتفكير العلمي والخيال الشعري في آن واحد . (١٩)

وكتب إدوار بروّي إن الاتصالات بين أوروبا والشرق لعبت دوراً مهماً في تطور الحضارة الأوروبية . (٢٠)

وذهب ستيفنسن إلى أن أعظم أثر للحروب الصليبية قد تجلى في إيطاليا وعن طريق إيطاليا ، حيث يعتقد أن ما أبدعته حركة النهضة الإيطالية من إنتاج رائـــع إنما يظهر مباشرة في أعقاب العصر الصليبي ، وأن هذه النهضة كانت ترتكز على دعائم من الرخاء المادي كانت الحروب الصليبية سبباً في إقامتها.(٢١)

بيـــنما يؤكد جوستاف لوبون على أن اتصال الغرب بالشرق مُدة قرنين من أقوى العوامل التي أدت إلى نمو الحضارة في أوروبا . (٢٢)

وكـــتب إرنـــست باركـــر يقول أنه يصح التسليم بأن الحروب الصليبية أسهمت في تفكك النظام الإقطاعي بجعل الملكية حرة سهلة الانتقال ، وبإضعاف قـــوة الألقـــاب ، وســـاعدت على نمو المدن بما حدث من ازدياد حركة التجارة وضخامتها . (٢٣)

ومن الآثار السياسية للحملة الصليبية ، والتي كان لها دورها في تكوين الحـــضارة الغـــربية ، بعث الحياة في السلطة المركزية للدول بعدما ضعفت في ظل هيمنة وسيطرة الإقطاع .

كـــذلك تـــولدت على إثر هذه الحروب مفاهيم وأفكار سياسية هامة في إطار تجربة الإنسان الأوروبي في هذه الحروب ، كما أنها مهدت لظهور بعض الإصـــلاحات ذات الأثر الحاسم في الحياة السياسية ، وربما كان اشتراك ملوك أوروبا في هذه الحروب ومشاهداتهم في مصر وبلاد الشام ، من أبرز العوامل فـــي حدوث هذه الإصلاحات ، ومن أمثلة ذلك فريدريك الثاني الذي قاد الحملة الـــصليبية الـــسادسة ، وكان من أعظم ملوك أوروبا تشبعاً بالحضارة الإسلامية واحتذاءً لها ، وهو أول من أسس مجلساً نيابياً ووضع قاعدة المساواة في الحقوق والتكالـــيف ، وأيـــد ســـيطرة القانون على جميع الطبقات ، وأطلق حرية كافة العقائد. (٢٤)

ويعتقد بعض المفكرين مثل جوستاف لوبون أن دستور إنجلترا السياسي، يعد من النتائج البعيدة للحروب الصليبية .

وانتعـــشت التجارة وتبادل البضائع بين أوروبا والمشرق الإسلامي في سنوات الحروب الصليبية ، ونشطت حركة الأساطيل التجارية البحرية في البحر المتوسط ، وأصبحت موانئ البحر المتوسط تعج بالحركة والنشاط فاغتنى بذلك

أهـل مرسـيليا ، وبيزة ، وجنوة والبندقية على الخصوص ، بل كانت صلات البندقية (إيطاليا) التجارية بالمشرق سبب عظمتها . (٢٥)

وازدهرت حركة استيراد السلع والمحاصيل من المشرق ، فيما لم يسبق له مثيل قبل ذلك ، من قبيل الأقمشة الحريرية ، والسكر ، والتوابل ، والزنجبيل، والقـرنفل ، والقـرفة ، والذرة ، والأرز ، والسمسم ، والخروب ، والليمون ، والبطـيخ ، والخـوخ ، والمشمش ، والكرز ، والبلح ، والأقمشة المزركشة ، والأصـباغ والمـساحيق ، والعطـور والجواهر ، وأخذت أوروبا عن الشرق صناعتي تكرير السكر والزجاج . (٢٦)

وسـاهم ازدهـار النـشاط التجاري في تطور النظام المصرفي وتنوع عملـيات التداول والائتمان وظهور سياسات جديدة للضرائب ، كما فعل لويس السابع ملك فرنسا ، الذي فرض ضريبة من أجل الحروب الصليبية سنة ١١٤٧م ، ثم حذا حذوه هنري الثاني ملك إنجلترا سنة ١١٦٦م . وعلى الجانب الآخر ، فـإن حـصاد المواجهة الإسلامية / الصليبية كان سلبياً على الجانب العربي / الإسـلامي ، إذ تعـين على المنطقة أن تحشد كل مواردها وإمكاناتها في خدمة المجهـود الحربـي ، وكـان الإفـراز الـسياسي هو نموذج الدولة العسكرية الإقطاعية، وقد نجحت هذه الدولة – التي تطورت نظمها عبر سنوات طوال من الـتجارب والخبـرات السياسية والعسكرية – في مهمتها التاريخية ، وضرب الوجود الصليبي حقاً ، ولكنها فشلت في إدارة المجتمع على أسس مدنية . وحين تدهـور نظامهـا السياسي بدأت تمارس التسلط على شعوبها ، وهو الأمر الذي أدخـل المـنطقة في منحنى التدهور الحاد منذ القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي . (٢٧)

وفـي خـضم هـذه الأحـداث الجسام تعطلت قوى الإبداع والنمو في الحـضارة العربية الإسلامية ، على حين انطلقت أوروبا معتمدة على ما سلبته من المعارف والفنون الإسلامية والموارد الاقتصادية .

ب – الحـضارة الإسلامية – يأتي هذا البند استكمالاً للبند السابق ، فقد أخفقت أوروبا في تأسيس تقاليد فكرية مهمة خارج الكنيسة – ولذا فليس ثمة ما يدعـو للدهـشة في أن ينقلب المترجمون الأوروبيون من أمثال أديلارد

الباشـــي Adelard of Bath (١١١٤-١١٨٧م) وجيـــرارد الكريموني Gerard of Cremona (١١١٤-١١٨٧م) ، وغيرهما ، عندما صادفوا التـــراث الفكري الغني للشرق الأوسط إلى متحمسين ومروجين لحكمة " سادتهم العرب " .

لقـــد أدرك المتخصصون في تاريخ العصور الوسطى منذ زمن بعيد ، الـــدور المهـــم للثقافة العربية الإسلامية في القرن الثاني عشر ، الذي أدى إلى ظهـــور عـــصر النهضة في أوروبا . ولم يكن هذا الدور منحصراً في إبداعات العلماء المسلمين ، وإنما امتد ليشمل انتقال وتطوير المعارف اليونانية التي ظلت مفقودة لوقت طويل ، ولم ترى النور إلا من خلال الثقافة العربية الإسلامية .

وقـــد أثر هذا الانطلاق الجديد للحيوية والإبداع في كل شيء تقريباً في مجال النشاط الفكري . وتبدي هذا الأثر في القانون والفلسفة واللاهوت والبحث العلمي ، وتزامن معه إنشاء الكليات والمدن الجديدة .

وظهـــر بالفعل شعور جديد بالرفاه سببه النمو الاقتصادي السريع الذي دعـــم هذا الانطلاق الجديد للعقل والخيال . وقد يحق لنا أن نقول إن هذه الروح الجديـــدة هـــي التي أنتجت أشد مظاهر الاختلاف والتمايز بين مفكري أوروبا ومفكـــري العرب المسلمين خلال هذه الفترة ، هي والشعور بالمقدرة الإنسانية وظهـــر أيـــضاً فـــي الروح العقلانية الجديدة التي رأت علائم العقلانية والنظام المخطط له في المجالات كلها . ساد هذا الاتجاه شتى مظاهر الحياة الفكرية في أوروبـــا (بعـــد أن وقعـــت أعينهم على الحضارة العربية الإسلامية) كما لو أن مفكري العصر وضعوا على أعينهم نظارات ملونة بلون العقل . [٢٨]

ودون الرجوع إلى الوراء كثيراً ، فإن الفترة المهمة في تكوين الحضارة الغـــربية المعاصرة تنحصر ما بين أول القرن الرابع عشر وأوائل القرن السابع عـــشر ، حـــيث تمـــثل عـــصر النهـــضة في أوروبا ، وخلال هذه الفترة نهل الأوروبـــيون مـــن ينابـــيع الفكر الإسلامي التي باتت متاحة لهم على نحو غير مـــسبوق ، والأهم من ذلك القدوة والأمثولة الحضارية في العالم الإسلامي التي خلقت الحافز الأول عند كل أوروبي لتغيير نمط حياته .

ونقلت أوروبا عن العرب المسلمين ، أحداثاً جساماً في تاريخ الحضارة الغـربية ، مـن بيـنها ابـتكار المطبعة المتحركة بنظام القوالب ، والتي نقلها المسلمون عن الصينيين . وأخذ الغرب عن الشرق صناعة الورق ، ثم صار يـصنع ورقاً أرخص ثمناً وأيسر صنعاً من الورق الحريري الذي كان يستعمله العرب .

وأخـذ كوبرنيكوس من ابن الشاطئ الدمشقي بعضاً من أفكاره ، فطور نظـرية فلكـية تتفق مع الأرصاد ، كما يقال أن العرب هم الذين دلوا البحارة الغربيين على البوصلة البحرية التي ظلت سراً مصوناً بيد البحارة العرب مكنهم من الابتعاد عن الشواطئ وركوب أعماق المحيطات من غير أن يفقدوا اتجاههم، وهكذا استكشف الأوربيون العالم الجديد وأضاف بعداً جديداً لحضارتهم ، إن لم يعد هو القائد لهذه الحضارة الآن !!

إن الـدور العربي الإسلامي في تكوين الحضارة الغربية واسع المجال يشمل كل شيء ، وسوف نعرض له تفصيلاً في بند لاحق .

ج - الإرث الإغريقي :

إن أسـطورة حق الامتياز الوحيد المؤسس لمرجعية المصدر الإغريقي للحضارة الغربية ، بدأت تأثيرها منذ القرن الرابع عشر على صورة آلة طرد لا ترحم للمصادر الإسلامية أو الشرقية (أو غير المسيحية) للحضارة الأوروبية . فمُحيت في هذا الإطار التأثيرات المصرية مثلاً التي ارتوت منها بلاد الإغريق، بدايـة مـن الفلاسفة الذين سبقوا سقراط حتى آخر أحفاد الإسكندر ، ثم تجاهل الهيبة والشهرة الهائلة التي كانت دائماً لمصر في العالم الإغريقي الذي اعترف مـثقفوه عن طيب خاطر بما يدينون به لعلومها وديانتها ، ثم التعتيم على البعد الجوهـري للفتـرة الهيلينستية التي هي تهجين بين الهيلينية (الإغريقية) وبلاد الشرق . (٢٩)

وإن ظلـت هـذه الثقافة الإغريقية لما يربوا على الألف سنة ، دون أن يقترب منها أو يحاول تفهمها أحداً من الأوروبيين الذين عاشوا في ظلام الجهل طيلة العصور الوسطى .

فقـد سـمحت الرغبة المتعنتة لمفكري عصر النهضة في أن يخترعوا لأنفـسهم انتساباً مباشراً مع أجدادهم اليونانيين ، وأن يتناسوا ذلك الدور العربي الإسـلامي الـذي مكنهم من إعادة اكتشاف ما خلفه لهم هؤلاء ، فمع الترحيل الكامـل للإسـلام من الساحة السياسية لأوروبا الغربية، تواكب معه طرد الفكر المسلم من النطاق الفكري الأوروبي .

ومع ذلك فإننا نعرف الدور الذي أدته أسبانيا الإسلامية ليس فقط في نقل الفلسفة الإغريقية ، بل في إعادة تأويلها أيضاً ، كما نعرف كيف اكتشف أوروبا المسيحية ، ابتداء من الاستيلاء على طليطلة سنة ١٠٨٥م ، خلال بضعة عقود جـزءاً كبيراً من الثقافة الفلسفية المتراكمة منذ عدة قرون على أرض الإسلام . فـإذا كان عصر النهضة قد تمكن بمثل هذه السرعة من إعادة تواصل الخطوط التي تقطعت كثيراً مع النسب الإغريقي الذي تدعيه ، فذلك لأن الإسلام الغربي كان قد مهد لها المجال . (٣٠)

د – الاكتـشافات الجغرافية – ومن الأحداث التي جرت في عصر النهضة ، وكان لها تأثير عميق في تكوين الحضارة الغربية ، رحلات الاستكشاف التـي بدأها برتلوميو دياز سنة ١٤٨٨م ، وتبعه كريستوفر كولمبس سنة ١٤٩٢/ ، وفاسـكو دي جاما سنة ١٤٩٨م ، ثم ماجلان من سنة ١٥١٩ إلى ١٥٢٢م .

ويقـوم منطق الاستكشافات الجغرافية الأوروبية على أن البلاد التي لم تكن حاضرة في الوعي الأوروبي غير موجودة ، وأن لحظة وجودها تتزامن مع اليوم الذي حضرت فيه لدى هذا الوعي ، وكأن حدود العالم هي حدود المعرفة الأوروبـية به ، فما لم يكن معروفاً لها لم يكن موجوداً ، ولذا فإن تاريخ أمريكا وسكانها الأصليين ، بل تاريخ كل الشعوب الأخرى ، التي لم تعرفها أوروبا قبل الاستكـشافات الجغرافية ، يبدأ ساعة التعرف عليها ، أما كل ذلك التاريخ الذي طـوته هـذه الـشعوب خلال عشرات القرون ، وما أنجزته فيه من معطيات حضارية ، فليس بتاريخ وإنما هو طور من أطوار البربرية والوحشية .

ولـتكن هـذه الفلـسفة مبـرراً للسطو على حضارة الغير من جانب ، والاستيلاء على موارد هذه البلاد وإخضاع أهلها من جانب آخر . وبذلك مثلت

الدنيا الجديدة (أو العالم الجديد) مكوناً مهماً في الحضارة الغربية المعاصرة التي قامت على مبدأي الاستيلاء والطرد .

من هنا جرى طمس ثقافاتها المحلية ، واستبدال لغاتها بلغات المستعمر، وإزاحة تراثها بمختلف تجلياته وألوانه ، واستبدال بتمامه بالثقافة الأوروبية ، كثقافة بديلة ووحيدة .

وسوغ هذا الفهم لأوروبا استلاب كافة ثروات بلدان العالم الجديد وترحيلها إلى البلدان الأوروبية ، والتعامل مع مواطنيها الأصليين كسلع تجارية يجري استغلالها واستخدامها إلى أقصى حد ، حتى إذا تم استنفاذها يمكن التخلص منها بأبشع وسائل التصفية الجسدية . (٣١)

ومن أوضح الأمثلة ، ما جرى في الولايات المتحدة الأمريكية ، عندما لجأ النازحون الجدد إلى إبادة الأقوام الأصليين ، وطويت صفحات تاريخ أقوام تغور في الزمن إلى حوالي أربعين ألف سنة . فاستبدلت أسماء البلاد ، واستخدمت لغات المستعمر بعدما محيت اللغات الأصلية للبلاد ، وفتت مقومات البنية التقليدية للأقوام الأصليين . ولما أدت أساليب التصفية الجسدية إلى إزهاق أرواح السكان الأصليين في أمريكا وتفريغ البلاد من الأيدي العاملة ، لجأوا إلى استقدام عدد كبير من العمالة القادرة على الإنتاج في الحقول والغابات والمناجم من خلال تجارة آثمة ستظل نقطة سوداء في جبين البشرية ، ألا وهي تجارة الرقيق .

هـ - المغامرات الاستعمارية - صيغت فكرة الحضارة في سياق التوسع الاستعماري الأوروبي في أفريقيا وآسيا والأمريكتين ، وكان التركيز واضحاً على الدول الإسلامية ، خاصة بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية كآخر المعاقل الكبرى للسلطة الإسلامية وقتئذ ، ومن ثم بدأ العالم الإسلامي في مجموعه يقع تدريجياً تحت الهيمنة الإمبريالية لأوروبا . لقد جاء حين من الوقت تحول فيه كل بلدان العالم الإسلامي ، من إندونيسيا إلى جبل طارق ، وشمالاً حتى آسيا الوسطى ، وجنوباً حتى أفريقيا شبه الصحراوية ، تحول كل هذا إلى ملكية استعمارية لمجموعة من القوى الأوروبية : إنجلترا وفرنسا وهولندا وأسبانيا

والبرتغال وإيطاليا وروسيا . وكانت المملكة العربية السعودية وأفغانستان هما وحدهما اللتين بقيتا مستقلتين . ولهذا ينظر المسلمون إلى قضايا الاستعمار بحساسية شديدة ، خاصة أن الاستعمار انبثق من الجيران الأوربيين القريبين منهم والمألوفين لديهم . ولقد كان للهيمنة المسيحية آثارها على كثير من جوانب الحياة ، مما جعل الاحتلال أمراً مرهقاً نفسياً .[٣٢]

وكان الهدف الاقتصادي واضحاً لهذه المغامرات الاستعمارية ، حيث استنزفت موارد الدول المستعمرة من المواد الخام الأساسية وتحولت مزارعها لمحاصيل التصدير التي تحتاجها الدول الاستعمارية ، ففي الوقت الذي عانت فيه هذه البلدان من الفقر والجوع ، ساهمت هذه الموارد في نهضة أوروبا ونشوء حضارتها المعاصرة . وبعد أن دمرت الهياكل الاقتصادية والاجتماعية تدميراً كاملاً ، ووهنت تماماً طاقات هذه المجتمعات على المقاومة ، بدأ التغلغل الأجنبي يغزو المجال الثقافي في محاولة للهيمنة الثقافية وطمس هوية هذه المجتمعات .

لذلك كان التصور أن المرحلة الاستعمارية ليست مرحلة هيمنة أجنبية فحسب ، بل مرحلة إذلال وإفساد ثقافي أيضاً . ولا تزال نتائجها ماثلة حتى اليوم في جميع أنحاء البلدان المستعمرة سابقاً ، ولكنها أشد وضوحاً في البلدان الإسلامية حيث عانت المجتمعات الإسلامية التقليدية من عزلة حادة . وظهرت نخبة جديدة متأوربة فرضت نفسها وثقافتها ، والنتيجة أن هذه المجتمعات حُرمت من فرصة التطور تطوراً طبيعياً وعضوياً ، ووضعت بدلاً من ذلك قسراً في نموذج جديد بأساليب تتسم بالعنف الفوري إزاء النظم القديمة ، ولم تجد الفرصة للتكيف التدريجي . والمسلمون اليوم مواجهون مرة أخرى بحملة غربية جديدة ، هي هذه المرة عن القيم العالمية وحقوق الإنسان وتطبيق الليبرالية السياسية وبناء مجتمعات مدنية . وإن كثيرين من المسلمين ينظرون لأسباب مفهومة بعين الشك إلى هذه العملية التي تعيد إليهم ذكريات خاصة عن شيء سبق أن ألفوه . فالغرب في نظرهم سعى لكي يفرض قيمه في القرن الثامن عشر بالحديث عن انتشار المسيحية ، وفي القرن التاسع عشر بالحديث

عـــن الرسالة التحضيرية وأمانة الرجل الأبيض . واليوم يرى مسلمون كثيرون مـــسألة حقوق الإنسان والتطبيق الديمقراطي وصندوق النقد الدولي بمثابة أحدث المخططات التي يلتمس بها الغرب فرض نظامه على العالمين الإسلامي والثالث ومرة أخرى باسم القيم العالمية ، والأحق أن نقرأها باسم المصالح الغربية . (٣٣)

وهكـــذا تـــبدو صـــيغاً اســـتعمارية متكررة تهدف في النهاية إلى نفس الأهـــداف التـــي سعت إليها الحروب الصليبية : نهب الموارد الاقتصادية للبلاد الإسلامية وطمس الهوية الدينية والثقافية وفرض النظام الغربي على العالم . ما أشـــبه الـــيوم بالبارحة ، فلازالت كلمات البابا إربان الثاني سنة ١٠٩٥م ماثلة أمامنا .

لقـــد جـــرى تحقيب التاريخ الإسلامي وتاريخ الأمم الأخرى إلى ثلاثة عـــصور ، طبقاً لعصور أوروبا المعروفة : القديمة والوسطى والحديثة ، فكأنما مـــسار التجـــربة الغربية هو مسار التجربة البشرية بتمامها ، وبذلك يحذف أو يُسلب كل إبداع وعطاء بشري خارج التجربة الغربية .

الحضارة الغربية المعاصرة : الإرث الإغريقي والنهضة الإسلامية

يعترف كثير من المفكرين الغربيين ، ومن بينهم توبي هف Huff بأن العلم العربي الإسلامي من القرن الثامن حتى آخر القرن الرابع عشر ربما كان أرقى علم في العالم ، متفوقاً بذلك على العلم في الغرب والصين . وكان علماء الإسلام في كل حقل تقريباً ، في الفلك والسيمياء (كان المشتغلون فيه يسعون إلى تحـــويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة) ، والرياضيات والطب والبصريات وما إليها . وكانت الحقائق والنظريات والتصورات العلمية التي تضمها رسائلهم العلمـــية أرقـــى مـــا يمكن الحصول عليه في أي مكان في العالم ، بما في ذلك الصين . ويذهب هف بأن لذلك سببين :

الأول : أن العلمـــاء المسلمين أتيح لهم الاطلاع التام تقريباً على التراث العلمـــي اليوناني منذ القرن الثامن فصاعداً ، بينما كان هذا التراث مجهولاً لدى الغـــرب طـــيلة القـــرون الفاصلة بين انهيار الإمبراطورية الرومانية في القرن الخـــامس وحركة الترجمة الكبرى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . وقد حـــدث ذلك نتيجة لجهود هائلة في الترجمة ترجمت فيها الأعمال العظيمة التي

أنتجتها الثقافة اليونانية وغيرها من الثقافات إلى اللغة العربية . ومع أن نقل هذه العلـــوم القديمة إلى الحضارة العربية الإسلامية كان انتقائياً ، فإن هذا النقل مثل الفكـــر اليوناني العلمي والفلسفي برمته تمثيلاً كاملاً . أما السبب الثاني : هو أن البحث الذي جرى حتى الآن عن العلم الصيني ما يزال يرى أن الصين تطورت بـــشكل مستقل على مسارات من صنعها هي في معظم حقول العلم . وقد حدثت تـــبادلات بين الصينيين والهنود وبين الصينيين وعرب الشرق الأوسط ، ولكن هذه التبادلات لم تؤد إلى تغيرات صينية كبيرة . والحقيقة المهمة أن الصينيين لم يعـــرفوا شـــيئاً تقريباً عن أرسطو أو إقليدس أو بطليموس أو جالينوس ، بينما أصبحت أعمال هؤلاء خاصة بأشكالها العربية المعدلة والموسعة منطلقات رئيسة في تطور العلم الغربي الحديث . (٣٤)

ولكـــن السبب الثالث – الذي لم يذكره هف – هو أن العلماء المسلمين كانـــوا يمتلكون آلية غير مسبوقة في التطوير والإبداع ، أعادت صياغة التراث الإغريقـــي وأضافت إليه مكتشفات جديدة لم يكن الإغريق قد عرفوها من قبل ، وثمـــة احـــتمالات تُرجع هذه المنهجية العلمية إلى أن هؤلاء العلماء ينتمون إلى حـــضارات أقدم نسبياً من حضارة الإغريق ، والتي تأثرت فيما قبل بحضارات مثل الحضارة المصرية القديمة أو البابلية أو غيرهما .

وأدرك العلمـــاء والعرب حقيقة منهجية لازالت باقية إلى يومنا هذا ، ألا وهي تراكمية العلم ، فلم تقتصر معرفتهم على علوم البلاد المجاورة أو الأفكار المفتوحة ، بل ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك ، فاهتموا بالاكتشافات التي قامت بهـــا شعوب الشرق الأدنى ، وذلك عن طريق الاطلاع المباشر على النصوص المكتوبة أو بالرواية الشفوية ، وهذه ظاهرة عامة ظلت سائدة بين العرب طوال العـــصور الوسطى ، فإلى جانب النظريات العلمية التي توصل إليها العرب في عصور متأخرة ، نجد أفكاراً ونظريات تعود إلى عصور أقدم .

أ – في مجال الرياضيات والفلك والبصريات

هـــناك رأي يذهب إلى وجود تأثيرات هندية في نشأة علم الفلك وحساب المثلثات عند العرب ، حيث تذكر بعض النصوص عن وفادة رجل يدعي كنكة الهـــندي إلـــى بغداد زمن الخليفة المنصور سنة ٧٧٠م ، وتشير إلى اتصالاته

العلمية بالفلكيين الذين كانوا يعملون لدى الخليفة ، وعلى الرغم من قلة الوثائق المؤيدة لذلك ، فإننا نقبل هذا الافتراض مادمنا نعترف بأن العلماء العرب أدركوا مبكــراً الطبــيعة التــراكمية للعلم . لكن اعتمادهم الأكبر في مجال الرياضيات والفلــك والبصريات كان على اليونانيين ، إذ أن معظم الكتب التي ألفها علماء إغريق – أو كلها تقريباً – ترجمت إلى العربية ، ونقحت فيما بعد ، بل وفُسرت وكتب لها هوامش مهمة .

ويمكــن أن نطــرح عينة من الكتب اليونانية المهمة التي تُرجمت إلى العــربية إبــان العصور الوسطى فمن مؤلفات إقليدس تُرجم إلى العربية : (١) كــتاب الأصــول أو الأركــان (Elements) الذي ترجم فيما بعد إلى اللاتينية والعبــرية ، (٢) كتاب المعطيات أو المفروضات (Data) ، (٣) كتاب اختلاف المناظــر – البــصريات (Optics) ، (٤) كــتاب الظاهــرات فــي قبة الفلك (Appearance of Celestia Sphere). ومــن بــين مــؤلفات أبولونــيوس البرغامــي Apollonius Pergaeus التــي ترجمت إلى العربية : (١) كتاب المخروطات (Conics)،(٢) كتاب النسبة المحدودة (The Sector of a Ratio) (٣) وكتاب القطع المحدد (The Determinate Section) ، (٤) إنشاء الآلات التــي تعمــل على الماء (Construction of Hydraulic Machines) أما مؤلفات ثيودوسوس الطرابلسي (Theodosius of Tripoli) المعربة فمنها : (١) كتاب الأكر (Spherics) وترجم فيما بعد إلى اللاتينية ، (٢) كتاب الأماكن (The Book of Places) ، (٣) كتاب الليل والنهار (The Book of Days and Nights) . ومن بين مؤلفات نيقوماخوش الجرشي (Nichomachus of Gerasa) كــتاب المدخل إلى علم العدد (Introduction to Arithmatic) . ومــن مؤلفات مينيلاوس (Menelaus) : (١) كتاب الأشكال الكرية (الكريات) (Spherics) ، (٢) كــتاب فــي معــرفة كيفــية تمييــز الأجــرام المختلطة (The Determination of Adulterated Bodies) ، (٣) كتاب في أصول الهندسة (Elements of Geometry) ، (٤) كتاب المثلثات (The Book of Triangles) ، .. إلــخ . ولكــن أرشميدس (Archimedes) يعتبر مميزاً بين جميع الرياضيين اليونان ، إذ أن مؤلفاته العلمية الباقية حتى الآن كانت جميعها

معروفة لدى العرب ومنها : (١) كتاب الكرة والأسطوانة (The Sphere and the Circle) ، (٢) توازن السطوح (The Equilibrium of Planes) ، (٣) كـتاب مساحة الدائرة (The Measurement of the Circle) ، (٤) الأجسام الطافـية (Foating Bodies) ، (٥) كـتاب المأخـوذات في أصول الهندسة (Stomachion) ، (٦) كتاب المفروضات (Lemmata) . وبالمثل نجد عدداً كبيراً من المترجمات في ميدان الفلك ، حيث عرف عدة مؤلفين قدماء من خلال مقتبـسات مـن مؤلفاتهم وردت في كتاب المجسطي (Almagest) كما عرف العـرب مـيطن (Meton) وأقطيمن (Eucteman) وغيرهما ، وتوصلوا إلى الأعمال الكاملة لأطولوقس (Autolycus) ، ومنها كتاب الكرة المتحركة الذي تـرجم إلـى اللاتينية فيما بعد وكتاب الطلوع والغروب (The Rising and Setting of the Stars) . ومـن مؤلفات أرسطرخس (Aristarchus) كتاب جرم الشمس والقمر أو حد الشمس والقمر (The Size and Distance from the Earth of the Sun and the Moon) . ومـن مـؤلفات أراطـوس (Aratus) وأبسقلاوس هيبسكليس (Hypsicles) كتاب المطالع (Ascentions of the Signs) . ومـن مـؤلفات هيبار خوس (Hipparchus) وجيمينوس الروديـسي (Geminus of Rhodes) كـتاب المـدخل إلـى علـم الفلـك (Introduction to Astronomy) وقد ترجم هذا الكتاب فيما بعد إلى اللاتينية والعربية . وعرف العرب أيضاً الكثير من مؤلفات ثاون الإسكندراني (Theon) وغيره . ولكن أهم فلكي درسه العرب كان بطليموس (Ptolemy) الذي عرف كـتابه الأصلي (التصنيف العظيم في الحساب Mathematical Syntax عند العـرب باسم المجسطي (Almagest) الذي عملت له ثلاث ترجمات مختلفة ، عمل إحداها إسحاق بن حنين ، ونقل هذه الترجمة إلى اللاتينية جيراد الكريموني (Gerad of Cremona) . وانبـرى فلكيون عرب آخرون لتلخيصه وتبسيطه والتعليق عليه ، وفي بعض الحالات نقدوا آراؤه نقداً صريحاً . وإلى جانب هذا الكتاب الأساسي عرف العرب كتباً أخرى منسوبة إلى بطليموس مثل : الجداول العملـية Manual Tables وكـتاب الفروض (Hypotheses) ورسالة في صناعة أحكام النجوم تعرف باسم كتاب الأربع مقالات (Tetrabiblos) وكتاب

جغـرافية فـي المعمـور وصفة الأرض (Geography) ، وكتاب المناظر – البـصريات (Optics) . وهـذا الأخيـر كـان ، مع كتاب أقليدس حول نفس الموضوع ، الأساس الذي بنى العرب عليه قواعد علم البصريات وطوروه .(٣٥)

والـوقاع أن الإرث الإغريقـي لم ينتقل إلى الغرب إلا بفضل ترجمات العرب وشروحاتهم الفنية المبدعة . وعلى الجانب الآخر من الإبداع الخالص ، يعتبـر الخوارزمي أول رياضي مسلم ، يدين له العالم والغرب خاصة بمحاولة وضـع تنظيم منهجي باللغة العربية للمعارف العلمية والتقويم ، كما يعرف بأنه هـو الذي أدخل اللفظ الأسباني غوارزمو (Guarismo) الذي يعني الترقيم أي الأعداد ومنازلها ، وهو اللفظ الذي يكتب بالإنجليزية (Algorithm) وهو مشتق مـن اسم الخوارزمي كما ورد في مصنفه المعروف باسم كتاب الخوارزمي في الأرقـام الهـندية ، وكمـا وضع كتاباً في الجبر بعنوان (الكتاب المختصر في حـساب الجبر والمقابلة) . واهتم إخوان الصفا وأحمد بن يوسف البوني بنظرية الأعـداد والأعداد المتحابة والمربعات والمربعات السحرية ، ويبرز في مجال الهندسـة من العلماء المسلمين العرب الأخوة الثلاثة أبناء موسى بن شاكر الذين عاشوا في القرن التاسع الميلادي ، وكان مصنفهم المعروف باسم (كتاب معرفة مـساحة الأشـكال) أحد الأسس التي بني عليها علماء الغرب علم الهندسة من أمـثال : فيبوناشـي (Fibonacci) وجوردانوس نيموراريوس (Jordanus Nemorarus) وروجر بيكون (Roger Bacon) وغيرهم ممن استطاعوا أن يعرفوا الأفكار الأولى الخاصة بالرياضيات مثل برهان الفرضية الخاصة بقياس الدائرة أو قياس مساحة المثلث من خلال العلاقة بين أضلاعه .

ولقد شهد علم الفلك الإسلامي ثورة علمية هائلة إبان العصور الوسطى، وقـد بـدى نـشيطاً ومتقدماً على الأوروبيين ، ومن أبرز هؤلاء العلماء عالم الرياضيات المصري ابن الهيثم ، الذي لعب دوراً مهماً في حفز الفلكيين العرب إلـى الـتفوق على بطليموس واليونانيين ، حيثما عبر عن شكوكه حول نظرية بطلـيموس الخاصة بالأجرام السماوية ، ويأتي بعد ابن الهيثم بقرن من الزمان علمـاء مـسلمون عـرب فـي الأندلس يقودون ثورة " بالتمرد على علم الفلك البطلمي " .

أما مدرسة مراغة في غرب إيران ، وهي مدرسة ضمت علماء مثل : الأردي والطوســـي وقطـــب الدين الشيرازي وابن الشاطر قد نجحت في وضع النماذج الفلكية غير البطلمية . ولذا فإن هذا التراث الحي الذي بدأه ابن الهيثم في القرن الحادي عشر يمثل برنامجاً علمياً بحثياً في علم الفلك ، يتضمن مجموعة مـــتفقاً علـــيها مـــن الاعتراضات على النظرية القائمة مع معايير جديدة للنجاح للتوصل إلى نظرية علمية . وبينما أخفق المجهود الأندلسي ، وهو مجهود يمكن توســـيعه ليضم ابن باجه وابن طفيل وابن رشد وموسى بن ميمون ، في إنتاج نظـــرية علمية مقبولة ، فإن فلكيي مراغة نجحوا (وخاصة على يد ابن الشاطر) إلى الحد الذي دعا البعض إلى القول ، دون تجاوز الحقيقة ، إن كوبيرنكس هو أشهر أتباع مدرسة مراغة ، إن لم يكن آخرهم .(٣٦)

ولاحـــظ العـــرب المـــسلمون بدقة الظواهر البصرية التي بدت لهم في الغلاف الجوي ، ووصفوا هذه الظواهر بأدق صورة ممكنة ، وحاولوا تفسيرها علمـــياً قدر استطاعتهم ، وعلى الرغم مما تعلموه من اليونانيين في هذا المجال إلا أن رؤيتهم لعلم البصريات (أو المناظر) كان لها تأثيرها على تطور هذا العلم في أوروبا فيما بعد .

فقـــد وصف إخوان الصفا قوس قزح والهالات ، ملاحظين في الحالتين الدور الذي يلعبه كل من انعكاس الضوء والرطوبة . وميز زكريا بن محمد بـــن محمود القزويني (المتوفى سنة ١٢٨٣م) ثمانية ألوان منفصلة وذهب قطب الدين الشيرازي (المتوفى ١٣١١م) وكمال الدين الفارسي (المتوفى سنة ١٣٢٠ م) إلى أن الضوء لدى اختراقه جسماً كروياً ينكسر مرتين وينعكس مرة واحدة ، وحـــاولا الوقـــوف على أسباب تكون الألوان ، وتقديم تفسيرات مماثلة للسراب والمرئيات الوهمية ، كما حاولا توضيح بعض مظاهر انخداع البصر . ويعتبر " كتاب المناظر " في البصريات المصنف العظيم الذي خلد ذكر ابن الهيثم . وقد تـــرجم فردريك رسنر (Frederick Risner) هذا الكتاب إلى اللاتينية . ونشر فـــي مدينة بازل بسويسرا سنة ١٥٧٢م بعنوان كنز البصريات (Thesaurus Opticus) .(٣٧)

ب - العلـــوم الطبيعـــية والطب - يمثل مجال العقاقير والسموم أكثر مجالات الطـــب ازدهـــاراً عند المسلمين ، وقد شهد سوق العطارين في القاهرة خلال الحرب العالمية الأولى رواجاً لكثير من الأدوية التي تم اختراعها وتركيبها بمعرفة علماء مسلمين إبان عصر النهضة الإسلامية . ومن أهم الكـــتب فـــي هذا المجال كتاب " شرح أسماء العقار " لموسى بن ميمون (المتوفى سنة ١٢٠٤م) لأنه يقتصر على عرض مبسط لأسماء الأدوية ، ولا شـــك أنه على الرغم من نبوغ علماء المسلمين في هذا المجال ، إلا أنهـــم كانوا على علم بكتابات علماء العقاقير اليونانيين ، وإن كان كتاب " الأدويـــة المفـــــردة " (Materia Medica) المعروف باسم " كتاب الحشائش " والذي وضعه " ديوسقوريدس " (Dioscurides) ظل أعظم مرجع تقليدي في هذا الميدان . إن أهمية علم الطب والعقاقير في التراث الذي خلفه الإسلام لا تضارعها أهمية أي فرع آخر من فروع العلم .

ويعتبـــر كـــتاب " فردوس الحكمة " الذي وضعه علي بن ربن الطبري (سنة ٨٥٠م) أقدم موسوعة عربية في الطب ، وتضم أفكاراً وأساليباً تتفوق على كـــل ما عداها . وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أن مؤلفه كان على علم بالكتاب الـــرائد الذي وضعه حنين بن إسحاق عن طب العيون ، وربما كان أيضاً على علم بترجمته لكتاب " مقالة في الدلائل " أي التشخيص لأبقراط . [٣٨]

ومـــن العلماء الموسوعيين الذين قدموا إسهاماً متميزاً للطب والحضارة الغـــربية ، أبـــو بكـــر محمد بن زكريا الرازي المسمى عند أهل الغرب رازيز (Rhazes) (المتوفـــى سنة ٩٢٥م) ، ويستدل على مكانته العظيمة كتابه الطبي العظـــيم " الحـــاوي " الذي يعرف باللاتينية باسم (Continens) وكتابه الآخر الطب المنصوري المعروف في الغرب باسم (Ad Almansorem) .

أما ابن سينا ، فإن مؤلفه الأساسي كتاب " القانون " ، يعتبر إنجيل الطب فـــي العـــصور الوسطى ، وحل هذا الكتاب إلى حد ما محل مؤلفات الرازي . كـــذلك فإن ابن رشد (المعروف لدى الغرب باسم أفيروس Averroes) والذي تـــرجم كـــتابه المشهور في الطب " الكليات " إلى اللاتينية باسم (Colliget) . ونذكـــر العالم الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى ، علي بن النفيس (المتوفى

سنة ١٢٨٨م) . كذلك فإن علي بن عيسى الكمال يعتبر أعظم من برع في طب العيون عند العرب . (٣٩)

وقد نبغ العرب في علوم النبات والحيوان والمعادن ، بالإضافة إلى الطب البيطري ، فكتاب النبات الذي ورد اسمه في قوائم مؤلفات أرسطو يمثل مظهراً فريداً لتراث الإسلام في الغرب ، فهذا الكتاب هو ترجمة يونانية للصيغة اللاتينية التي عملها ألفرد دي سارشيل (Alfred de Sareshel) لكتاب النبات الذي ألفه في الأصل نيقولا الدمشقي (Nicholaus Damascenus) ، " وكتاب النبات " لأبي حنيفة الدينوري ، وترجم إلى اللاتينية " كتاب الفلاحة النبطية " لابن وحشية ، وترجمت كتابات عالمين أندلسيين في الزراعة هما ، ابن وافد وابن بصال . ومن الكتب الذائعة ، كتاب " الحيوان " للجاحظ ، وكتاب " طبائع الحيوان وخواصها ومنافع أعضائها " لعبيد الله بن جبرئيل بن يختيشوع ، وكتاب " حياة الحيوان " للدميري . كذلك فإن مؤلفات المسلمين في خواص المعادن والأحجار أثارت اهتمام الغرب ، وقد وضع أبو الريحان البيروني (المتوفى سنة ١٠٥٣م) مؤلفه المعروف بكتاب " الجماهر في معرفة الجواهر " (Book of Stones) الذي خالف فيه تماماً ما هو مألوف في كتب علم التعدين عند المسلمين ، وتجاهل كلية وجود أي خواص سحرية للأحجار ، ففي هذا الكتاب قدم ، بالإضافة إلى شروحه لأسماء الأحجار ، مواضع المناجم والأوزان النوعية للعناصر . وبالنسبة للكتب الموسوعية لابد من التنويه إلى كتاب " عيون الأخبار " لابن قتيبة الدينوري (سنة ٨٨٩م) ، الذي ترجم القسم الخاص بالحيوان فيه إلى الإنجليزية مع تعليق عليه . أما الكتب التي تصف الكون فأشهرها كتاب ألفه زكريا بن محمد القزويني (المتوفى سنة ١٢٨٣م) وهو كتاب " عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات " وقدم حمد الله المستوفي – الذي ولد بعد حوالي ثمانين عاماً من وفاة زكريا القزويني – مصنفه الموسوعي المعروف بـ " نزهة القلوب " بالفارسية ، والذي اعتمد على كتاب القزويني المشار إليه سابقاً . وقد ترجم ستيفنسون (Stevenson) القسم الخاص بالحيوان من هذا الكتاب إلى الإنجليزية سنة ١٩٢٨. (٤٠)

ج - الفلـــسفة - تـتكون الديانـــة الإســـلامية فـــي جوهـــرها مـــن الوحي (Revelation) المنـــزل علـــى الرســـول الكريم ﷺ والمتمثل في آيات القـــرآن الكـــريم ، وهـــذا ثابت لا يتغير ، لأنه يمثل التعبير الفعلي عن الإرادة الإلهية ، ويتضمن الحقائق الخالدة . أما تفسير هذا القرآن ، فهو ما يثيره الوحي من رد فعل في العقل الإنساني ، وإذا كان الوحي أو سنة الرســـول (المتمثلة في أحاديثه النبوية) يبقيان على مر العصور دون أن يخـــضعان لأي تغييـــر ، فإن تفسير القرآن والأحاديث ربما يتعرضان للاجـــتهادات والتغيرات . والملامح الأساسية للفلسفة الإسلامية تنبع من القرآن الكريم ، وهو نقطة البداية التي لا مراء فيها . ولكن هذا لم يمنع مـــن وجود صلات بين الفلسفة الإسلامية والفلسفة اليونانية خاصة فيما يتعلق بالمعرفة أو فلسفة العلوم (كما يطلق عليها الآن) ، ومن ثم اقترب فلاســـفة الغـــرب من الفلسفة الإسلامية ونهلوا منها ليجمعوا بين الإرث الإغريقـــي والفلسفة الإسلامية ، وتأثر الغرب بحكمة الفارابي (المتوفى ســـنة ٩٥٠م) ، وابن سينا (المتوفى سنة ١٠٣٧م) ، وابن رشد (المتوفى سنة ١١٩٨م) . وكانوا جميعهم مقتنعين بوحدة المعرفة .

والفارابـــي فـــي كتابه " إحصاء العلوم " يحصي العلوم المتنوعة ويتكلم عنها ، ويذكر الفلسفة في النهاية على أنها رأس العلوم ، لأنها تضمن اليقين في المعرفة التي يحصل عليها بالبرهان. وابن سينا في كتابه الكبير الجامع " الشفاء" (والمقصود به شفاء الناس من الجهل) يحيط بجملة العلوم بحسب الخطة التالية: (١) المـــنطق ، (٢) الطبيعيات ، (٣) الرياضيات ، (٤) الإلهيات . ويدخل ابن سينا في نطاق الإلهيات جميع ما جاء به الوحي في القرآن الكريم . ويبين أن الله ، وهو واجب الوجود والذي لا واجب وجود سواه ، خير قادر على كل شيء ، وخالق كل شيء وقدير حكيم .

ويميز ابن رشد بين ثلاثة أنواع من العقول : الأول هو العقول البرهانية القادرة على متابعة دليل يقيني محكم ، وتصل إلى نتائج بينة ضرورية ، وربط هذه الأدلة هو الذي يكون الفلسفة ، أليس هذا يمثل جوهر فلسفة العلم المعاصرة، والـــنوع الثانـــي عقول منطقية تكتفي بالبراهين الجدلية . أما النوع الثالث فهو

العقول التي تستجيب للوعظ والأدلة الخطابية ، وهذه غير مهيأة لاتباع الاستدلال المنظم ، والعقول الأخيرة نجدها عند جميع الناس العاديين . وخلاصة القول فإن الفلسفة الإسلامية تبدي ولعاً بمسألة المعرفة وأسسها المتعلقة بالنفس والوجود.(٤١)

د - الأدب - ربمـــا يكـــون مصدرنا الأساسي في هذا الجزء ما كتبه فرانز روزنـــتال Rosenthal فـــي كتاب " تراث الإسلام " ، حيث ميز ، في تـــاريخ العلاقـــات الأدبـــية بين الإسلام والغرب ، ثلاث حقب متوالية ، الأولى والثانية يتداخل بعضها مع بعض ، يبدأ من القرن الأول الهجري وحتـــى القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، وشهدت هذه الفتـــرة بـــدايات حـــركة تـــرجمة واسعة من الأدب العربي إلى اللغات الأوروبية ، ونستطيع أن نتوقع وجود تأثيرات أدبية نتيجة لانتشار المواد المكتوبة ، أما الحقبة الثالثة فقد ظهرت مع الترجمات العلمية الأولى التي تمـــت في هولندا ، في أوائل القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر المـــيلادي ، ومـــع إدخـــال الأدب الفارسي في نفس الوقت عن طريق تـــرجمات لديـــوان الـــسعدي . وقد ترجم هذا الديوان أول الأمر ترجمة فرنـــسية غير كاملة على يد دورييرر Du Ryer سنة ١٦٣٤م ثم ترجمة جنتـــيوس Gentius إلـــى اللاتينـــية سنة ١٦٥١م وترجمه أوليريوس Olearius إلى الألمانية سنة ١٦٥٤م . وقد لقيت هذه الترجمات رواجاً كبيراً في أوروبا كلها ، أما علم المعاجم العربية ، فكان هو الأساس الذي قامت عليه المعاجم الغربية العربية .(٤٢)

ومما يلفت الانتباه ، أن كثيراً من الأعمال الأدبية الغربية تأثرت بالأدب الإســـلامي مثل ملحمة ترسترام وأيزولد Tristram & Iswlt والتي تحمل في بنيتها شبهاً مع بنية الملحمة الفارسية (وايس ورامين) وأي كانت هذه التأثيرات مـــثلما ذكـــر عن " دانتي " وتأثره بعروج الرسول ﷺ في صياغته " للكوميديا الإلهية " من خلال بحث ميجيل بالاثيوس Palacios سنة ١٩١٩ ، فإن الحقيقة الثابتة أن كثيراً من الأعمال الأدبية التي أنجزت في العالم الإسلامي ترجمت إلى لغـــات الغـــرب ، وكتب لها التداول ، والأهم من ذلك أنها لاقت رواجاً كبيراً ،

وربمــا لا يسعفنا البحث في هذه الدراسة أن نتحرى هذه التأثيرات في كثير من الأعمال الأدبية الغربية .

ولكــن هــذا لا يمــنع أن نذكــر أن كثيراً من عناصر الأدب الشعبي الإســلامي تواترت في الظهور مرة بعد أخرى في الأدب الغربي ، على سبيل المــثال مجموعة قصص " الأيام العشرة " لبوكاتشو Boccaccio ومما يستحق الذكر ذلك الأثر الكبير الذي أحدثه ترجمة أنطوان جالان Antoino Galland لألــف ليلة وليلة إلى اللغة الفرنسية ، فقد أدخلها بالفعل إلى الخيال الأدبي لأهل الغرب.

ولا يمكــن أن ننــسى تأثير الترجمة الإنجليزية لرباعيات الخيام والتي قــدمها إدوارد فيتزجــرالد Edward Fitz Gerald ، فقــد شقت طريقها إلى الحضارة الغربية وكشفت عن عالم أكثر حرية وصفاء وإنسانية . وهناك بعض التــرجمات التي تمت بتصرف مثلما حدث لكتاب " كليلة ودمنة " و" السندباد " و" الحكماء السبعة " ، وقد ترجمت أقوال الفلاسفة القدماء التي جمعها حنين بن إسحاق (المتوفى ٨٧٣م) إلى العبرية ، مما ساعد على كثرة تداولها ورواجها في جمــيع أوروبا . أما الحكم التي جمعها المبشر بن فاتك في مصر في الفترة من ١٠٤٨ – ١٠٤٩م فقــد ترجمت إلى الأسبانية بعنوان " الأقوال الذهبية " ثم إلى اللاتينية والفرنسية والإنجليزية ، ويرجع الاهتمام الكبير بهذا الكتاب إلى طابعه التعليمي والتهذيبي .

وبكلمة موجزة ، فإن هذه التأثيرات الإسلامية وسعت النظرة الغربية إلى العــالم وجعلــتها أكثر تنوعاً . وليس من شك في أن ذلك أغنى الأدب الغربي بدرجــة لا حــد لها ، وكان أحد العوامل التي مكنت هذا الأدب من التطور في اتجاه نوع من العالمية كان جديداً في تاريخ الإنسانية .(٤٤)

هـ – القانــون – يعــتقد جوزيف شاخت Schaht – وعن حق – أن أهم ما أورثــه الإسلام للعالم المتحضر قانونه الذي يسمى " بالشريعة " . بل إن التــشريعين المقدسين الآخرين الذين يعتبران نماذج من القانون الديني ، والــذين همــا أقــرب مــا يكونان إلى الشريعة الإسلامية من الناحيتين التاريخــية والجغــرافية – وهمــا الــشريعة اليهودية Jewish Law والقانــون الكنــسي Canon Law – يخــتلفان عن الشريعة الإسلامية

اخـــتلافاً ملموســـاً. ذلك لأن الشريعة الإسلامية أكثر تنوعاً وشمولاً في صورتها مما في التشريعين المذكورين . والخاصية الرئيسية التي تجعل التـــشريع الإسلامي على ما هو عليه وتضمن وحدته مع كل ما فيه من تنوع ، هي نظرته لجميع أفعال البشر وعلاقاتهم بعضهم ببعض .

وبالرغم من أن التشريع الإسلامي قانون ديني فإنه من حيث الجوهر لا يعارض العقل بأي وجه من الوجوه ، وهو ذو منهج منظم ويؤلف مذهباً متماسكاً ، ونظمـــه المـــتعددة متـــرابطة بعـــضها مع بعض . أما عن تأثيرات التشريع الإســـلامي على القوانين الأخرى ، فإنها لا يمكن أن تباري من حيث الأهمية ، وأعظـــم هـــذه التأثيرات جاء في القانون التجاري المتعارف عليه ، فالعديد من أنظمـــة هذا القانون التجاري انتقل في العصور الوسطى إلى أوروبا عبر البحر الأبـــيض المتوسط ، والشاهد مصطلحات مثل : لفظ (Mohatra) المأخوذ من الكلمـــة العربية مخاطرة ، ولفظ (Aval) وهي كلمة فرنسية محرفة من كلمة " حوالة " العربية ، أي تحويل الديون . وربما أيضاً لفظ " شيك " Cheque جاء من الكلمة العربية " صك " أي الوثيقة المكتوبة . وكان تأثير التشريع الإسلامي واضـــحاً في أسبانيا الإسلامية وجمهورية جورجيا السوفيتية ، وفي قوانين أهل الديانات الأخرى من اليهود والنصارى الذين شملهم تسامح الإسلام وعاشوا في الدولـــة الإســـلامية . فبالنـــسبة للجانـــب اليهودي ، يبدو أن موسى بن ميمون (المتوفـــى سنة ١٢٠٤م) ، قد تأثر ببعض ملامح المؤلفات الإسلامية في تنظيمه للمادة القانونية في مدونته بعنوان " مشنة توراه " (Mishnah Torah) وبالنسبة للجانـــب المـــسيحي فليس هناك شك في أن الفرعين الكبيرين للكنيسة المسيحية الـــشرقية وهمـــا : اليعاقـــبة الموثوفيـــزية (Monophysites) والنسطوريون (Nestorians) ، وخاصة فيما يتعلق بقانون الميراث والأوقاف الخيرية .[٤٤]

لقـــد كان تأثير الإسلام في أوروبا شاملاً ميادين كثيرة ، ومهيمناً على جـــوانب مـــتعددة ، ويمكن القول أن هذا التأثير عم مستويات الحياة الأوروبية جمـــيعاً ، ونـــال أكثـــر المجالات والبنى اختلافاً وتباعداً بما في ذلك النواحي المعيـــشية والـــتجارية والاقتصادية والتقنية والسياسية والآداب والعلوم والفلسفة

والدين ، بل إنه ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ليشمل العمارة والموسيقى والفنون التشكيلية ، وكانت الأخيرة ذات تأثير بارز على جميع مناحي الحياة في أوروبا.

ولقـد كانت نهضة العرب وإبداعاتهم ، هي – بلا شك – أساس نهضة أوروبـا وحجر الزاوية لحضارتها المعاصرة . أما عن الإرث الإغريقي ، فلقد انـتقل إلـى الغـرب عبر ترجمات عربية أولاً ، ويعترف المنصفون من أبناء الغرب ، بأن ما كتبه علماء الإسلام من هوامش وملاحظات ، وما طوره هؤلاء العلمـاء مـن أفكـار ومبادئ ونظريات لم يكن يقل في أهميته عن النصوص الأصلية. لقد كان الشرق الإسلامي بالنسبة لأوروبا نوعاً من المنبع أو المصدر، الـذي اسـتمدت منه عناصر ثقافية لم تكن في متناول يديها قبل احتكاكها بهذه المـنطقة الحيوية ، والأهم من ذلك فقد كان الشرق الإسلامي هو المحرض أو الدافـع الـدائم ، الـذي شـكل تحدياً لأوروبا من خلال طرحه أفكاراً جديدة ، وإشـكاليات غريبة معقدة ، اضطرتها إلى البحث المتوتر النشيط بغية التوصل إلـى حلـول معقولة لتلك الإشكاليات ، وأخيراً فقد كان الشرق الإسلامي بمثابة الإمثولة والقدوة التي تستوجب العمل والتحدي من أجل تحقيقها والوصول إليها .

تغريب العالم :

إن النظرة الأكثر موضوعية للغرب تكون من خلال جملة من الأبعاد ، لا يمكن تجاهل إحداها ، فهو كيان جغرافي يتحدد في أوروبا وأمريكا ، وديانة مـسيحية (الكاثوليكـية تحديداً) ، وضمن فلسفة التنوير ، ولسنا مبالغون إذا قلنا وعرق أبيض ، وأخيراً نظام اقتصادي رأسمالي ، وهو في النهاية يمثل ظاهرة حضارية لها خصوصيتها .

وإذا كـان الغرب يعادي ثقافة Anticulture كما يحلله روبير جولان Robert Jaulin لأنـه يدمـر ثروة الجماعات الإثنية في العالم الثالث أو يقوم بـإحلال الرفاهية المجهولة للنمو الاقتصادي على أسس ثقافية استهلاكية ، فهو بهذا المعنى يتحدد في المفهوم الضيق لكلمة " ثقافة " .

ونحن نلتقي في الكتابات المعاصرة بألفاظ مثل تثاقف Acculturation، وتـستخدم كلمـة تثاقف للدلالة على تفاعل إيجابي عند الاحتكاك بين الثقافات . وعندما تدخل ثقافتان في اتصال ، فإذا كانت السمات الثقافية التي يجري تبادلها

تتوازن وتحافظ كل منهما على هويتها وديناميتها الخاصتين بعد إدماج واستيعاب العناصر الأجنبية ، يمكن الحديث عن تثاقف ناجح . وعندما ، على العكس من ذلـــك ، لا يتجـــسد الاتـــصال في تبادل متوازن ، بل في تدفق في اتجاه واحد مصمت ، تغدو الثقافة المتلقية مغزوة ، مهددة في وجودها ذاته ويمكن اعتبارها ضحية عدوان حقيقي ، وإذا كان العدوان ، فوق ذلك مادياً ، فهذا هو الزوال أو الإبادة الجماعية . أما إذا كان العدوان رمزياً ، فإن الإبادة الجماعية تغدو ثقافية وحسب ، أي إبادة إثنية ، والإبادة الإثنية هي أعلى مراحل محو الثقافة . والواقع أن عملــيات إدخـــال القيم الغربية : قيم العلم والتقنية . والاقتصاد ، والتنمية ، والــسيطرة علـــى الطبــيعة ، هي دعائم محو الثقافة . إن الأمر يتعلق بتحويل عقيدي حقيقي .(٤٥)

على أن وسيلة نقل هذا " التحويل العقيدي " تجاوز حدوده المستترة ، فقد كـــان بـــالأمس من خلال منح الهبات يحصل الغرب على السلطة والهيبة اللتين تـــؤديان إلـــى المحو الحقيقي للأبنية الثقافية ، على حين أصبح اليوم يتمثل في العنف المكشوف أو النهب ، حتى وإن تقنع بقناع التبادل السلعي غير المتكافئ . ولا يمكـــن للمجتمعات الإسلامية أو دول العالم الثالث (غير الغربية عموماً) إلا أن تـــدور فـــي حلقة مفرغة ، ففقدان المعنى الذي يصيبها وينخر فيها لا يمثل تـــثاقفاً، ولا يعنـــي مجـــرد واقـــع أن الغرب ماثل هناك ، بل هو محاولة جادة للاغتصاب والاستغلال والعودة إلى قيم ومفاهيم الاستعمار القديم .

فكرة الاضمحلال في الحضارة الغربية :

علـــى الرغم من كثرة الكلام عن " أفول الغرب " ، والجدل الدائر حول هـــذه الفلـــسفة ، فإن الرأي الأكثر قبولاً أن الغرب الحديث على شفا حفرة من الفـــناء . ومهما كان من أمر السطوة الخارجية للغرب ، إلا أنه يحمل في بنيته الداخلية فكرة التحلل والاضمحلال .

ويـــذهب بول كيندي Kennedy, 1987 في كتابه " قيام وسقوط القوى الكبـــرى " إلى أن الأمريكيين كانوا على وشك أن يواجهوا المصير نفسه الذي واجهـــه البـــريطانيون في نهاية القرن التاسع عشر ، ألا وهو الاضمحلال كقوة عالمـــية . كانـــت الـــولايات المـــتحدة تعاني مما يدعوه بول كيندي " التوسع

الإمبريالــي المفــرط " ، وكانت تضغط عليها القوى العنيدة نفسها التي حطمت " الــسلم البريطاني " (Pax Brittanica) وأدت إلى الحربين العالميتين الأولى والثانية – وبالوقوع في فخ الالتزامات العسكرية إبان الحرب الباردة . ومضى كيندي بقوله سوف تكون المهمة التي تواجه رجال الدولة الأمريكيين في العقود القادمــة هــي إدارة الأمــور على نحو يجعل التآكل النسبي في وضع الولايات المتحدة يحدث ببطء وهدوء .(٤٦)

وربمــا يتــساءل البعض ألم يحدث العكس ؟ فبعد أقل من ثلاث سنوات علــى صــدور كتاب كنيدي اختفى الاتحاد السوفيتي وصعدت أمريكا إلى موقع القــوة الوحيدة في العالم ، وأي كانت نقطة التحول هذه ، فإن الواقع المرصود أمامــنا أن أمــريكا تجاوزت – بانهيار الاتحاد السوفيتي – الحرب الباردة إلى حــروب ســاخنة فــي أمــاكن عديدة من العالم ترتسم من خلالها فكرة التوسع الإمبريالي المفرط متزامناً مع التزامات عسكرية أكثر ، إن كثيراً مما حدث في إمبــراطوريات قديمــة مــنهارة يــسيطر علــيها الولايات المتحدة : العجرفة والغطرسة، الاستقطاب الاقتصادي ، انتشار الترف والانحلال الأخلاقي .. إلخ . من أعراض الاضمحلال .

وقــد ظهرت كتب كثيرة تبحث في نفس المعنى عن مستقبل أمريكا مثل " فجــر الديمقــراطية الكــاذب " و" فقــدان الأمــل في الديمقراطية " و" شرك الديمقــراطية " و" محاكمــة الديمقــراطية " و" فقــدان الأمل في الديمقراطية " و" الجمهــورية المجمدة " و" قضايا العرق " و" بيع أمريكا " و" إفلاس أمريكا " و"الحلم الأمريكي المهدد " و" من سيخبر الشعب " . (٤٧)

ولــيس مــن شــك أن فكرة الاضمحلال الغربي هذه ، لها جذورها في أعمال بعض المفكرين عند بدايات القرن العشرين ، فمثل هذه التحذيرات ذهب إلــيها أرنــولد توينبــي Toynbee وأوزوالد شبنجلر Spengler وبنيامين كيد Benjamin ، وهؤلاء الكتاب أنفسهم هم الذين صاغوا مصطلح " الغرب " لكي يصفوا به حضارة أوروبية مترنحة ، كانوا يعتقدون أنها آفلة لا محالة .

وعلى الرغم من قيم التحلل والاضمحلال في الحضارة الغربية ، إلا أن هذا ليس وحده الذي ينخر في هذا الصرح ، بل إن تدهور البيئة ربما يؤدي إلى

نفـس النتيجة ، ليس للحضارة الغربية فحسب ، بل لكوكب الأرض ككل ، وفي كـتاب لـه مغـزاه تحـت عـنوان " الأرض في الميزان " يؤكد ألبرت جور Albert Gore نائـب الـرئيس الأمريكي السابق على : إذا لم نتمسك بالحفاظ على الأرض ، جاعلين ذلك مبدأ تنظيمياً جديداً لنا ، فإن بقاء حضارتنا نفسها ، يصبح موضع شك . (٤٨)

ويـذهب جور إلى أن سخونة الكرة الأرضية ، نقص الأوزون ، تدمير الغابـات الطبيعـية ، انقراض السلالات ، تلوث الهواء والماء ، كل ذلك يشكل تهديـدات قاتلـة لوجودنا ذاته ، والنتيجة أننا نلهث وراء الأدوات والتكنولوجيا المغـرية التي جاءت بها الحضارة الصناعية ؛ ويحاول جور أن يستنفر العالم لإنقاذ الكوكب بقوله إن البشر في جميع أنحاء العالم لابد أن ينظروا نظرة جادة إلـى عاداتهم الذهنية والعملية التي تعكس هذه الأزمة الخطرة والتي أدت إليها بداية ، ومن بين هذه العادات والممارسات ، الرأسمالية الجديدة المولعة بالكسب، والتي عميت عما تسببه للبيئة من دمار. (٤٩)

ويعتقد جور أن هذه الحضارة تواجه الآن " أزمة هوية اجتماعية " ، كما أن هناك دلائل تتجمع وتثبت أن هناك بالفعل أزمة روحية في الحضارة الحديثة بسبب خواء مضمونها وغيبة هدف روحاني أكبر . (٥٠)

لقـد عادت الأفكار تتلاقى ، فاضمحلال وتحلل الحضارة بسبب التردي القيمي والأخلاقي يمثل خلاصة القول وإن أخذ في أحد أشكاله ، صيغة التدهور البيئي .

ومن نافلة القول أن نذكر أن " فكرة الاضمحلال في الحضارة الغربية "، شـكلت الأسـاس المظلم للفكر الأوروبي الحديث في القرن التاسع عشر ، بل وأصـبحت الموضـوع الأكثـر سـيادة وتأثيراً في الثقافة والسياسة في القرن العشرين .

ويعتقد آرثر هيرمان Herman, 1997 أن فكرة الاضمحلال مكونة من فكـرتين جزئيتين . في مقابل كل مثقف غربي يخشى اضمحلال مجتمعه (مثل هنـري آدمز أو أرنولد توبيني أو بول كينيدي أو تشارلز موراي ، هناك مثقف آخـر يتطلع إلى ذلك بلهفة . وعلى مدى ثلاثة عقود قدم مفكرون أمثال نورمان

مايلـــر Norman Malier ، جـــور فـــيدال Gore Vidal، كريستوفر لاش Christopher Lasch ، جـــاري ويلـــز Garry Wills ، نعـــوم تشكومسكي Naom Chomsky ، بـــول جـــودمان Paul Goodman) صـــوراً متشائمة للمجتمع الأمريكي والحضارة الغربية بصفة عامة . (٥١)

والسؤال الذي يطرح نفسه لم هذه النظرة التشاؤمية ؟ ولم اللهفة والفرحة من قبل بعض المفكرين الغربيين حال حدوث هذا الاضمحلال ؟

وربما تكون الإجابة إيجاز لما سبق ، فالمجتمع الغربي مادياً ، مفلساً من الناحـــية الروحية ، ومجرداً من القيم الإنسانية . وأما المتلهفون للاضمحلال ، لأنهم يعتقدون أن المجتمع الحديث الفاسد عندما يفرغ من تدمير نفسه ويختفي ، سوف يحل محله شيء آخر أفضل منه ، إلا أن النظام الجديد لن يكون اقتصادياً أو سياســـياً بالأساس . ولكن بدلاً من ذلك سوف يكون إنسانياً . والفلسفة عندهم أن الأمور كلما زادت سوءاً ستصبح أحسن .

والكلمـــة الأخيرة في هذا المجال ، هي أن آلية الاضمحلال موجودة في بنـــية الحضارة الغربية ، وقد عبر عنها شبنجلر في كتابه " أفول للغرب " بأن الحـــضارة الحديثة مأسورة في عملية اضمحلال وتدهور وسقوط حتمي ، كذلك نيتشه الذي قال هناك عناصر تآكل في كل شيء يميز الإنسان الحديث .

مراجع الفصل الرابع

١ - حسين مؤنس (١٩٩٨) ، الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، الطبعة الثانية ، ص ص ٤٦ - ٤٧ .

2 - Toynbee, A. (1964), A study of History, Oxford University Press, P. 235.

٣ - حسين مؤنس (١٩٩٨) ، مرجع سابق ، ص٥٠ .

٤ - المرجع السابق ، ص٥٠ .

5 - Freeman, E. A. (1873), Comparative Politics, London, P.P 31-32.

6 - Toynbee, A. (1976), Man and Mother Earth, Oxford University Press, P.P. 22 – 23.

٧ - صوفي بيسيس (٢٠٠٢) مؤلف ، نبيل سعد (مترجم) ، الغرب والآخرون : قصة هيمنة ، دار العالم الثالث ، القاهرة .

٨ - عبد الجبار الرفاعي (٢٠٠٢) ، نحن والغرب : جدل الصراع والتعايش ، دار الهادي ، بيروت ، ص١٩ .

9 - Riley – Smith, J. (1987), What were the Crusades ?, London, P. 11.

١٠ - قاسم عبده قاسم (١٩٩٠) ، ماهية الحروب الصليبية ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ص١١ .

١١ - جوزيف نسيم يوسف (١٩٨١) ، العرب والروم واللا قيمة في الحروب الصليبية الأولى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ص ص ٤٥ - ٤٦ .

١٢ - قاسم عبده قاسم (١٩٩٠) ، مرجع سابق ، ص ٦٧ .

١٣ - عبد الجبار الرفاعي (٢٠٠٢) ، مرجع سابق ، ص ٢٤ .

١٤ - جوســـتاف لوبون (١٩٧٨) ، مؤلف ، عادل زعيتر (مترجم) ، حضارة العرب ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ، ص٣٢٠ .

١٥ - عبد الجبار الرفاعي (٢٠٠٢) ، مرجع سابق ، ص ٣٣ .

١٦ - المرجع السابق ، ص١١ .

١٧ - جوستاف لوبون (١٩٧٨) ، مرجع سابق ، ص ٣٣٩ .

١٨ - ول ديــورانت (٢٠٠١) مؤلــف ، محمــد بــدران (مترجم) ، قصة الحضارة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، الجزء ١٥ ، ص ص ٦٤ - ٦٧.

١٩ - إرنست باركر (١٩٩١) مؤلف ، السيد الباز (مترجم) ، الحروب الصليبية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ص١٥٠ .

٢٠ - إدوار بــروي وآخــرون (١٩٨٦) مؤلفــون ، يوسف داغر وفريد داغر (مترجمان) ، تــاريخ الحضارات العام ، منشورات عويدات ، الطبعة الثانية ، بيروت ، مج ٣ ، ص ٣١٤ .

٢١ - عبد الجبار الرفاعي (٢٠٠٢) ، مرجع سابق ، ص ٣٨ .

٢٢ - جوستاف لوبون (١٩٧٨) ، مرجع سابق ، ص ١٩٧ .

٢٣ - إرنست باركر (١٩٩١) ، مرجع سابق ، ص ١٤٤ .

٢٤ - أحمــد توفيق المدني (١٩٧٥) ، المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا ، الجزائر ، ص ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

٢٥ - جوستاف لوبون (١٩٧٨) ، مرجع سابق ، ص ٣٣٦ .

٢٦ - ول ديورانت (٢٠٠١) ، مرجع سابق ، ص ٦٨ .

٢٧ - قاسم عبده قاسم (١٩٩٠) ، مرجع سابق ، ص ٢٤١ .

٢٨ - توبــي هــف (٢٠٠٠) مؤلف ، محمد عصفور (مترجم) ، فجر العلم الحديث ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ص ١١٧ .

٢٩ - صوفي بيسيس (٢٠٠٢) ، مرجع سابق ، ص ٢٦ .

٣٠ - المرجع السابق ، ص ٢٧ .

٣١ - عبد الجبار الرفاعي (٢٠٠٢) ، مرجع سابق ، ص ص ٥٨ - ٥٩ .

32 - Fuller, G. E. & Lesser, I. O. (1995), the Geopolitics of Islam and the West, Rand., P. 37.

33 - Ibid, PP. 37 – 38 .

٣٤ - توبي هف (٢٠٠٠) ، مرجع سابق ، ص ص ٦٥ – ٦٦ .

٣٥ - جوزيف شاخت ، كليفورد بوزورث (١٩٩٨) محرران ، حسين مؤنس وإحسان صدقي (متــرجمان) ، تراث الإسلام ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، الجزء الثاني ، ص ص ١٨٩ – ١٩١ .

٣٦ - توبي هف (٢٠٠٠) ، مرجع سابق ، ص٧١ .

٣٧ - جوزيف شاخت ، كليفورد بوزورث (١٩٩٨) ، مرجع سابق ، ص٢١٥ .

٣٨ - المرجع السابق ، ص١٦٤ .

٣٩ - المرجع السابق ، ص١٦٧ .

٤٠ - المرجع السابق ، مواضع متفرقة .

٤١ - المرجع السابق ، ص ص٥١ – ٥٣ .

٤٢ - المرجع السابق ، ص٢٨ .

٤٣ - المرجع السابق ، ص٣٩ .

٤٤ - المرجع السابق ، ص١٠٨ .

٤٥ - سيرج لاتوش (١٩٩٢) مؤلف ، خليل كلفت (مترجم) ، تغريب العالم ، دار العالم الثالث ، القاهرة ، ص ص ٥٩ – ٦٠ .

46 - Kennedy, P.(1987), Rise and Fall of the Great Powers, New York, PP. Xvi – xviii .

47 - Kennon, Twilight of Democracy, Graham Fuller, the Democracy Trap (New York, 1991), Jean B. Elshtain, Democracy on Trail (New York, 1995), Victor Kamler, Giving Up of Democracy (Washington, DC, 1995), Daniel Lazer, the Forzen Repuplic (New York, 1996), Gornel West, Race Matters, (New York, 1993), Rose

L. Martin, the Selling of America, (Santa Monica, CA, 1993), David Calleo, the Bankrupting of America, (New York, 1992) Edward Luttwak, the End Angered American Dream, (New York, 1989), and William Grieder, who Will Tell the People? (New York 1992).

48 - Albert Gore (1992), Earth in the Balance: Ecology and the Human Spirit, Permission of Houghton Mifflin Company .

49 - Ibid, P.12, 183.

50 - Ibid, P.12, 367.

51 - Herman, A. (1997), the Idea of Decline in Western History, Simon & Schuster Inc., New York.

الفصل الخامس
نحو نظرية في التفاعل الحضاري
بين الإسلام والحضارات الأخرى

يدور الجدل – على امتداد العالم – حول قضية الحضارات والثقافات، وحول الأهداف المعلنة والخفية وراء تلك الإطروحات، وحول كيفية معالجتها إن حواراً أم صراعاً .

والتاريخ العالمي لم يخل من نزاعات وصراعات حضارية، ناتجة عن التلاقح والالتقاء الثقافي بين حضارة وأخرى، وبين مجتمع وآخر. ذلك أن ديناميية التفاعل الثقافي، تخلف باستمرار عدة آثار في السلوك الحضاري والاجتماعي، سواء على شكل مقاومات داخلية ضد الوافد لحفظ " الصفاء " العرقي أو الثقافي أو غيرهما، أو على شكل تماهيات يدخل فيها طرف في آخر كلياً أو جزئياً في سياق متناغم يسمح بالتعاضد والتآلف .

وإذا كنا قد اعتدنا تأريخ المرحلة الحديثة في التاريخ من عصر النهضة في القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر، باعتبار أن هذا هو التاريخ الوحيد المحدد، بأنها بداية لحدوث النهضة على مستوى العالم إقتداءً بالعالم الغربي، لكن الثقافة التي جاءت، فعلياً، بالنهضة العالمية إلى ثقافة العالم، كانت الثقافة العربية الإسلامية اعتباراً من القرن السابع وحتى القرن الحادي عشر، لتدمج – وبمنهجية متميزة – بين العالم القديم والعالم الجديد، بين الثقافة الشرقية العربية الإسلامية وثقافة الغرب اليونانية، والعالم مدين بشدة بالفضل لهذه الثقافة العربية الإسلامية رغم نكرانها كثيراً عبر مؤامرة غربية مخططة .

والأمر المثير للجدل، أنه على خلاف جميع التكهنات التي ذهبت إلى أن انتهاء الحرب الباردة سوف يوفر مناخاً أفضل لإحلال السلام والأمن على المستوى الدولي، فإن التطورات الفعلية جاءت على النقيض تماماً، حيث تفاقمت الحروب التجارية والحروب القومية والحروب الأهلية على امتداد الساحة الدولية. وربما مما يثير الانتباه ارتباط هذه الصراعات – في جانب مهم منها – بالبعد الحضاري أو البعد الإثني .

ومـــع الاعتراف بحقيقة أن التفاعل الحضاري يؤدي إلى التأثير المتبادل بين الحـــضارات، إلا أن هـــذا التفاعل لا يتحقق له الفاعلية إلا من خلال توازن في العلاقـــات الحضارية. لكن الواقع يشير إلى حالة من الخلل الحضاري الناتج – بالطـــبع – عـــن خلل في توازن العلاقات الحضارية. فعلى حين تستعلي بعض الحـــضارات علـــى الأخرى، نجد هذه الأخرى قد أصابتها الدونية والوهن من جراء التبعية الحضارية .

إن الإشـــكالية الحقيقية في نموذج " الحوار الحضاري " هي أن العالم يعيش فـــي هذه الآونة، حقيقة لا مفر منها في هذا السياق، وهي أن الحضارة الغربية هـــي الحـــضارة الأقـــوى علـــى كافـــة الأصـــعدة العلمية والتقنية والعسكرية والاقتـــصادية. وبالتالـــي فهـــي القادرة على تفعيل العوامل الخاصة " بالتفاعل الحضاري " بدرجة تفوق بكثير الحضارات الأخرى، المقابلة أو المواجهة. ووفقاً لهذا الخلل، يسوق منظرو ومخططو فكرة " النظام العالمي الجديد " معطياتهم – التي يمكن أن تهدد الجهود المخلصة للحوار الحضاري – وهذه المعطيات تتجسد فـــي: الانتـــصار النهائي لليبرالية الرأسمالية وشيوع نموذجها عالمياً، وهيمنة القطب العالمي الواحد على الساحة العالمية، والسيطرة المروعة للتقنيات العلمية، والتـــي يمـــتلك ناصيتها – في الأغلب – الدول الغربية، وأخيراً نهاية القوميات وانهيار الخصوصية الثقافية وبزوغ صراعات بين الدول والمناطق على أساس ديني .

نحـــن في حاجة إلى نظام عالمي إنساني يؤكد على جوانب الاتفاق الإنساني أكثـــر مـــن تأكيده على جوانب الاختلاف، ويرسي الحقوق الأساسية للإنسان، ويحتـــرم الاختلافات والخصوصيات الدينية والقومية والثقافية عامة، وينوط فيه الـــسلام والعـــدل وإرادة التقدم والتعاون والتكامل لشعوب الأرض جميعاً بهدف تحقيق " إنسانية الإنسان " عن حق .

إن ذلـــك لن يتحقق ما لم يرسخ مفهوم الحوار في إطار الحرص على حرية الاخـــتلاف والاجتهاد والإبداع واحترام الرأي الآخر بصرف النظر عن اتجاهه الفكري أو العقائدي .

إن هــذا الحوار هو حوار منظم هادف إيجابي، مشروط بالتكافؤ النسبي بين الــدول والــشعوب، وبتوازن المصالح فيما بينها وتوفير المناخ المناسب له. إن عــدم توافر هذه الشروط أو الإخلال بها قد يمكن أطرافاً دولية معينة من إساءة استخدام أسلوب الحوار والالتفاف حوله بفرض الهيمنة .

لابــد للحــوار الحضاري أن يولي الاحترام الواجب لما بين الحضارات من اختلافات، في نفس الوقت الذي تبنى فيه على الجوهر الأخلاقي المشترك الذي يمــثل الجانب الأهم والأوفر في بنية الحضارة الإنسانية. وعلينا أن ندرك جيداً، أن فترة من الحرب الباردة، لازالت تلقي بظلالها القاتمة على مصير العالم .

ومــن ثم فإننا ننتقل بين قديم لم يتلاشى بعد، وجديد لم تتحدد معالمه النهائية بعــد، ولــذا فالطابــع الانتقالــي للمــرحلة الــراهنة يميل إلى الصراع أكثر مــن مــيله إلــى الحوار. ولكن كيف يمكن التعامل مع هذا الصراع الذي يمثل جوهــر الــنظام العالمي الآتي ؟ صراع مفروض من الغني على الفقير .. من المــبدع علــى الناقل. هل يمكن أن يتم " الحوار الحضاري " بين شركاء غير متكافئين ؟

قد يبقى هذا النموذج الذي نسعى إلي تكوينه وعرضه أملاً، وعلى الرغم من أن الأعمــال العظــيمة بــدأت بالآمال، فإن " الحوار الحضاري " يتطلب آمالاً مدعومة بصدق النوايا وأعمال جادة. ويتطلب ذلك تفاعلاً بين المثالية والواقعية. فالمثالية تحفز أطراف الحوار نحو إجماع جديد، بينما الواقعية تجعلهم يواجهون الحقائق بما في ذلك العقبات الحقيقية – لذا فقد يكون من المفيد محاولة التعرف علــى بعض المثيرات والعقبات التي تعوق عملية الحوار. والمثال واضح، فقد ســيطر على العلاقة بين العالمين الإسلامي والغربي مشهدين حافلين بالصراع: الحــروب الــصليبية والنموذج الاستعماري. وذلك الأخير لازالت سياطه تلهب ظهور المسلمين، وبقاياه تنتشر في بؤر كثيرة على مستوى العالم، والأصعب من ذلك تلك البؤرة التي زرعها في قلب العالم الإسلامي ألا وهي إسرائيل. لا سبيل إلــى نكران تاريخ هاتين الفترتين من الصدام والسيطرة، ولكن الواقعية تقتضي القــول: أن هذين المشهدين لم يكونا الأسلوبين الوحيدين في الاتصال والالتقاء بين الحضارتين الإسلامية والغربية. فلم يخل الأمر من تاريخ طويل وضاء من

العلاقـــات السلمية والتعاون الاقتصادي والتجاري والتكنولوجي وتلاقح الأفكار والخبـــرات الثقافـــية، وحتى على المستوى العقائدي، فإن أوروبا مدينة لمنطقة الـــشرق العربـــي الإسلامي التي شهدت استقبال رسالة السماء بدءاً من إبراهيم علـــيه السلام وحتى الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام، مروراً بموسى وعيـــسى علـــيهما الـــسلام. إن الحاجة ملحة إلى تقييم أكثر توازناً وموضوعية للـــتفاعل بين القوتين التاريخيتين العظميتين (العالمين الإسلامي والغربي) وليس هـــذا بغـــرض تجاهل حقائق معينة قد تكون مريرة أو بغيضة، بل هي دعوى للـــسير في طلب الحقيقة كاملة من أجل الحوار البناء وتجنباً للصراع، الذي لن ينتـــصر فـــيه أحـــداً في النهاية. ينبغي أن يكون الهدف تسوية الأمور من أجل المستقبل بدلاً من إدانة الماضي أو محاولة تبرئته وتبريره .

إشكالية المصطلح :

لـــيس هناك ثمة اتفاق على دلالة كلمات الحضارة والمدنية والثقافة، إذ كثيراً ما تستعمل كمترادفات في العلوم الاجتماعية، وربما يعتمد فهم هذه المصطلحات علـــى علاقـــة الإنسان الثنائية بالطبيعة والمجتمع. وربما يرجع هذا الخلط إلى كـــتاب إدوارد بيـــرنت تايلور " الثقافة البدائية " الذي نشر سنة ١٨٧١م حينما عـــرف الـــثقافة الحـــضارة كمتـــرادفين بقـــوله: الثقافة أو الحضارة بمعناها الإثنوجرافـــي الواسع هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخـــلاق والقانـــون والعـــرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع. وإذا كان تعريف الحضارة يتركز على علاقـــة الإنـــسان بالطبيعة والمجتمع، فإن الأمر الذي لا يمكن تجاهله في هذه العلاقـــة هـــو الـــزمان، ذلك أن مفهوم الزمان يمنح هذه العلاقة التراكمية التي يقتضيها تكوين الحضارة .

وعلى الرغم من الصعوبة التي يكتنفها التمييز بين الحضارة والثقافة كوجهين لنشاط واحد، فإن الطبيعة تتحدد بأرض معينة، والناس يتحددون بشعب معين، ثم إن حـــصيلة تفاعـــل الناس مع أرضهم وفيما بينهم هي التي تنتج الحضارة في مـــضمونها المـــادي (المنتج المادي) أو المعنوي (الثقافة) وتعود كلمة حضارة Civilization إلـــى الكلمـــة اللاتينية Civites بمعنى مدينة أو Civis بمعنى

ســاكن المديــنة أو Civilis بمعنى مدني، ورغم ما تعرض له هذا المفهوم من مــراجعات وتحــولات فــإن دلالــة " المدينة " لا زالت راسخة لدى كثير من الباحثــين، بــل وذهــب بعــضهم إلى الربط بين كلمة Civilization وحركة التــصنيع الأوروبــي في منتصف القرن السادس عشر، وعليه يتجسد مصطلح Civilization مــن خــلال مجمــوعة من الشروط المادية، حيث يظهر هذا المــصطلح – ولأول مــرة في منتصف القرن السادس عشر – مقترناً بحدوث مجموعة من التغيرات والتحولات الاقتصادية والاجتماعية. ومع التحديد المادي لكلمــة Civilization كمــا أســلفنا، يتداخل مع مصطلح آخر له أهمية وهو Culture، ذلــك الــذي عرف على نحو أقدم نسبياً واستخدم حيناً بمعنى الثقافة وحيــناً آخــر بمعنــى الحضارة. ومصطلح Culture يعود إلى اللفظ اللاتيني Culture بمعنــى حــرث الأرض وزراعــتها، وظل هذا المدلول مرتبطاً مع المــصطلح علــى مــستوى الفكر اليوناني لفترة طويلة، حتى أن بعض فلاسفة الــيونان وصــفوا الفلــسفة على أنها Mentis Culutre بمعنى زراعة العقل وتنميته.

والمتتــبع لسيرة مصطلح Culture في الكتابات الحديثة، يلمح جيداً سيطرة تعريف تايلور في كتابه الذائع Primitive Culture سنة ١٨٧١، والذي سبق أن أشرنا إليه .

وقــد أحــصى كروبير وكلوكهون Krpber & Kluckhon سنة ١٩٥٢ ما يزيد عن ١٦٤ تعريفاً للثقافة ابتداءً من كونها سلوكاً متعلماً، وحتى كونها أفكاراً في العقل، أو تشييداً منطقياً، أو رواية إحصائية، أو ميكنة الدفاع عن النفس، أو تجريداً من السلوك، أو ديناً بديلاً من حيث دورها في تحسين الحياة، أو طوباوية تعد بتحقيق الذات وإقامة التفاهم بين الجماعات. [١]

ويمــثل مصطلح الثقافة، المقولة الأساسية لعلم الأنثربولوجي، وتتحدد فلسفة وأهداف هذا العلم من خلال هذا المصطلح. فضلاً عن معظم نظريات هذا العلم تنطلق من فكرة الثقافة .

وينطلق علم الأنثربولوجي عند تعرضه لفكرة الثقافة من ثلاث قواعد أساسية تتدرج فيها جهود علمائه وتتبع منها نظرتهم وتحليلاتهم، وهذه القواعد هي :

١ - إن المجــتمعات تــسير في نسق تطوري في نمط متصاعد انطلاقاً من الحالة البدائية الأولى – التي وجد عليها الإنسان في مرحلة ما بعد انفصاله عن عالم الحيوان – إلى المرحلة الراقية التي وصل إليها المجتمع المعاصر. وبذلك يتم تقسيم المجتمعات طبقاً لمعايير نابعة من مفهوم Culture بمعناه العــام بحــيث وضــع سلماً تدريجياً يمكن تصنيف المجتمعات طبقاً لمدى اقتــرابها أو ابــتعادها عــن الـــCulture السائدة في المجتمع الأوروبي المعاصــر، ومــن ثم ظهرت مفاهيم مثل اللحاق بالركب، تضييق الفجوة، التحديث .. إلخ. (٢)

٢ - إن الـــCulture تنشأ في مجتمع معين ثم تنتشر إلى المجتمعات الأخرى في ما يسمى " الانتشار الثقافي " أي انتقال الثقافة من مجتمع لآخر، لأن أي مجــتمع لا يخل من ثقافة أو مضامين ثقافية. لكن القول بانتقال الثقافية من المجــتمع الأكثــر رقياً إلى المجتمعات الأقل تطوراً يمثل رؤية استعمارية تهــدف إلـــى إلغـــاء ثقافة الشعوب الأصلية أو تهميشها، ومن هذا المنطلق ظهــرت مفاهــيم اســتعمارية مثل أمانة الرجل الأبيض، الدور التحضيري لأوروبا، الثورات الثقافية .

٣ - التثاقف أو المثاقفة Acculturation، ويقصد بها تأثر الثقافات بعضها بــبعض نتــيجة الاتصال بينها أياً كانت طبيعة هذا الاتصال أو مدته، فهي عملــية يــتم مــن خلالها حدوث تغيير في الظواهر الثقافية نتيجة لحدوث احــتكاك مباشر بين جماعتين ينتمون إلى ثقافتين مختلفتين، وهذه التغيرات التـــي تجــتاح الأنمـــاط الثقافية السائدة يمكن أن تشمل إحدى الجماعتين أو الاثنين معاً .

ويحاول البعض إضافة مصطلح آخر إلى جانب التثاقف وهو التحول الثقافي Transculturation فـــإذا كـــان التثاقف يعني تبادلاً متساويا، فالتحول الثقافي يشير إلى عملية نقل ثقافة معينة وفرضها على السكان الأصليين .

وليس من شك أن هذه الرؤية الأنثربولوجية ،أثرت على نحو واضح في فكر العلــوم الاجتماعــية عــند تناول قضية " الثقافة – الحضارة " حتى أن معظم تعــريفات الثقافة انطلقت من هذه الأفكار. وفي إطار هذا التداخل بين مفهومي

الحـــضارة والثقافة، نشأ تياران لدراسة " الحضارة " الأول يركز على الجوانب المادية في المجتمع مثل الاقتصاد وإنتاج السلع والتقنيات، والثاني يركز على الجـــوانب الاجتماعـــية والثقافـــية كالأديان واللغات والآداب والفلسفة والعادات والتقاليد. وربما لا يحقق هذا الانقسام، الرؤية الأوسع لمفهوم " الحضارة " والتي نظـــر إلـــيها مـــن تـــوجهات مختلفة، فهناك فريق يرى أن الحضارة تمثل قيماً اجتماعية وثقافية عامة تنهض على أساس قيم عالمية تعبر عنها الأديان العالمية والأنساق الأخلاقية والقانونية والتقنية. ويذهب فريق ثاني إلى أن الحضارة تعبر عـــن المظهر الكيفي للمجتمعات الواسعة التي تجلت في التاريخ العالمي أو التي مـــا زالـــت موجـــودة حتى الآن، وعادة ما يشار في هذا الصدد إلى المسيحية الغـــربية والمـــسيحية الشرقية والحضارة الإسلامية والهندية والبوذية ... إلخ. ويحـــاول فريق ثالث تجريد معنى الحضارة، حينما يصفها بأنها النظرة للمجتمع بكـــل مكوناته التي تكفل له البقاء (سياسية وعلمية واقتصادية واجتماعية وثقافية ..إلـــخ). أمـــا الفريق الرابع فيرى أن معنى الحضارة يتضمن محصلة النشاط الإنـــساني الـــذي تـــشكله المكـــونات المادية والتقنية والاقتصادية للحياة العامة والمؤسسات الاجتماعية. وفي رؤية أكثر تقدماً يعتقد فريق خامس أن الحضارة هـــي المجتمع الإنساني المنظم جيداً والذي يمد الشخصية بالحقوق الأساسية بما يتـــضمن ذلك من حق الملكية وحرية الضمير وحرية اعتناق الأديان، ومن هذا المعنـــى اشتقت عبارة السلوك الحضاري. ومن الرؤى الضيقة نسبياً، تلك التي تختـــزل فكرة الحضارة في التقدم التكنولوجي، ويذهب أنصار هذا المفهوم إلى ارتباط الحضارة بالبناء الاجتماعي الحديث السائد في الدول المتقدمة التي حققت مـــستوى مرتفعاً من التنمية التكنولوجية مصحوبة بشبكة واسعة من المؤسسات المدنـــية والـــسياسية والاجتماعـــية والاقتصادي والقانونية، والتي تمد المجتمع بمعدلات ثابتة من التنمية. ويتم في هذا السياق تجاهل الحضارات التاريخية التي لم تنبع من الغرب والتي دخلت في إطار التاريخ الحضاري .

وأي كانـــت الـــرؤى المختلفة لمفهوم " الحضارة " فإن الاتفاق على المفهوم شـــرط أساســـي لممارسة عملية " حوار الحضارات " والأحرى بنا أن نوضح مفهومـــنا للحـــضارة علـــى أنها تمثل تكويناً منظومياً متكاملاً لمختلف الجوانب

المادية والمعنوية للمجتمع في إطار علاقة الإنسان ببيئته (الطبيعية، والمشيدة، والاجتماعية)، ولا يخل فهمنا للحضارة من البعدين الزماني والمكاني، فلا يمكن تجاهل الميراث الحضاري التاريخي، والتمايز الحضاري الجغرافي .

أما مصطلح " الحوار " فيقصد به محادثة شخصين أو أكثر لتبادل الآراء حول موضوع معين أو عدد من الموضوعات بهدف الوصول إلى اتفاق. وجاء في مختار الصحاح: والمحاورة بمعنى المجاوبة، والحوار التجاوب، وفي القاموس المحيط: واستحاره بمعنى استنطقه .. وما أحار جواباً بمعنى ما رد جواباً، وحوره تحويراً بمعنى رجعه، والتحاور بمعنى التجاوب، وتحير الماء بمعنى دار واجتمع .

ويعد الحوار، وسيلة للتفاهم بين الدول والشعوب عن طريق من يمثلهم من أجل تضييق شقة الخلاف وتقريب وجهات النظر المتضاربة أو المتباينة. ووردت كلمة الحوار في القرآن الكريم ثلاث مرات منها قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ (الكهف: ٣٧) .

دعوة الإسلام إلى الحوار بين الحضارات :

احتك المسلمون بمختلف الحضارات الإنسانية بروح وعقل متفتحان دون حساسية ولا افتعال، ولذلك فقد أخذوا عن الآخر وتأثروا به، وفتحوا ينابيعهم لغيرهم بإيمان راسخ بأن تقدم الإنسان – أي إنسان – وفي أي مكان يُعد تقدماً للبشرية جمعاء. وكان مبدأهم الأساسي: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥). ذلك أن منهج الحوار في القرآن يعتمد على مخاطبة الناس بالحسنى ووفق مستواهم الثقافي، ولا يتوقف الحوار عند هداية من نحاوره (أو عدم هدايته) ذلك أن الله يهدي من يشاء: ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ (الغاشية: ٢٢)، ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (الغاشية: ٢١)، ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (القصص: ٥٦).

ولم يكن الحوار في القرآن بهدف تحقيق الغلبة، فهي ليست معركة، ومن ثم يطالبنا المولى بتحري العدل مع الآخرين: ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ (المائدة: ٨) .

إن نظــرة الإسلام إلى البشر على أنهم أسرة واحدة تنتمي لأب واحد (كلكم لآدم، وآدم مــن تــراب) ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَــقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: ١) .

ويحتــرم الإسلام الفروق بين الشعوب والأمم، وينكر التمايز بين البشر على أساس من الجنس أو اللون أو العرق: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجــرات: ١٣). ويضع الإسلام الأسس لحوار الأديان بوصفه مقدمة لحوار الحضارات، فيطالب المسلمون بالحسنى عند مجادلة أهل الكتاب: ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْــلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

وتؤكد الآية على التمايز والاختلاف والقواسم المشتركة، وتلك الأخيرة ينبغي أن تكون أساس الحوار بين الأديان والحضارات .

وتتجلــى دعــوة الإســلام للحوار بين الأديان في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَــتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمــران: ٦٤)، **فمع صدق الدعوة للحوار بين الأديان تبقى الحقيقة الماثلة في نقاء التوحيد وتنزيهه عن الشرك .**

والإسلام ديناً سمحاً، بل إن السماحة منهاج وخلقٌ إسلامي: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُــمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩) .

ويتجلى أيضاً، بلاغة القرآن وسماحته في حوار الأديان عندما خاطب المولى الكــريم رسوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٩٩) .

ويهــدف الحــوار فــي الإسلام إلى دعوة الناس إلى سبيل الله، أي الطريق المــؤدي إلى إقامة المنهج الرباني على الأرض، ويؤكد الإسلام على أن يكون

الحـــوار بالحكمة أي التعقل، والاعتدال وإحكام الأمور، أي أن الحوار ينبغي أن يتـــسم بالموضوعية والانفتاح والرغبة الحقيقة لتحقيق الغايات النبيلة. ولم تحظ فلـــسفة أرضــــية بما حظيت به الفلسفة الإسلامية من نهج عميق بليغ في الجدل بوصــــفه مرحلة مهمة من مراحل الحوار: ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥). هكــذا تعكس الآيات القرآنية قيمة الحوار وفلسفة التعايش والحضارة الإسلامية تعترف بالآخر على نحو لم تشهده أي حضارة من قبل: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون: ٦) .

ولم تفترض الحضارة الإسلامية آخر مغايراً أو مضاداً، ولم تشيد جداراً بينها وبـــين الحـــضارات الأخرى، لقد بنى المسلمون حضارة مفتوحة على العالم لا انفصام بينها وبين أصحاب الديانات أو الثقافات الأخرى، ولا استعلاء على من يخالفونها في الدين ونمط العيش ﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَـــمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة: ٨) هكذا يأمرنا الإسلام أن نقيم علاقاتنا مع الغير على السلام وعلى الأمان وعلى التعارف والتحاور، مادام هذا الغير يبادلنا هذا السلام وهذا الأمان وهذا التعارف .

حوار الأديان مقدمة لحوار الحضارات :

تعتبـــر الأديان، مصدراً مهماً للحوار الحضاري، لأنها في المقام الأول تقدم خلفية مشتركة من العلاقات المتوازنة بين البشر وخالقهم، وبين البشر وبعضهم. وتقدم الأديان مجموعة من القيم الإيمانية التي تحقق توازن الفرد وطمأنينته مما ييسر سُبل الحوار ويدعمه. وتمثل الأديان عنصراً حيوياً وأساسياً في الحضارات الإنسانية، وعندما حاول آرنولد توينبي، إحصاء الحضارات البشرية، لم تصادفه حـــضارة واحدة دون ركيزة عقائدية أو دينية منذ الحضارات القديمة في مصر وبابل وحتى اليوم، ذلك أن العقيدة ليست أمراً ثانوياً في بنية الحضارة وتكوينها، بـــل تمـــثل العنصر الأساسي الذي يمدها بطاقة القيم والأخلاق، ويمدها بالمعنى الحقيقي للوجود الإنساني. الإيمان بالله الحق المطلق وبمعنى المصير إليه تمثلان خلفـــية مشتركة لالتقاء بني البشر، وتأكيد على رسالته السامية في الوجود. ولقد

فشلت كل المحاولات لإقامة حضارة خالية من النبض الروحي بعيدة عن الفكر الديني. وعلى الرغم من الحضارات الإنسانية التي تعاقبت على بني البشر، وحتى تلك التي بلغت ذروتها مع أفول القرن العشرين، فإن الإنسان ما زال يبحث عن الحقيقة، ولم تتمكن هذه النجاحات المادية أن تشبع وجوده وتمده بالسعادة الحقيقية، سوف يجد ضالته في جوهر الدين ومضمونه .

أ- الإسلام واليهودية – ربما تكون فترة سعديا جاعون إلى الأيام الأخيرة لموسى بن ميمون وابنه إبراهيم تمثل ثقافة إسلامية – يهودية (من القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر الميلادي)، ذلك أن إنتاجهم العلمي يعتبر ثمرة فترة تكونت على مدى مئات السنين من الإبداع والخصوبة الثقافية التي ازدهرت في ظل الثقافة الإسلامية المتسامحة. وكذلك ينبغي النظر إلى أن استخدام هؤلاء اليهود للغة العربية لم يكن مجرد وسيلة استخدموها للتعبير عن آرائهم، بل باعتباره جزءاً لا يتجزأ من ثقافة دينية استوعبوها وتمثلوها. والحقيقة أن تاريخ العلاقات بين المسلمين واليهود إبان عصور النهضة الإسلامية لم يكن كله تناحراً، وسجل الدول الإسلامية تجاه اليهود أفضل من سجل الدول المسيحية، وعلى الجانب الآخر لم يكن الكُتَّاب اليهود في هذه الفترة يميلون إلى التعبير عن عداء شديد للإسلام. إن كراهية اليهود للمسلمين والعرب لم تتجسد على النحو الذي نراه اليوم إلا بعد ظهور الحركة الصهيونية، ويحوى مشروع الحركة الصهيونية ذاته صراحة إبعاد السكان العرب الأصليين من أراضيهم، وبذا يحوي – ضمناً على الأقل – إنكاراً عنصرياً للحقوق العربية .

ويذهب هافا لازاروس Lazarus إلى وجود ثلاثة وجهات نظر مهمة في هذا المجال: الأولى: أنه بالإمكان التعرف على فترتين متميزتين في العلاقات المتبادلة بين الإسلام واليهودية، ففي الفترة الأولى – وهي تشمل القرن السابع وربما القرن الثامن الميلادي – أثرت اليهودية أكثر من أي دين أو ثقافة أخرى على الإسلام. أما الفترة الثانية وهي تمتد من القرن الثامن الميلادي، كان للإسلام، والذي كان آنذاك قد أصبح ثقافة غنية ومركبة، تأثير عميق على الثقافة اليهودية. ومن أمثلة هذا التفاعل، النية (أو ما يعرف بالعبرية " كافانا " ويقصد

به التهيؤ المصاحب للقيام بعمل ديني ما). إذا كان للمفكرين المسلمين تأثير كبير فـــي هـــذا المجال، ونسب للرسول الكريم ﷺ " إنما الأعمال بالنيات " أو " نية المـــؤمن خير من عمله "، والتي تطورت في الفكر اليهودي لتأخذ صيغة " إنني جاهـــز مـــستعد لأداء الـــصلاة أو الـــشعيرة الفلانية .. " وما كان هذا المفهوم سيتطور في اليهودية بهذه الصورة دون تأثير الإسلام .

الثانـــية: لقـــد قامـــت العلاقات المتبادلة بصورة دائمة بين هاتين الثقافتين الإســـلامية والـــيهودية فـــي حضور ثقافة دينية ثالثة لها علاقات قوية بكل من الإسلام واليهودية ونقصد بذلك المسيحية. ولقد أعطى الإسلام " أهل الكتاب " أو " أهـــل الذمة " كما كان اليهود والمسيحيون يُسمون، الحماية والحرية لممارسة شعائرهم الدينية .

الثالـــثة: تقودنا إلى سمة رئيسية وأساسية في العلاقة بين اليهودية والإسلام (ويمكن إضافة المسيحية)، فقد شهدت فترة النهضة الإسلامية نوع من التضامن الدينـــي الثقافـــي، خاصة في منطقة المشرق العربي، ويتضح هذا التضامن في تمجـــيد الله فـــي خلقه وفي الطبيعة وفي خلقه للحيوانات والإنسان ومن الأمثلة المهمـــة أيـــضاً على الالتقاء بين الديانتين أن نجد لدى اليهودية والإسلام، شرع شـــفوي، بالإضـــافة إلى الشرع المكتوب، والذي يتكون أساساً من أقوال وأفعال النبـــي ﷺ (الـــسنة). وعند بدء تدوين " السنة " استخدام معارضو تدوينها نفس الحجج التي قال بها الحكماء اليهود الذين عارضوا كتابة الشرع الشفوي (وذلك بقـــولهم: هـــل سنجعل التوراة توراتين؟)، على أن جولد تسيهر Goldziher يرفض وبشدة افتراض وجود أي تأثير يهودي مباشر في هذه الحالة .[٣]

ولكـــن التأثير الفلسفي والكلامي الإسلامي على الفكر اليهودي في العصور الوســـطى، وعلـــى تـــاريخ وطـــريقة حياة اليهود الذين عاشوا في ظل الثقافة الإســـلامية، أصبح الآن معروفاً تماماً، لقد تجاوز هذا التأثير فكرة اللغة العربية والكتابة بها إلى استيعاب روح الثقافة الإسلامية وتمثلها. ولم تخل العلاقة بينهما من وجود تشابه يمكن أن يكون أساساً وخلفية مشتركة للحوار .

ويـــضاف إلـــى مـــا ذكرناه سلفاً، فلقد امتلك كل من الإسلام واليهودية نوعاً خـــاص مـــن التراث الفقهي (الشريعة، والهالاخا) الذي يحقق وبدرجة كبيرة ما

يحققــه أو يقــوم به في الثقافات الأخرى القانون المدّون المكتوب، وقد أثر هذا التــراث علــى صــياغة العلاقات والحياة الاجتماعية لدى المسلمين (الشريعة) واليهود (الهالاخا) .

أ- الإســلام والمــسيحية - رغــم أن الاختلافات اللاهوتية حول مفهوم التوحــيد وعلاقة الإنسان بالله وبالعالم كانت كبيرة، فإن المسلمين كانوا مــستعدين لــتجاوزها مقابــل الاعتراف بنبوة النبي محمد ﷺ من جانب المــسيحيين. أمــا المسيحيون فقد كانوا على استعداد لتنازلات كبيرة في شــتى المجــالات إلا فــي هذا المجال، لأن ذلك يعني إلغاءهم. ذلك أن الاعتــراف بنــبوة النبي ﷺ وهو في نظــر نفسه وأتباعه والقرآن خاتم النبيــين، وناســخ الرســالات السابقة، يعني انتقالاً من المسيحيــة إلى الإسلام .(٤)

هــذه مــثلت نقطة الخلاف الأولى بين الديانتين، وأثارت الجدل في القرنين الــسابع والثامن الميلادي، أضيف لها قضايا جدلية أخرى تبدأ من القرن التاسع وتستمر حتى اليوم مثل: الوحدانية والتثليث، وألوهية المسيح، والصلب والفداء، وتحــريف الكــتب المقدســة. وأي كانــت ثقافــة الجدل الدائرة بين المسلمين والمــسيحيين، والتــي كان فيها جداليي المسلمين على درجة أفضل من الوعي والمعــرفة بالمــسيحية مــن معــرفة جداليي المسيحية بالإسلام، فإن المسلمين والمــسيحيين إبان عصر النهضة الإسلامية أو ما قبلها أو بعدها تجاوروا على مقــبول نسبياً في ظل السيطرة الإسلامية وأنتجوا حياة ذاخرة بالعطاء الإنساني، فعلــى حين تراجعت ثقافة الجدل تحت تأثير الإشكاليات الكبرى، استمرت ثقافة الحياة والمجتمع .

ولقــد كان موقف مسيحية القرون الوسطى من الإسلام مبني على محورين أساســيين: الأول ضــرورة الأخــذ مــن الحضارة الإسلامية الناهضة وقتئذ، والثانــي: لابــد مــن محاربــة هذا الدين، لأن الإيمان به يعني إلغاء الديانة المسيحية.

ففــي العــصر الوسيط تحديداً، أي في زمن المبادلات الثقافية الأكثر فعالية، تــشكلت فــي الوعي المسيحي القوالب النمطية الذهنية عن الإسلام، وهي التي

نشأت في كثير من جوانبها بارتباط مسبق بنوع وطبيعة الموقف التقليدي للكنيسة من الإسلام. وكان المشكل يتمحور حول إيجاد سند ديني مسيحي للإسلام ونبيه، ولهذا يمكن القول أن التصورات الغربية المعاصرة حول دين المسلمين انعكست في مرآة قديمة مشوهة تتمثل فيما ورثه سكان أوروبا المعاصرة عن أسلافهم من القـــرون الوسطى من مجموعة من الأفكار عن الإسلام. وفي الفترة الواقعة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر جرت في أوروبا عملية فكرية بطيئة، ضمن إطـــار دائرة ضيقة جداً من المختصين فيما يتعلق بتراكم المعارف العلمية عن الشرق العربي والإسلامي .(٥)

وفـــي بدايـــة القـــرن العشرين، حدثت تغيرات جوهرية في علم الإسلاميات الكاثوليكـــي، متـــصلة بالابتعاد عن التفسير التقليدي للعقيدة الإسلامية، وقد قام بالخطـــوة الحاســـمة فـــي هـــذا الاتجاه لويس ماسينيون Louis Massignon (مستـــشرق وعالم فرنسي توفى سنة ١٩٦٢، وكان عضواً بالمجمعين العربيين فـــي القاهـــرة ودمـــشق) وفـــي رأي الدارسين، فإن مؤلفاته وإسهاماته العلمية، ومـــنطلقاته الـــروحية، ونـــشاطاته السياسية، مهدت الطريق للتحول الكاثوليكي الجـــذري بـــشأن الموقف من الإسلام، فخلافاً للمنهج العدائي المسبق من طرف أغلبية علماء الإسلاميات الغربيين، فإن لويس ماسينيون بنى موقفه تجاه الإسلام انطلاقـــاً من فكرة " الاتصال والارتباط " الديني بين المسلمين والمسيحيين. وقد رأى أن فـــي هـــذا الارتباط بالذات آفاقاً واقعية عريضة أمام الفهم المتبادل بين أتباع هاتين الديانتين الكونيتين .

ولقد أثارت مخاوف ماسينيون الشديدة مظاهر التصادم بين الحضارة الغربية المعاصرة والمجتمع الإسلامي التي كان من نتائجها – وفق رأيه – أن المجتمع الإسلامي أصبح أمام خطر حقيقي، يتجلى في فقدان شخصيته المستقلة. وبخلاف زملائـــه ومعاصـــريه مـــن المستشرقين وعلماء الإسلاميات، مثل كارل بيكر Beeker الذي يعتقد بإمكان تكيف العالم الإسلامي مع الحداثة والمعاصرة، من خـــلال تحـــديث الإسلام ذاته عن طريق تخليه عن أطروحات القرون الوسطى واســـتبدالها بمقولات أحدث وأكثر عصرية. إن ماسينيون يخشى على حضارة الإسلام من أن تضيع في غمار الهجمة الغربية .

ومن حيث الجوهر فإن أساس أطروحة لويس ماسينيون تكمن في الاعتراف بديانـــة الإسلام باعتبارها الوريث الشرعي لإسماعيل ابن إبراهيم الخليل عليهما الـــسلام. وبحـــسب رأي ماســـينيون، فإن الإسلام جاء بمنزلة ضمير لليهودية والمـــسيحية. وأن ظهـــوره فـــي العـــالم إن هو إلا " إنذار إلهي " وانطلاقاً من المرتكـــزات الفكـــرية الأساســـية، يـــرى ماسينيون أنه من واجب المسيحيين الاعتـــراف " بالمـــصداقية النسبية " للقرآن الكريم. ولقد أولى ماسينيون أهمية كبيـــرة أيضاً لدراسة المسائل اللاهوتية العامة التي تتسم بأهمية رمزية، وتشكل محطـــات أساسية في تاريخ العلاقات التفاعلية المتبادلة بين الإسلام والمسيحية مـــثل: تبجـــيل " مـــريم العذراء " في الإسلام والمسيحية، والتقديس المشترك (الإســـلامي – المـــسيحي) لأهـــل الكهف، ومعاهدة نجران بين النبي محمد ﷺ والنـــصارى، والملامح المشتركة بين الزهد المسيحي والإسلامي .. إلخ. ويعتقد ماســـينيون أن مـــتابعة بحث تلك المحطات المشتركة (بين الديانتين) من شأنها تهيئة الأرض الطيبة لحوار لاهوتي مثمر بين الإسلام والمسيحية .

علـــى أنـــه يمكـــن أن نميز في الدراسات الكاثوليكية المعاصرة عن الإسلام اتجاهين أساسيين: الأول أكثر انفتاحاً على الإسلام وقبولاً يمثله لويس ماسينيون وأتـــباعه، ويطلـــق علـــيه الأب جورج قنواتي اتجاه " الحد الأعلى ". ويعترف أنـــصاره بـــصورة أو بأخـــرى بالطابع الإلهي للقرآن، وينظرون إلى الموقف القرآنـــي الرافض لبعض المعتقدات المسيحية مثل الثالوث والتجسد الإلهي بأنه موقـــف نسبي غير مطلق، وهم يرون أن هذا العمل العظيم، المتمثل في ترسيخ أركان الإسلام، الذي صار عقيدة كثير من الشعوب، وما رافقها من نشوء ثقافة إسلامية ذات ملامح متميزة، لابد أنه يحظى بعناية ومباركة إلهية، فقد استجاب الرب لطلب إبراهيم بمباركة ولده البكر إسماعيل – جد العرب " وأما إسماعيل لفقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً. اثني عشر رئيساً بل وأجعله أمة كبيرة " [التكوين، الإصحاح السابع عشر: ٢٠].

أما الاتجاه المضاد في الدراسات الكاثوليكية المعاصرة حول الإسلام، فيتمثل فـــي التـــيار المـــنغلق أو " المـــتحفظ " إزاء الإســـلام، ويطلـــق على أتباعه " أصـــحاب الحـــد الأدنـــى " فـــي الانفـــتاح على الإسلام أو الاعتراف به أو

التقليديون " الذين يتابعون تفسير الإسلام وفق أسوأ الأطروحات التقليدية للقرون الوسطى، الذي يرى في الإسلام محاولة فاشلة قام بها حاخام، مكي لتهويد العرب مستخدماً لهذه الغاية محمداً ﷺ. وبين التيارين السابقين، ينبثق تيار ثالث قريب من الموقف الرسمي للكنيسة المعاصرة – موقف الود والانفتاح والحوار مع المسلمين مع أن موقفهم بالنسبة لنبوة محمد ﷺ والطبيعة الإلهية للقرآن أكثر تحفظاً. وخلافاً لتيار " الحد الأعلى " في الانفتاح على الإسلام، فإن أنصار التيار الثالث يسعون لبناء رؤيتهم للإسلام انطلاقاً من التراث الإسلامي ذاته. وينطلق موقفهم من ضرورة الحوار والتقارب مع الإسلام في الميادين الاجتماعية، السياسية، الثقافية، الروحية، مع ابتعادهم عن المنطقة التي لا تمس، أو التي لا تتحمل المناقشة المفصلة لحساسية الأمر، ونعني بها المسائل المتعلقة بالأسس والمبادئ العقائدية الكبرى في كلا الديانتين .(٦)

إن عناصر الاتفاق بين الديانتين كثيرة، فهما ديانتين سماويتين ذات منبع إلهي، وأنهما شرقيتا الهوية، إن القائلين بأن المسيحية تتميز على الإسلام بالتقدمية والحداثة، أخطئوا قراءة التاريخ: ترى ماذا كان يقال عن الديانتين عندما كان العالم الإسلامي مركز إشعاع حضاري والعالم المسيحي غارقاً في ظلمات الجهل والتخلف ؟

ونخلص مما سبق إلى أن الحوار يبدأ بخلفية مشتركة وجدانياً متفق عليها، ونذكر هنا رؤية مبدئية يمكن أن تساعد على الحوار البناء، ألا وهي رؤية جب Gibb :

- لا توجد ثقافة ما تستطيع أن تستوعب تأثيرات ثقافة أخرى ما لم تمتلك الثقافتان بعض الخصائص المتشابهة وذات الصلة ببعضها البعض، وأن تكون هنالك أرضية قد أعدت لنشاطات مماثلة .
- يعد تمثل واستيعاب التأثيرات الأجنبية (على نحو موضوعي) علامة أو إشارة على حيوية الثقافة أو الدين المتلقي لهذه التأثيرات .(٧)

فقه الحوار الحضاري :

ليست هناك ثقافة مغلقة على نفسها، فكل الثقافات تتأثر وتؤثر في بعضها البعض، وليست هناك ثقافة جامدة تستعصي على التغيير، فكل الثقافات في حالة

حـــركة مستمرة بتأثير من قوى خارجية وداخلية على السواء. وفي ضوء ذلك، فإن حاجة الناس إلى العيش والعمل معاً في سلام تؤدي إلى احترام كل الثقافات أو على الأقل بالنسبة للثقافات التي تقدر التسامح واحترام الغير، ومن ثم ينبغي أن نقدر الاختلافات الثقافية ونحاول أن نتعلم منها .[٨]

والــتفاعل الثقافـــي هو تعبير عن توازن القوى بين الثقافات. وقد كانت قوة العقل اليوناني وراء الحوار الثقافي بين الفلسفة اليونانية والإسلام الوليد. وكانت قـــوة الـــتجاوز وراء العلاقـــة الثقافية بين العلوم والفلسفة الإسلامية من جانب والفلـــسفة المـــسيحية في العصور الوسطى من جانب آخر. وكانت قوة الالتقاء الأندلسي وراء التعايش والتكافل بين الثقافات الإسلامية واليهودية والمسيحية في أســـبانيا. وكانـــت، ولا تـــزال قـــوة السيطرة وراء التفاعل الثقافي بين الثقافة الأوروبية الحديثة، وثقافات آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. والأمثلة عديدة على هـــذين النموذجـــين البديلـــين، نموذج التصارع ونموذج الحوار، والتحدي الذي يواجهـــنا هو متي يوجد كل من هذين النموذجين وتحت أي ظروف وإذا كان نموذج التصارع هو الموجود حالياً فما هو السبيل والوسائل لتغييره إلى نموذج الحوار ؟[٩]

تلـــك هـــي الصيغ المطروحة، ولا فكاك من التعامل معها، والسبيل إلى ذلك يقتـــضي معرفة الدوافع وراء هذه الصيغ أو النماذج البديلة. والبحث ينبغي أن يكـــون وراء النموذجين البديلين، فبالقدر الذي نحتاج فيه لتحقيق نموذج الحوار، نحتاج – وبإلحاح شديد – أن نوقف طاقة الصراع التي استبدت بطبيعة التفاعل الحـــضاري، ومـــن ثم نطرح مقولة " فقه الحوار الحضاري " لكنها تتضمن – وبارتـــباط عـــضوي – فقـــه الصراع الحضاري، ذلك أن النموذجين متلازمين والانتقال بينهما ليس بالأمر العسير .

ويحـــدث نمـــوذج الـــصراع عـــندما تجعل إحدى الثقافات من نفسها الثقافة العظمـــى، بيـــنما كـــل الثقافات الأخرى ثقافات صغرى، والعلاقة بينهما غير مـــتوازنة، لأنهـــا علاقة بين الأعلى والأدنى. ووفقاً لهذه العلاقة، تسعى الثقافة الكبرى إلى التدخل في الثقافة الصغرى لتطويرها أو تحديثها أو نقلها من التخلف

إلى التقدم. على حين تحقق الثقافة الكبرى أهدافها الذاتية من نهب واستلاب واستبداد وطمس الهوية الوطنية للثقافة الصغرى .

وقد حدث ذلك بالفعل في حالة الثقافة الغربية تجاه الثقافات غير الغربية في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية من خلال عمليات نهب الثروات وقهر الشعوب واستبدال اللغات الأصلية بلغات المستعمر ووصم العادات والتقاليد الأصلية بالتخلف والجهل، ومن ثم محيت ثقافات أصلية ذات تاريخ طويل وحلت محلها ثقافة المستعمر باعتبارها تتويجاً لكل الثقافات والصيغة النهائية لمسيرة الإنسانية، وذهب بعض المفكرين إلى تكريس وتأكيد هذه الرؤية مثل فوكوياما الذي اعتقد أن نهاية المطاف هي الليبرالية الغربية، وسينتهي عندها التاريخ، بل إن التاريخ نفسه اختزل في ثلاثة مراحل تمثل الحضارة الغربية (القديم - الوسيط - الحديث)، فكأنما الغرب هو تاريخ البشرية، وماعداه لم يكن موجوداً من قبل .

أما نموذج الحوار، فيحدث عندما تتساوى كل الثقافات وتتعامل فيما بينها بندية وإدراك لدور كل منها في مسيرة الحضارة الإنسانية دون استعلاء إحداها على الأخرى، وتسعى الثقافات المختلفة - في ظل نموذج الحوار - إلى التفاعل الإيجابي والتواصل والتلاقح في إطار علاقات تبادلية متوازنة تقوم على الأخذ والعطاء .

ويظهر نموذج الحوار في العلاقة بين الفلسفة الإسلامية من جانب والفلسفة اليونانية من جانب آخر. فقد استعارت من الأخيرة لغتها ومنطقها، لكنها أعادت استخدامه على نحو جديد في إطار نظرية المعرفة الإسلامية، ولم يكن انتقال هذا الفكر اليوناني إلى الغرب - في الأغلب الأعم - إلا من خلال ترجمة ناضجة مبدعة للعلماء المسلمين، فقد اختبروا هذا الفكر ونقحوه وطوروه، حتى أن ما كتب في هوامشه من شروحات وتفسيرات ونقد وإضافات، لا يقل في أهميته عن النصوص الأصلية .

في نموذج الحوار يمكن لكل الثقافات المتساوية أن تشارك في الأهداف المشتركة وأن تتقاسم نفس القانون العام، على أساس من العقل والحق في المعرفة والطبيعة واستخدام قوانينها، وحق الإنسان والشعوب في الحرية والعدالة الاجتماعية والرفاهية. لقد سعت كل الشعوب والثقافات من أجل مُثل التنوير التي

ظهرت في التعايش الأندلسي. وفي نموذج الصراع، فإن هذه المثل إنما هي للذات فقط، وليست للآخر الذي ينبغي أن يبقى في غمار الجهل والسحر والخوف والقمع والاستغلال والفقر. لقد تحطمت مُثل التنوير الأوروبية عند حدود أوروبا مولدة نموذج الصراع، بينما تجاوزت مُثل التنوير الإسلامي الشعوب والأمم مولدة نموذج الحوار .(١٠)

وتبدو آلية الحوار وآلية الصراع على النحو التالي :

آلية الحوار بين الحضارات	آلية الصراع بين الحضارات
الفلسفة : ١- تبني على المساواة والندية والتواصل والتلاقح الحضاري.	(١) تبني على التقسيم وعدم المساواة وفرض التبعية .
٢- تنوع الثقافات يشكل أرضية أساسية للتعاون .	(٢) التعدد والتنوع أساس وأرضية الصراع .
٣- البحث عن نقاط الاتفاق والتلاقي .	(٣) التأكيد على نقاط الاختلاف لاستئناف الصراع .
٤- النية الصادقة والتعاون أثناء البحث .	(٤) التسلط والتبعية لتعميق الكراهية والعداوة .
٥- السعي الجاد للتفاهم المشترك والتلاقي .	(٥) إظهار عيوب الآخر والتشكيك في نواياه .

أسلوب العمل : ٦- وجود الثقة بين الأطراف .	(٦) تعميق عدم الثقة والتأكيد عليها .
٧- توافر الصبر وسعة الصدر .	(٧) الاستعلاء والعنف والتهديد .
٨- الشفافية والمصارحة من أجل التعاون .	(٨) التكتم والمراوغة من أجل الهدم.
٩- لصالح جميع أطراف الحوار .	(٩) أحد الأطراف أو كل الأطراف يسعى للانتصار .
١٠- يقوم على رؤية أهل الفكر .	(١٠) يقوم على سواعد العسكريين أو الإرهابيين .
١١- تحتاج إلى عقل نقاد وأخلاق .	(١١) تبني علي الإرهاب والتخويف.
الهدف النهائي : ١٢- تعميق التفاعل الحضاري .	(١٢) الانسلاخ عن الماهية الحضارية .
١٣- الطريق إلى السلام العادل .	(١٣) الطريق إلى الحروب والانقسامات .

١ - فقه الصراع :

أ - التحيز - يعتبر التحيز للنموذج، آلية مهمة من آليات الصراع، خاصة إذا قوبل بتحيز للنماذج الأخرى. والتحيز هو الانضمام أو الموافقة، وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ ﴾ (الأنفال: ١٦). وتدور فكرة التحيز حول تبني رؤية ما ورفض الآراء الأخرى .

والقــضية المهمــة في موضوع التحيز هي تبني فكرة معينة والتحيز لها ثم ترجمة هذه الفكرة إلى تعامل سلوكي، ونعتقد أن للتحيز ثلاثة جوانب أساسية:

الأول: معرفي يقوم على أساس الاقتناع بفكرة (صحيحة أو خاطئة) .

الثاني: وجداني، وهي متلازمة انفعالية تترجم الحماس للفكرة المتحيز لها .

الــثالث: ســلوكي، يترجم الفكرة إلى سلوك فعلي، وبالطبع لا تخل من هذه الدفعة الانفعالية .

ويذهب عبد الوهاب المسيري إلى وجود قاعدتين أساسيتين في فقه التحيز:

القاعــدة الأولى هي أن التحيز حتمي، حيث يرتبط ببنية عقل الإنسان ذاتها، الذي لا يسجل تفاصيل الواقع كالآلة بأمانة بالغة ودون اختيار أو إبداع (تسجيل انتقائي)، ولذا فهو يدرك الواقع من خلال نموذج فيستبعد بعض التفاصيل، ويبقى بعــضها الآخر، ويضخم بعض ما يتبقى، ويمنحه مركزية ويهمش الباقي، وهي عملــية إدراكية ليست عشوائية وإنما تتبع أنماطاً يمكن اكتشاف بعض جوانبها. والقاعدة الثانية في فقه التحيز هي أن التحيز قد يكون حتمياً ولكنه ليس بنهائي، وهذه الحقيقة، حتمية التحيز وارتباطه بالإنساني والثقافي، قد لا تكون عيباً دائماً، فــيمكن أن يجرد التحيز من معانيه السلبية، ومن ثم توضع إشكالية التحيز على مــستوى مخــتلف تماماً. فبدلاً من أن أضع تحيزي في مقابل تحيزهم، يصبح التحيــز هو حتمية الاختيار الإنساني وهذا ما يعني بأن التحيز حتمي ولكن ليس نهائياً .(١١)

وللتحيــز أنواع كثيرة، تتأرجح في مجموعها بين الذاتية والموضوعية، ومن ثم فالوصول إلى خط فاصل في هذه الأنواع أمر صعب، فهناك التحيز لما يراه الإنــسان على أنه الحق، وحينئذ يؤكده التزام وانفعال على الرغم من أنها رؤية قــد تكــون صحيحة أو مغلوطة. أما التحيز للباطل فله أشكال كثيرة: للسلطان وللذات وللقوة .. إلخ، ويقع المتحيز تحت طائلة مرجعية لا تقبل المناقشة وتكون أحكامه نهائية، ومن ثم تعكس آلية من آليات الصراع .

وهــناك تحيز واع واضح وآخر غير واع كامن، فالتحيز الواعي أن يختار الإنسان عقيدة معينة ثم ينظر للعالم من خلالها، أما التحيز غير الواعي، فهو أن

يستبطن الإنسان منظومة معرفية بكل أولوياتها وأطروحاتها وينظر للعالم من خلالها دون أن يكون واعياً بذلك .

ومن أكثر نماذج التحيز شيوعاً، التحيز للنموذج الحضاري الغربي سواء أكان ذلك من جانب الغرب أنفسهم (انظر فوكوياما ونهاية التاريخ عنده تعني سيادة الليبرالية الغربية) أو أكان ذلك من جانب غير الغربيين (انظر طه حسين ودعوته الثقافية بتقفي أثر الغرب) .

ولابد أن يواكب كل آليات تجاوز التحيز صياغة نموذج معرفي بديل، بمعنى آخر لا ينبغي أن تكون جهودنا تفكيكية وحسب تكتفي برصد تحيزات الآخر، بل يجب أن تصبح تأسيسية تطرح نموذجاً بديلاً، وثمة خطوات أولية لابد من اتخاذها لتطوير النموذج البديل :

أ - رفض تمجيد الذات، فالنقد الكلي للنموذج الحضاري الحديث واكتشاف تحيزاته لا تعني أن نقوم بتهنئة أنفسنا، فليس الهدف إسباغ الشرعية على الوضع القائم في بلادنا (وهي لا تبعث كثيراً من الرضى) .

ب - إدراك أثر الإمبريالية، فقد حطمت كثيراً من أبنيتنا الحضارية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وأنها قامت بنهب بلادنا، كما نهبت بقية العالم، ولكن يجب ألا نقف عند هذه النقطة وندرك أنها ليست نهائية .

ج - إدراك الضعف الداخلي - كما يجب ألا ندعي أن الغرب مسئول عن كل ما حدث لنا. فعوامل الانهيار والتفكك كانت كامنة في مجتمعاتنا قبل مجيئه. ولذا بدلاً من الحديث عن الاستعمار وحسب يجب أيضاً أن نتحدث عن " القابلية للاستعمار " ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: ١١) .

د - ليست عودة للوراء - فيجب أن ندرك أن محاولة التوصل لنموذج بديل ليست دعوة " للعودة إلى الوراء "، وإنما هي تأكيد أن النماذج الجاهزة المستوردة لا تصلح لنا، ولكن المهم هو فتح باب الاجتهاد والتفكر، بدلاً من التلقي السلبي والخنوع المخجل .[١٢]

إن أمتـــنا تمتلك الكثير من آليات النهوض – إذا أخذت بنموذج بديل متناغم معها – بل أكثر من دول أخرى استطاعت أن تنهض في غضون سنوات قليلة، فميراثها الحضاري لا يضاهي، وعقيدتها كانت آلية مهمة في النهضة الإسلامية إبان العصور الوسطى، ومواردها ليست بالقليلة .

ب – الاســتتباع – لقد تغير الزمن كثيراً، ونتذكر اليوم، الحالة التي كانــت عليها معظم دول العالم الثالث (وخاصة الإسلامية منها) في نهاية الخمــسينيات والستينيات والسبعينيات، فقد كان الغرب، يتثاقل بالفعل في خطــاه ليــرحل عــن هــذه الدول، وكانت هذه الدول تعتقد أن عصر الاســتعمار قــد ولى، وأن هذه الدول ستجد لحظة مجدها مع الاستقلال والانتفاع بمصادر ثرواتها. وبدأت فترة جديدة من الاستعمار تعتمد على محــورين أساســيين: الأول يرتبط بإيجاد آلية لتعميق التبعية الثقافية، وربمــا لعبت فيها البعثات والمنح الدراسية دوراً مهماً، والثاني بتصدير نموذج غربي للتنمية، وأي كان شكل هذا النموذج، وجدواه في مجتمعاته الأصــلية، فإنــه ســوف يظل نموذجاً غربياً قد لا يجد تربة مواتية في مجتمعاتنا. وعلى حين انتفضت كثير من الدول، ظلت دول العالم الثالث وخاصــة الإســلامية تطبق نموذجاً تلو الآخر ولكن النتائج لم تكن على الــنحو المــرجو، وأخذ الغرب يبحث عن أسباب داخل هذه المجتمعات لــيقدمها على أنها سبب فشل هذا النموذج التنموي في بلاد العالم الثالث. إن الأهم من ذلك هو تعميق التبعية الثقافية والاقتصادية لتظل هذه الدول مــرتبطة بحبل سري بالدول الغربية. ولست بهذا المنطق أحاول تصوير الغرب على أنه الشيطان الذي أعد لكل شيء عدته من أجل الاحتفاظ في يــده بعصا القيادة، ساخراً من الدول الساذجة غير المعدة جيداً لمواجهة خبرته وحنكته، بل يسود اعتقاد لدينا بأن هذه الدول تتحمل جزءاً من بناء منظومة التبعية، وعلى غرار مصطلح مالك بن نبي " القابلية للاستعمار " تلك التي عمقت دور الاستعمار، أتقدم – وعلى استحياء – لأقدم مصطلح " القابلية للتبعية " .

لقــد بلغت بعض الدول مبلغاً من التبعية للغرب، وصل إلى حد الإذابة التامة والإدمــاج الشامل المحكوم بعلاقات التبعية الشاملة حتى إنك لا تستطيع أن تجد ملمحــاً للحضارة أو الثقافة الوطنية داخل هذه الدول. وهكذا برز الغرب عملاقاً متعالــياً في عالم من الأقزام، وجعل من نفسه مركزاً ومحور استتباع ومرجعية فكرية وعلمية ومنهجية عالمية وحيدة، تملك من المنظومات الفكرية والإعلامية ما يقنع الشعوب بشرعية ومشروعية ما يفعل الغرب. وعلى الجانب الآخر فإن النموذج الغربي يخفي في طياته أزمة يدركها جيداً كل باحث موضوعي. ولذلك فإن الطريق المناسب، ينبغي أن يتوجه لدراسة هذه الأزمة التي تجتاح الحضارة الغــــربية، فـــإذا كـــان الغـــرب قـــد حقـــق انطلاقـــته ومركـــزيته من خلال الانتصارات المعرفية والمادية في المراحل الأولى من ظهور النموذج العقلاني المادي، فقد حان الوقت أن نعيد النظر في هذه الانتصارات والنجاحات ونبين نقاط القصور والإخفاق التي ظهرت من خلال التطبيقات المختلفة لنموذجه المعرفــي، كآلية مهمة لكسر حدة التبعية التي تطبق على دول العالم الإسلامي، وتــشكل عائقــاً فــي ســبيل الحوار الحضاري، إذ لا حوار بين استعلاء دول وانصياع أخرى .

والأمــثلة العملــية كثيرة، فالمشروع الحضاري الغربي المبني على التنمية والــتحكم في المصادر وتعظيم الإنتاج والاستهلاك والتقدم المستمر اللانهائي قد ارتطــم بحائط كوني صلب، فإذا كان الإنسان الغربي الذي لا يشكل سوى نسبة ضــئيلة مــن ســكان الكرة الأرضية يستهلك ما يزيد على ٨٠% من مواردها الطبيعــية، فإن هذا يعني أن النمط الغربي في التنمية وتحقيق السعادة للأفراد لا يمكن محاكاته .(١٣)

وأي تنمية مستدامة (متواصلة) إذن، تلك التي يتحدثون عنها. إن إعادة تشكيل الــنظام العالمــي في صورتها الراهنة مازالت على منطقها الذي يعطي للغرب وسائل إطالة أمد هيمنته التي بناها عبر القرون الخمسة الماضية مستخدماً آليات قديمة بلغة جديدة لتعميق تبعيته لدى شعوب قد تكون لها القابلية.

ج – الكــراهية – الكــراهية صــفة فردية أو جماعية، إذا ارتبطت بالوعــي الجمعي لجماعة معينة. والكاره (أو الكارهون) يبالغ في تقدير

نفسه. وهو يعتقد أن العالم المحيط به أو الجماعات أو الشعوب التي تجاوره هم الذين يستحقون اللوم. والكراهية بوصفها نوع من انتفاخ النفس وتعاليها على الآخرين تجسد شعوراً بالضغينة والحقد وتسعى لتحقيق أهداف، تنال – في جوهرها – من الآخر الذي ينبغي أن ينعت بصفات مذمومة وتحقيرية. والذي يكره يفتقد كثيراً من القيم والمبادئ، والأهم من ذلك افتقاده للمهارات الاجتماعية الضرورية مثل الموضوعية والجدل والحوار. والعامل المشترك في الشخصيات أو الجماعات الكارهة هو الغياب شبه الميتافيزيقي لأي إحساس بالنسبية، فالكارهون لا يتفهمون أبداً قياس الأشياء، بل ولا واجباتهم وحقوقهم، بل لم يفهموا أبداً طبيعة وجودهم، فهم يعرفون فقط أن العالم ينتمي إليهم، ويتوقعون من هذا العالم تقديراً أو اعترافاً لا حدود له بهذه الحقيقة. وكل الكارهين يتهمون جيرانهم والعالم بأسره من خلال هؤلاء الجيران بأنهم أشرار. والكراهية واحدة، فليس هناك فرق بين كراهية فردية وكراهية جماعية، فأي شخص يكره شخصاً آخر، يكون قادراً تقريباً على الكراهية الجماعية، بل ويكون قادراً على نشرها، والكراهية الجماعية سواء كانت دينية أو أيديولوجية عقائدية أو اجتماعية أو قومية يكون مصدرها الأساسي هو القدرة على كراهية الأفراد .

وتتأسس جاذبية الكراهية الجماعية على عدة أسس، فالكراهية الجماعية تمحو مشاعر العزلة والضعف والخور والإحساس بالتجاهل والنبذ. ويعتقد فاكلاف هافيل Vaclav Havel أن الكراهية الجماعية تنشئ " أخوة " غريبة تقوم على أساس فهم متبادل لا يطلب شيئاً من الكاره أكثر من الكراهية. وليس من الصعب أن تنتمي إلى هذه الجماعة، وليس هناك خوف من أن تطرد. فماذا يمكن في الحقيقة أن يكون أكثر بساطة من اقتسام كراهية مشتركة لموضوع بعينه .[١٤]

وتكون الكراهية معولاً هداماً لأنظمة الحوار، إن لم تقف حائلاً في طريق بدايته، ولكنها في الأساس تعمق آلية الصراع وتغذيها والمثال على ذلك في علاقة الإسلام بالغرب. فقد أورثت الحروب الصليبية والمغامرات الاستعمارية ومشكلة فلسطين جذوراً عميقة للكراهية .

د - الصراعات - عندما تختلف المصالح، والقيم، والأفعال، والاتجاهات، والآراء، وتصطدم فيما بينها، تكون كلمة صراع ملائمة لهذا الفعل. وعندما يحدث الصراع علينا أن نتساءل لماذا يختلف الناس ؟ وربما يكون لهذا السؤال أكثر من إجابة. فالناس يختلفون لأنهم يرون الأشياء بصورة مختلفة، تنشأ الصراعات عندما ترى المواقف من جوانب مختلفة، ويقول دي بونو، أن كل واحد على صواب دائماً .

لا أحد على صواب أبداً. وربما تؤثر الشحنة الانفعالية والظروف البيئية المحيطة والنظرة المحدودة للأشياء، التي تمثل خليطاً من قصر النظر وضيق الأفق، عوامل مهمة في نشوب الصراع .

والإجابة الثانية، فإن الناس يختلفون، لأنهم يريدون أشياء مختلفة، فللناس قيم ومفاهيم مختلفة، وهم يريدون أن تكون لهم خيارات مختلفة. عندما تختلف هذه الخيارات مع خيارات الآخرين هنا يكون الصراع، كذلك يحدث الصراع عندما يوحي التفكير لدى طرف بتميزه على الطرف الآخر (الاستعلاء الثقافي والحضاري). وعلى نحو آخر يعتقد دي بونو أن الصراع أسلوب متوقع في حضارتنا، أي أن حضارتنا المعاصرة معدة إعداداً عالياً لخدمة الصراع، فالآمال والطموحات، المعلنة والمستترة، ولغة التعامل، كلها أمور مهيئة لحدوث الصراع. وفي لحظة الصراع لم يستطع أي من الطرفين الوقوف خارج إدراكهما الخاص. وثمة مجموعة من العوامل التي تساعد على حدوث الصراع أهمها: الخوف، سواء من المستقبل (شيء ما يمكن أن يحدث) أو الخوف من الإدانة أو الخوف من القوة. فالقوة تستخدم لبدء الصراعات، وتحريكها، وإنهائها أحياناً. وتؤدي الصراعات إلى خسائر كبيرة، فإن الاستراتيجية الأمضى والأفضل لكل الأطراف، هي التعايش بين البشر من خلال حل الصراعات أو تجنبها في المقام الأول. تأخذ الصراعات - في عالمنا المعاصر - أشكالاً متعددة، والتعبير الرئيسي لها هو محاولة فرض الهيمنة على الدول والمؤسسات والمنظمات الدولية لخدمة مصالح دول أخرى. ويعبر عن هذه الصراعات أيضاً، في تحالف القوى الكبرى لتنسيق هيمنتها المشتركة على العالم الحالي، وكذلك أدوارها وأنصبتها. وهنالك شكل آخر من أشكال

الصراع، هو ذلك الذي يفترضه البعض ما بين الدول الأرفع منزلة وقدراً، كما يطلقون على أنفسهم، والدول الأدنى منزلة التي أطلق عليها البلدان بطيئة النمو (الاستعلاء الثقافي والحضاري)، فالأرفع منزلة (وفقاً لتقديرهم) يدعمون إدارة الأزمات على حساب الأدنى مرتبة بفرض السياسات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية .

فقه الحوار :

أ - التسامح - والتسامح الثقافي والحضاري - لقد حدث تغير ملحوظ في معنى التسامح، حيث كان التسامح يفهم في أول الأمر على أنه جهد يبذل لتحمل أفعال وهفوات معينة، تكون موضع لوم وشجب فيما يتعلق بالقيم التي تسود المجتمع، وقد اكتسبت بالتدريج معنى " الحق في أن تختلف "، ففكرة أن يكفل للمتحاورين مساحة من الحرية لإبداء آراء قد تبدو مختلفة عن الغير أو حتى غير منطقية، فكرة جديدة نسبياً. وليس من المؤكد أن نستطيع الفصل بين مسألة التسامح وبين التنوع الحضاري. فالخصومات الكبيرة التي تسري بين الحضارات تجعل البعض يرتاب ليس في المعتقدات - فحسب - بل أيضاً في المفاهيم ولغة التعامل، حتى أنه أصبح من السهل أن نصل إلى اتفاق حول طبيعة الشر أفضل من اتفاقنا حول طبيعة الخير وممارسته. ومثل هذه الريبة يمكن أن تشكل أساساً صلباً للتنافر واللاتسامح الحضاري. والفكرة البسيطة للتسامح تقوم على رفض الهيمنة والاستبداد وفرض طريقة معينة للعيش، إنها تشير إلى الاستقلال دون أن يكون ذلك بغيضاً من وجهة نظر الآخر. فمحاولة فرض - بالتهديد أو بالعنف الفعلي - طريقة للسلوك أو الاعتقاد على الآخر، ليست فحسب انتهاكاً للحقوق الإنسانية، بل هي أيضاً عمل لا معنى له في جوهره، والتسامح الحقيقي، ليس تنازلاً، بقدر ما هو بحث عن الحقيقة والتماساً لها .

ويكتنف مفهوم التسامح، العديد من أشكال الغموض، حتى أن البعض ذهب إلى التمييز بين التسامح الأصيل والتسامح الحديث، ويقصد بالتسامح الأصيل، ذلك الموقف الذي يتضمن تحمل (أو عدم منع) ما يجب ألا يحدث، ونصبر

علـيه. والـذي يدفـع إلى هذا التسامح هو التعقل والكياسة فيما يتعلق بجوانب الـنقص والضعف في تفكير الإنسان وتصوراته وتوقعاته، وفي كل الأحوال لا يمثل هذا تصريحاً وتفويضاً بأنه مقبول، وإنما هو عرضة للرجوع فيه والتخلي عنه. أما التسامح الحديث، فإننا نعني به هذا الشكل من التسامح الذي نشأ وتطور فـي العـصور الحديـثة، والـذي صـاغه كاستليون Castellion، وسبينوزا Spinoza، ولوك Loke، وعلى الأخص بيير بايل Pierre Bayle، فالتسامح يعنـي المـوافقة على فكرة ما باسم الحرية، وباسم المبدأ الذي يعترف به الكل، يفكـر الآخـرون ويتصرفون طبقاً لمبادئ لا نشاركهم إياها، أو نتفق معهم في شأنها. وبمعنى آخر فإن التسامح هو لازمة للحرية ونتيجة لها .

وللتـسامح منابعة في القيم والأخلاق والقانون، والأديان لها نصيبها في هذه المـنابع. ويقول بول دوموشيل Paul Dumouchel، إن التسامح الديني، أخذ شـكلاً مغايـراً في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ومع هذا سيظل مثالاً للتـسامح، فالملـل المتعددة للمسيحية لم تكن تتعارض مع بعضها البعض بشكل حـاد، ولكـن لأن كلاً منها كانت تتصور نفسها على أنها " التفسير الحق للدين الشامل ". [١٥]

فهـل هذا يعني أن التسامح الحديث يتأسس على الخلاف الديني ؟ والإسلام كـان ولازال واحـة كبيـرة للتـسامح، فهو كثقافة يؤكد على قيمة الاختلاف، والإسلام كحضارة يحتوي الآخر ويتحد معه .

وكلمـة التسامح في اللغة العربية من " تفاعل " تعني التبادلية وضبط النفس، وتعنـي الـتعامل اللطيف المتبادل، ومن ثم يحقق التسامح استقراراً للمسلم على عقـيدته، بـل وتجاوز لموضوع العقيدة، والتسامح في الإسلام يرتفع لمستوى الفـضيلة الإلهـية المقدسـة، يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ (الأنعام: ١٢)، والرسول ﷺ يؤكد على فضيلة التسامح " تسامحوا مع قومي كما يتسامح معهم الله "، وفي حجة الوداع " فكلكم لآدم وآدم من تراب ". ووحـدة العقـيدة في الإسلام تدعو إلى أن يتجاوز الفرد عقيدته الخاصة، حتى يمكن أن يتقبل الآخر بخصوصياته. وهذا لويس ماسينيون يقول: إذا كان الإسلام

قد عرف بأنه الدين الحق، فلم يكن كذلك عن طريق الانفصال عن كل المظاهر الأخرى للعقيدة التي سبقته، بل التواصل معها جميعاً .

والله سبحانه وتعالى يأمر الرسول الكريم بأنه ليست مهمته أن يفرض العقيدة على الآخرين: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ (الغاشية: ٢١، ٢٢). فالنصوص الأساسية للقرآن الكريم تتعمق في إطلاق حرية الإرادة، يقول تعالـــى: ﴿ وَقُــلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف: ٢٩) ثـم يستقر المبدأ القرآني العظيم: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (البقرة: ٢٥٦) .

إن حـــرية الوعـــي والإدراك متأصـــلة في الإسلام على نحو غير مسبوق، وينطلق منها التسامح منذ البداية. والقضية التي تطرح نفسها – بإلحاح شديد – كيف يمكن تطبيق قيمة التسامح، إذ لا يمكن أن يتم ذلك موضوعياً إلا من خلال الـــربط بين مفهوم التسامح ومجموعة من القيم الأخلاقية الأساسية، تلك التي لا يمكن أن يكون هناك شك حولها، فالإبادة الجماعية والرق والاغتصاب والسلب والاســـتبداد والعنصرية أخطاء وآثام، هل يمكن التسامح أمامها ؟. يبدو أنه من المحـــتمل وضع حد للتسامح من منطلق ضرورة احترام الحقيقة. وإلى أي مدى نـــتحمل ونتسامح ؟ فإن هذا يتطلب الموضوعية والحيادية عند الحكم على أفعال الغير. والأمر الثاني يرتبط بالضرر الذي يلحق بالآخرين .

ويـــتطلب التـــسامح أن يتخلى الطرف الذي بيده القدرة على أن يفرض على الآخـــرين طـــريقته في التصرف وأسلوبه في الاعتقاد والإيمان. ويتم ذلك من خلال المراحل التالية :

١ – إنني أتحمل – ضد إرادتي – ما لا أقره أو أوافق عليه، بل وأحياناً ليس لدي القوة على أن أمنعه .
٢ – أنـــا لا أقـــر طريقتك في الحياة والعيش، ولكني أبذل جهداً لأتفهم هذه الطريقة دون أن أتقيد بها .
٣ – أنا لا أقر طريقتك في الحياة والعيش، ولكني أحترم حريتك في أن تحيا كما تشاء، وأعترف بحقك في أن تعلن طريقتك على رؤوس الأشهاد .

٤ - أنا لا أقر ولا أعترض على الأسباب التي تجعلك تحيا بشكل يختلف عن ذلـك الذي أحيا به، وربما تعبر هذه الأسباب عن علاقة بالخير تغيب عني بسبب محدودية الفهم البشري .

٥ - أنـا أوافـق على كل طرائق الحياة مادامت أنها لا تؤذي بشكل واضح سافر أطرافاً أخرى والخلاصة أومن بكل أنماط الحياة لأنها تعبر عن التنوع البشري .(١٦)

ب - فقه الاختلاف - إن الاختلاف في وجهات النظر وتقدير الأشياء والحكم عليها أمر طبيعي، وله علاقة بالفروق الفردية بين بني البشر إلى حـد كبيـر، إذ يستحيل بناء الحياة وقيام شبكة العلاقات الاجتماعية بين الـناس ذوي القـدرات المتساوية والأنماط المتطابقة، فلا مجال عندئذ، للـتفاعل والاكتساب والعطاء، ذلك أن طبيعة الأعمال، وخاصة الذهنية مـنها تتطلب مهارات وقدرات متفاوتة ومتباينة، وكأن حكمة الله تعالى اقتضت أن بين الناس بفروقهم الفردية - سواء أكانت خلقية أم مكتسبة - وبين الأعمال في الحياة قواعد والتقاء: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (هود: ١١٨) .(١٧)

لكـن الاخـتلاف يفقـد قيمته إذا تحول إلى صراع وتناحر، وتنهار كل قيم الـتقارب والـتحاور والالتقاء والتواصل أمام الرؤية الضيقة والأفكار الجزئية المتناثرة، والرغبة في الاستعلاء والاستبداد والهيمنة، فيتحول الموقف من حوار وتواصل إلى صراع وصدام .

والتأكيد على التنوع والاختلاف ليس أمراً عرضياً في الإسلام، بقدر ما يشكل جـزء أساسي من هذه العقيدة، وهذا قول الله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِـنْ ذَكَـرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجـرات :١٣)، ويقـول: ﴿ وَمِـنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ (الروم: ٢٢). والاختلاف يوجب الانفـتاح والـتفاعل والتكامل. أي تكريم للإنسان مثل هذا التكريم، حينما يخلقه الخالـق مخـتلفاً متمايزاً، ليظل طيلة عمره يبحث عن ذاته وذات الآخرين في تفاعل وتكامل، متسقاً مع شرع الله حينما نظم منظومة الكون .

ج - الحلـم - يحاول البعض مقارنة مفهوم " الحلم " بالوداعة " أو " الاعـتدال". فالحلم أعمق على حين تظل الوداعة أقرب إلى السطح. أو بمعنـى آخر فالحلم " عملية نشطة إيجابية " تتضمن أفعالاً وردود أفعال، بينما الوداعة سلبية. والوداعة فضيلة شخصية أما الحلم ففضيلة اجتماعية وحـيث يكـون الشخص الوديع، شخص هادئ ومطمئن آمن، ولا تؤذيه الأمور التافهة، والذي لا ينفعل للحقد الذي لا مبرر له، نجد أن الحلم هو " نـزوع " أو " مـيل داخلي " " يشرق ويتضح " فقط في ضوء الآخر. فالـشخص الحلـيم هو شخص يحتاجه الآخر حتى يتغلب على الشرور بداخله، ومن هنا يظهر فقه الحلم عنصراً متمماً ومكملاً في منظومة فقه الحوار .

ويـذهب كارلـو ماترانتيني Carlo Mazzrantini إلى أن الحلم هو" القوة العلـيا " الوحيدة التي تكمن في ترك الآخر يكون ذاته .[١٨] لأن الحليم مثلما هو يحيا ويرغب في الحياة يريد للآخرين أن يحيوا كذلك .

والحلـم لـيس فـضيلة أخلاقية، فحسب، وإنما دينية أيضاً. فالله حليم ستار. وانظر لقول الرسول ﷺ: " ليس الشديد بالسرعة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب ". ومن المأثورات: الحلم سيد الأخلاق .

وعكـس " الحلـم "، مدعاة للصراع والصدام، ذلك أن عكسه هو الغطرسة والتعالـي والاستبداد لأنهم يمثلون نظرة الفرد المبالغ فيها إلى ذاته، والتي تبرر له الإساءة لغيره والتحقير منهم .

والـشخص الحليم لا ينظر إلى نفسه نظرة عالية لا عن افتقاد التقدير لذاته، ولكـنه لأنـه أكثر ميلاً لأن يفكر في فقر الإنسان وضعفه. وغير الحليم يكون مـستبداً يمارس السلطة من خلال كل أنواع الإيذاء وإساءة الاستغلال والسيطرة التحكمية التي لا ترحم عند الضرورة .

و" الحلـيم " لا ينخـرط في العلاقات مع الآخرين بنية المنافسة الحمقاء أو الإثـارة أو المشاكسة، والفوز في النهاية، مهما كان الثمن. وهو لا يسعى لأي نـزاع أو منافـسة أو خـصومة، وهو في مسيرة الحياة، ليس من أولئك الذين

يبحـــثون عن فوز أو يتجنبون خسارة، فليس هناك صراع من أجل الأسبقية أو السيطرة أو الهيمنة .

و" الحلم " يكون موقفه في منطقة متاخمة " للتسامح " و" حق الاختلاف " و" احترام أفكار الآخرين وطريقة حياتهم " .

إن فكـــرة " الحلم " تتسق مع " قدر الأرض ومصيرها " في الوقت الراهن، فالأسلحة المكدسة في ترسانات الدول الكبيرة تكفي لتدمير الأرض مرات كثيرة. وكون ذلك ممكناً لا يعني بالضرورة أن يحدث إذا حل " الحلم " محل " الاستبداد والتعالي "، ذلك أن انهيار العالم بتاريخه وتراثه ومنجزاته مقترن بدرجة كبيرة بالرغبة في القوة والسيطرة، وغياب " الحلم " .

آلية الحوار الحضاري :

أولاً: لن يتم الحوار إلا بين تكوينات متفق عليها سلفاً، يمكن أن تكون على النحو التالي :

١ - الحضارات، وهي دائرة متسعة، ينطوي تحتها تشكيلات ثقافية وعرقية، ويمكـــن أن تكـــون ذات طابـــع إيديولوجـــي يخلـــق شبكة نوعية من القيم والمعـــتقدات ورؤى العـــالم كـــأن نقول الحضارة الإسلامية أو الغربية أو الكونفوشيسية .. إلخ .

٢ - المـــنطقة الجيو-ثقافية، وهي تضم مجموعة من الدول التي تتواجد في مكـــان جغرافـــي متميز ويتكون لديهم بعض أدوات التوحيد الثقافي كاللغة والـــتاريخ والثقافة والدين مثل: الدول العربية والاتحاد الأوروبي أو الدول المتوسطية .. إلخ .

٣ - على مستوى الدول، والتي تمثل وحدة التحاور الأولى .

ثانياً: فلسفة الحوار الحضاري :

١ - الظواهـــر الإنـــسانية ذات طبيعة معقدة، ومن ثم فإن فهمها يحتاج إلى رؤيـــة منظومـــية مـــتعمقة تأخـــذ في اعتبارها مختلف الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية .. إلخ .

٢ - أن التفاعل بين هذه الظواهر قد ينطوي على مجموعة من المشكلات والصعوبات التي تستدعي سعة الصدر والتفهم (آلية قصور داخل المنظومة نفسها) .
٣ - عدم الأخذ بالقوالب الجامدة التي تثير بعض المشكلات التقليدية بين المتحاورين .
٤ - الاعتراف المتبادل بخصوصية الحضارات وتميزها .
٥ - قبول التفاعل بين الهويات الثقافية المتعددة، والتي تسمح بالتعايش بين مختلف التقاليد الحضارية .
٦ - الاعتراف بأن الحوار يمثل أحد متطلبات البقاء والتوازن الكوني، الذي يمكن للصراع أن يعصف به .
٧ - النقد الذاتي واستيعاب نقد الآخرين .
٨ - القبول المتبادل لضبط العنف في حسم الصراعات .
٩ - إقصاء أساليب الهيمنة والسيطرة .
١٠ - بحث واسترجاع نقاط الاتفاق، حتى يمكن الانطلاق من خلفية مشتركة .
١١ - التسليم بوجود جوانب خلافية، وأن هذا ليس بالظاهرة المرضية .
١٢ - المعرفة الحقة والتحليل الموضوعي .

ثالثاً: شروط الحوار الحضاري :

١ - أن تسود الندية بين المتحاورين، فلا يتحاور الأطراف من منطلق التعالي والسيطرة والهيمنة والتميز .
٢ - أن يصاحب الحوار أنشطة تعارف حضاري متعمقة .
٣ - أن يعفى من الاشتراك في الحوار كل من يتعصب لرأي أو فكرة .
٤ - أن يأخذ كل مشترك في الحوار نصيبه كاملاً في عرض رأيه دون مقاطعة أو تشويش أو استخفاف أو استنكار .
٥ - أن يبدأ الحوار بجوانب يمكن الاتفاق عليها، وأن تؤجل القضايا الحساسة المعقدة .
٦ - أن يكون الحوار مستمراً وممتداً من خلال زيارات متبادلة، ولا يكتفي بالحوارات المؤتمرية .

٧ - أن تمـــارس وسائل الإعلام دوراً في دعم الحوار وإثرائه وإكسابه دعماً شعبياً.

٨ - الاتفاق على قضايا الحوار والتركيز عليها دون تشتيت .

٩ - استمرار الحوار حتى بعد تحقيق غاياته .

١٠ - إيجـــاد بنـــية مؤســـسية تـــشرف على استمرارية الحوار والنهوض به ومواجهة أي صعوبات تعترضه .

١١ - الاعتراف المتبادل بأن كل طرف يمتلك فكراً أو عقيدة أو حضارة يجب احترامها .

١٢ - أن يملك المتحاور صدراً رحباً وأفقاً واعياً .

١٣ - أن يتـــزامن مـــع الحـــوار الرغبة الصادقة للتعاون المشترك البناء بين المـــتحاورين فـــي مخـــتلف المجالات: السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، العلمية ..

رابعاً: مقومات الحوار الحضاري :

١ - الاتفاق على موضوع الحوار والمحاور المرتبطة به .

٢ - توافر عنصر المعرفة بجوانب الموضوع .

٣ - التحليل الموضوعي بحيادية ونزاهة .

٤ - استخدام الحقائق والأرقام بدون تعليقات تنطوي على استخفاف أو تحقير أو تهوين أو تهويل .

٥ - افتراض حسن النوايا .

٦ - إبـــداع أفكـــار جديـــدة مـــن شـــأنها أن تثري الحوار وتعمق التواصل الحضاري والإنساني .

٧ - أن يكون مجال الحوار هو الرغبة في تحقيق الأخوة الإنسانية .

٨ - ألا تكون غاية الحوار الحرب أو المنازلة أو السيطرة أو الهيمنة، وإنما غايته التواصل والتفاعل والتآلف .

مراجع الفصل الخامس

١ - نــصر محمــد عــارف (١٩٩٤)، الحــضارة - الثقافة - المدنية، دراسة لسيرة المــصطلح ودلالة المفهوم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ص ٢٢ .

٢ - المرجع السابق، ص ٢٤ .

3 - Hava Lazarus – Jafelh, (1981), Judaism and Islam: Some Aspects of Mutual Cultural Influences, London, pp. 72-89.

٤ - رضــوان الــسيد (١٩٩٥)، العلاقــات الإسلامية المسيحية .. ثقافة الجدل وثقافة الحياة، مجلة الاجتهاد، العدد السابع والعشرون، دار الاجتهاد، بيروت، ص ٥-١٤ .

٥ - ألــيكس جورافــسكي (١٩٩٦) مؤلــف، خلــف محمــد الجراد (مترجم)، الإسلام والمــسيحية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص ٦٨ .

٦ - المرجع السابق، ص ص ١٢٧-١٣٠.

7 - Gibb, H. R. (1955), The Influence of Islamic Culture on Modieval Europe, John Rylands Library Bulletin, Vol. 38, pp. 82-.98.

٨ - اللجــنة العالمية للثقافة والتنمية (١٩٩٧)، ترجمة بإشراف جابر عصفور، التنوع البــشري الخــلاق: تقريــر اللجنة العالمية للثقافة والتنمية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص ٥٥ .

٩ - حــسن حنفــي (١٩٩٧)، الثقافات صراع أم حوار ؟ المؤتمر الدولي حول صراع الحــضارات أم حــوار الثقافات، منظمة تضامن الشعوب الأفريقية والأسيوية، القاهرة، ١٠-١٢ مارس ١٩٩٧، ص ص ٥٤-٥٩.

١٠ - المرجع السابق .

١١ - عــبد الــوهاب المــسيري (١٩٩٨)، فقه التحيز: المقدمة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، فيرجينيا، ص ص ٣٣-٣٤ .

١٢ - عبد الوهاب المسيري (٢٠٠١)، العالم من منظور غربي، دار الهلال، القاهرة، ص ص ٢٨٤-٢٨٧ .

١٣ - عبد الوهاب المسيري (١٩٩٨)، مرجع سابق، ص ٩٠ .

١٤ - فاكلاف هافيل (١٩٩٥)، تحليل الكراهية، مجلة ديوجين، منظمة اليونسكو، ص ص ١٧-٢٠ .

١٥ - نقلا عن: إنطوان جارابون (١٩٩٥)، القانون واللغة الجديدة للتسامح، مجلة ديوجين، اليونسكو، ص ص ٥٩-٧٠ .

١٦ - بول ريكور (١٩٩٥)، تضاؤل التسامح ومقاومة ما لا يحتمل، مجلة ديوجين، منظمة، اليونسكو، ص ص ١٣٣-١٣٩ .

١٧ - طه جابر العلواني (١٩٩١)، أدب الاختلاف في الإسلام، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، فيرجينيا، ص ١١ .

١٨ - نور بيرتو بوبيو (١٩٩٥)، في مدح الحلم، مجلة ديوجين، اليونسكو، ص ٩ .

الفهرس





رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢١٧٠

المركز العلمى للطباعة والكمبيوتر
ياسر الكرار
نسخ كمبيوتر - طباعة (اوفست - ماستر)
كل مايخص الطباعة تجده بين يديك
الادارة : ٢٠ ش ترعة الجلاد - القصيرين الزاوية الحمراء
المطابع : ٤ ش محمود الفار من المنياوى القصيرين - الزاوية الحمراء
☎ : ٤٢٤٠٤٦٥ محمول : ٠١٠/٢٥١٠٩١١